الممالك الجرمانية

في أوروبا في العصور الوسطى

تأليف

دكتور محمد محمد مرسي الشيخ

مدرس تاريخ العصور الوسطى بكلية الآداب
بجامعة الاسكندرية

١٩٧٥

دار الكتب الجامعية



تقـــديم

كان أهم حدث شهدته الإمبراطورية الرومانية قرب نهاية التاريخ القديم هو غزوات القبائل الجرمانية ، وإقامة ممالك الجرمان فى قلب العالم الرومانى ، بل وإنهاء عهد الامبراطورية الرومانية فى الغـــرب . وليس من شك فى أن هذه الغزوات ، وما أسفرت عنه من إقامة ممالك جرمانية كان عاملا جـــديدا فى تكييف التاريخ الأوربى ، والسيطرة على مقدراته فى العصور الوسطى ، وبعبارة أخرى فإن العالم الرومانى القديم دلف إلى أعتاب العصور الوسطى تحت وطأة ظروف جديدة وغزوات متتالية لقبائل متبربرة ، لم تنحسر موجاتها هـذه المرة وإنما تاقت لإقامة ممالك جديدة ثابتة وسط العالم الرومانى ، الذى طالما تطلعت إليه فى حسد وغيرة تبغى الإفادة من ثرائه وحضارته .

وكان أثر هذه الممالك الجرمانية بعيدا فى تاريخ أوربا بصفة عامة وتاريخ البلاد التى أقيمت فيها بصفة خاصة ، لاسيما وقد عاشت بعض تلك الممالك قرون طويلة أثرت فى مظاهر الحضارة الرومانية ، وتأثرت هى بها ، واستطاع العالم الرومانى فى النهاية أن يتشرب أغلب تلك الممالك ويقضى على تمايزها ويذيبها فى محيطه ، لاسيما وقد اختارت طائفة كثيرا من مظاهر الحضارة الجـــديدة وأساليب الحيـــاة الرومانيـــة ، كما فقدت حماسها القـــديم وأبرز سماتها القبليـــة .

وإذا كانت موجات الجرمان قد تعددت وتلاحقت موجة بعد أخرى فإن تلك الموجات أسفرت عن قيام ممالك جرمانية ثابتة ، ظلت فترات متفاوتة تمارس دورها فى التاريخ الأوربى الوسيط ، فمملكة القوط الغربيين فى أسبانيا ، ومملكة القوط الشرقيين فى إيطاليا ، وممالك الفرنجة والبرجنديين فى غالة ، ومملكة الوندال

فى شمال إفريقية ، وممالك الجوت والإنجلز والسكسون فى بريطانيا ومملكة أدواكر فى إيطاليا ، كانت حصاد الموجة الأولى من غزوات الجرمان بقسميها الغربى والشرقى ، كما كانت مملكة اللمبارديين فى إيطاليا حصاد الموجة الثانية من تلك الغزوات ، وكانت ممالك النورمان فى نورمانديا وصقلية وجنوب إيطاليا حصاد موجة غزو الفايكنج بعد ذلك بعدة قرون أى حصاد الموجة الثالثة من موجات الغزو الجرمانى .

وعلى الرغم من أهمية هذه الممالك ودورها الخطير فى تاريخ أوربا الوسيط فان الاهتمام بالتأريخ لها ما يزال ضئيلا فى الغرب وفى الشرق على حد سواء ، وربما استنادا إلى أنها عاشت ما اصطلح على تسميته بالعصور المظلمة فى تاريخ أوربا حين ذوت الامبراطورية الرومانية واندثرت معالمها ، واضمحلت الحضارة وتهاوت صروحها ، وتضاءلت قوة أوربا وتقطعت أوصالها ، وانزوت أطرافها تحت حكم بدا بغيضا للرومان فى ذلك الوقت .

وحين أعيد تقييم دور هذه الممالك فى تاريخ أوربا برزت بعض المؤلفات تتناولها بالدراسة وتجلى بعض تاريخها وأيامها ، وإن بدت تلك المؤلفات أقل بكثير من أن تظهر ذلك التاريخ العريض وتبرز كل خفاياه ، ولعل ذلك راجع إلى أن عهود الممالك المندثرة منها بصفة خاصة ، أعقبتها فترات جديدة حاولت أن تولى هذه الممالك ظهرها باعتبارها فترات قاتمة فى التاريخ الأوربى ، لا يجب الالتفات إليها ، فضلا عن أن هذه الممالك لم تعط العلم حقه من الرعاية ولم تشجع المؤرخين وتسجيل التاريخ ، فأحس الكتاب بفجوة كبيرة تلف ذلك التاريخ وتجمل كثيرا من جوانبه غامضة فى حاجة إلى إيضاح . ويبدو أن ذلك جعل بعض الكتاب الغربيين يتيه فخرا بأنه تجبر أو عالج بإسهاب تاريخ بعض تلك

الممالك مثلما فعل Oman حين ذكر فى مقدمة كتابه مزهوا أنه بذل جهـــدا مضنيا ليضم إلى مؤلفه : « The Dark ages 476 — 918 » فصـــلا عن مملكة القوط الغربيين فى أسبانيـا على الرغم من أن بعض الكتـاب قد فعل نفس الشيء وإن كانت كتاباتهم عن تلك المملكة بالذات أقل حجما وأكثر اختصارا ، ومن هؤلاء Lot فى كتابه :

The End of the Ancient World and the begining of the middle ages .

— والكاتب Altamira فى كتابه :

A History of Spain .

— Harold Livermore, فى كتابه :

A History of spein from the begining to the present date.

فضلا عما كتب عن تلك المملكة وغيرها من الممالك الجرمانية فى المؤلف الكبير : Cambridge Med. Hist. ودوائر المعـارف المختلفة ، ومقالات الموسوعات التاريخية مثل « كتاب التاريخ » :

The Book of History. The History of all nations,

وغيرها من الكتب الأخرى .

أما فى المكتبة العربية فليس هناك — للأسف — مؤلف يتنـاول كل تلك الممالك ويعرض لتاريخها باستثناء ما كتبه أستاذنا الكبير الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور فى كتابه القيم « أوروبا العصور الوسطى » من صفحات عن هذه الممالك وما كتبه الأستاذ الدكتور ابراهيم على طرخان فى هذا الميدان وكتابه القيم عن : «دولة القوط الغربيين» ، وما عدا ذلك فتاريخ هـذه الممالك ضائع أو خاف وسط زحمة التاريخ السياسى والحضـارى لأوروبا فى العصور الوسطى أو هو على أحسن الفروض سطور قليلة تثبت زمن قيام كل مملكة ووقت اندثارها مع الإشـارة إلى أبرز ملوكها .

ويسعدنى كثيرا أن أقدم للمكتبة العربية كتابا يتناول كل هذه الممالك ويعرض لتاريخها سياسيا وحضـاريا ، حاولت فيه أن أبرز دور كل مملكة فى حياة القطر

الذى عاشت فى أرضه وأسهمت فى صنع تاريخه ، مستفيدا من عدد وافر من المؤلفات الأوربية والنصوص القديمة والمقالات الهامة فى الموسوعات التاريخية الغربية ودوائر المعارف الأجنبية . وسيتضح للقارىء مدى الجهد الذى بذلته لإخراج هذا الكتاب ، إذ ليس من اليسير كتابة مؤلف باللغة العربية عن ممالك جرمانية عاشت فترات متفاوتة فى تاريخ أوربا المظلم ، تداخلت فيها سياساتها وتضاربت أحيانا مصالحها ، واندلعت بينها الحروب واستمر بينها القتال ، وتباينت علاقاتها بالقوى المحيطة من ناحية وبالأهالى الرومان من ناحية أخرى بما يتطلبه كل ذلك من أناة فى العرض ودقة فى الإثبات وحسن فى التنظيم .

ولايسعنى فى النهاية إلا أن أتقدم بوافر الشكر والامتنان لأستاذى الكبير الأستاذ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور لجميل رعايته وارشاده لى ولدوام تشجيعه لى ، فله ولكل من تفضل بتشجيعى أقدم خالص شكرى وعظيم امتنانى .

والله أسأل أن يوفقنا إلى سواء السبيل .

محمد محمد مرسى الشيخ

الاسكندرية فى فبراير سنة ١٩٧٥ .

محتويات الكتاب

صفحة

الباب الأول

الجرمان وغزواتهم فى أوربا

صفحة

الباب الثاني

الممالك الجرمانية

صفحة

صفحة

صفحة

الباب الثالث

ممالك النورمان بأوربا

صفحة

الباب الأول

الجرمان وغزواتهم فى أوربا

الفصل الأول

الجرمان

غزوات الكلت لأوربا - الوطن الأصلى للجرمان - صفات الجرمان - النظام الاجتماعى الجرمانى - حياة الجرمان الاقتصادية - تنظيماتهم السياسية - الحروب بين القبائل الجرمانية - الإمبراطورية الرومانية والجرمان - أسباب تحرك الجرمان إلى تخوم الامبراطورية الرومانية

كانت الفترة الممتدة بين أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع فترة إنتقال حقيقية بين العصور القديمة فى أوربا والعصور الوسطى ، وضعت تلك القارة على أعتاب مرحلة هامة فى تاريخها دون شك ، فالمعروف أن ثمة عوامل كيفت التاريخ الأوربى وسيطرت على مصائره حتى نهاية القرن الثالث ، منها : الحضارة اليونانية ، والإمبراطورية الرومانية ، والديانة المسيحية ، لكن تغلغل الجرمان فى جوف الإمبراطورية الرومانية وغلبهم عليها غير مجرى التاريخ وأعطى عاملا آخر لتكييف التاريخ الأوربى . (١)

ولم تكن غزوات أولئك المتبربرين من الجرمان هى أول غزوات واجهتها الامبراطورية الرومانية واصطلمت بناءها عن إمتداد تاريخها الطويل ، وإنما سبق لها أن تعرضت لغزوات ربما كانت أشد ضراوة ، وأكثر عنفا ، ونجحت إلى

---

(1) Heyck: "Rise of the Germanic races and the Coming of the Barbarians" in the Book of Hist. V. VII. pp. 3423–5

Pirenne ; Mohammed and Charlemagne. p. 20

حد كبير فى إمتصاص إلدفاعها وإستيعاب حضارتها ونظمها ، والتأثير فيهـــا تأثيرا كبيرا ومن بين هذه الغزوات غزوات الكلت Celts ، الذين مالبثـــوا أن غدوا شعب سلام وإستقرار وزراعة وشعر وغناء . (١)

والكلت هم أحد عناصر الجنس الهندو ـ أوربى ، الذين نفذوا إلى أوربا فى هجرتهم صوب الغرب منذ أزمنة سحيقة ، حيث نزلوا أولا فى الغابات الواقعة فى شمال أوربا والجهات المعروفة الآن بجنوب ألمانيا ، ووديان أعالى الدانوب والماين وأواسط الراين ، حتى نهر الإلب شرقا ، غير أنهم إضطروا تحت وطأة ضغط الجرمان من الشمال ، إلى ترك هـذه المناطق والانسياب جهة الجنوب والجنـوب الغربى والجنوب الشرقى (٢) ، منذ أوائل القـــرن الرابع قبل الميلاد فنزلوا غاله والجزر البريطانية ، بل اضطروا إلى الرحيل إلى إيطاليا ذاتها وبلاد اليونان وآسيا الصغرى ، فأصبحوا يتناثرون فى منطقة واسعة تمتد فيما بين شواطىء البحر الاسود والمحيط الأطلسى ، غير أنهم مالبثوا أن ذابوا وسط محيط العالم الرومانى (٣) وفقدوا كثيرا من مقوماتهم الشخصية ، بل إصطبغوا بالصبغة الرومانية ، واعتنقوا المسيحية ، وأضحوا فى عداد الرعايا الرومان ، وإن ظلت بعض صفاتهم المميزة ومقوماتهم الشخصية باقية فى الجزر البريطانيه وأيرلندا لتطرف موقعها وبعدها النسبى عن دائرة التأثير الرومانى البحت . (٤)

---

(1) Cantor: Medieval History. p. 121

(2) Katz: The decline of Rome and the rise of Medieval Europe. p. 99

(3) Heyck; op. cit. p. 342/

(4) Trevelyan : Hist. of England. Part I. pp. 10-11

وإذ ذاب الكلت وسط محيط السكان الرومان ، واستمر إندفاع الجرمان نحو الجنوب والغرب ، إلى وادى الدانوب والراين وفى إتجاه الحدود الرومانية، طوال القرون الأربعة الاخيرة قبل الميلاد ، أصبح الرومان وجها لوجه أمام العناصر الجرمانية على طول الحدود(١)، على الرغم من أن الرومان لم يهتموا كثيرا بهذه العناصر المتبربرة أول الأمر ، نظرا لانشغالهم بشئونهم الداخلية وتوسعهم الخارجى ، ولعدم اكتراثهم بعد ذلك (٢) ، فضلا عن ان الجرمان لم يكونوا قد بدءوا بعد غزوهم للعالم الرومانى ، لكن ترتب على نشاط الرومان فى القرن الاخير قبل الميلاد ، والقرن الاول الميلادى ، ان اصبح الاتصال مباشرا بالجرمان ، وسرعان ما اتضحت هذه العناصر المتبربرة أمام الرومان وفهم الرومان كثيرا من صفاتها(٣) . وكان الجرمان فى اندفاعهم نحو الجنوب تجاه غالة قد دفعوا أمامهم الكلت من كل الأراضى الواقعة شرقى الراين وأصبحوا قاب قوسين أو أدنى من احتلال غالة ذاتها(٤) ، وتحتم على الرومان أن يسبقوهم إليها إذا كان لهم أن يحفظوا وحدة امبراطوريتهم ، وحين قام يوليوس قيصر بهذه المهمة فى القرن الأول قبل الميلاد ، غدا وجها لوجه أمام هذه العناصر الجرمانية، هذا فضلا عما ترتب على توجيه الحملات الرومانية إلى الحدود ، والقيام بالنشاط

---

(1) Lot: The end of the ancient Worl. p. 187

(2) Piganiol: "Barbarian assassination" in s. The Medieval world 300-1300, by Cantor. p. 16

(3) Heyck: "The rising tide of teuton power" in the B. Hist. V. VII. pp. 3431-33

(4) Cantor: Med. Hist. p. 121

التجارى من ازدياد الاتصال المباشر بهذه العناصر ، وحدوث الاحتكاك بين الجانبين(١)

والموطن الأصلى للجرمان هو المناطق المحيطة بالبحر البلطى، لكنهم انتشروا فى القرنين الأول والثانى الميلاديين فى أواسط أوربا وشرقها ، وأصبحوا أقرب الشعوب المتبربرة إلى حدود الامبراطورية الرومانية . ومما رواه يوليوس قيصر عن حملاته فى غالة من وصف للجرمان(٢) ، فى مذكراته الوارة فى كتابه de bello-gallico ، ومما ورد فى كتابات تاكيتوس فى أوائل القرن الثانى الميلادى ، تتضح صورة الحياة التى كانت تحياها هذه العناصر المتبربرة ، وطرقها فى المعيشة وأساليبها فى الحياة العامة وحياتها الحربية(٣) ، وتشير الروايات إلى أنهم قوم من البدو الرحل ، يعشقون الحرب ويزدادون شغفا بالصيد، ولايميلون كثيرا لامتهان الزراعة، على أن أهم فضائلهم كرم الضيافة، واحترام العهد والشجاعة الفائقة والنظافة والعفة ، وأنهم يتخذون من جلود الرنة لباسا يغطى جانبا ضئيلا من أجسادهم(٤) ، ويستحم ذكورهم وأناثهم معا فى الأنهار ، وغذاؤهم اللحم والجبن واللبن ، ويجوسون خلال الغابات والمستنقعات وهم دائما على أهمية الرحيل من مكان إلى مكان ، وليس لهم دخل سوى ما يمكن أن يحصلوا عليه بطريق الحرب والعنف(٥) ، وقد أسهب فى ذلك تاكيتوس كثيرا .

---

(1) Katz: op. cit. p. 100

(2) Trevelyan: op. cit. p. 13, p. 20

(3) Tacitus: "Germanic institutions" in Med World. pp. 48 — 60.

(4) Ibid, p. 56

(5) Keen: A History of Medieval Europe. p. 12

على أن تاكيتوس جعل هدفه فى كتاباته عن هذه العناصر البدائية ، أن يقارن بين مثالية حياتهم وبساطتها وبعدها عن الانحلال ، وبين انغماس المجتمع الرومانى فى حياة الترف والدعة والاغراق فى الرفاهية ، وأن يضع أمام عيون الرومان صورة الحياة البسيطة لهذا العنصر البدائى بما تنطوى عليه من حرية ونبل فى الصفات لتكون مادة لتطهير المجتمع المتحضر من شوائب الانحلال والرفاهية وإيثار العافية ، وهو أمر جعل كتابات تاكيتوس تفتقر أحيانا إلى الدقة ، وتبتعد إلى حد ما عن الحقيقة(١) ، إلا أنه مع ذلك أعطى صورة عن الشعوب الجرمانية فى أوائل القرن الثانى الميلادى فيها جانب كبير من الوضوح قبل أن تزداد معرفة الرومان بهذه الشعوب ازديادا مطردا ، ليصبح الجرمان معروفين تماما للعالم الرومانى فى القرنين الثالث والرابع(٢) .

وجرمانيا كما وصفها تاكيتوس كانت منطقة تكتنفها الغابات وتغطيها المستنقعات انعكست وحشتها وما كان يكتنفها من غموض على طباع سكانها ، لكن العنف لم يكن هو كل ما أختص به الجرمان من صفات ، فهم كذلك أصحاب أجسام فارعة وبشرة ناصعة البياض وعيون حادة زرق وشعر أشقر

---

(١) نعمر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى . ق ١ . ص ١٨
ابراهيم طرخان : تاكيتوس ص ٥١
ول ديوارنت : قصة الحضارة ج ٣ مجلد ٣ ص ١٥

(2) The most Valuable description of Germanic life by any ancient historian is "Germania" of Tacitus written in 98 A.D. which comes to about fifty pages in modern print. Cantor's Med. Hist. p. 122

مرسل ، ثم كانوا يشربون الخمر حتى الثمالة ، ويتيهون فى عالم الشراب والأحلام ويهوون التشاجر والمقامرة ، ويغنون ويشغفون بالغناء ، ولا يفوق إخلاصهم الشديد للسيد والعشيرة سوى شهوتهم الجامحة دائما نحو المغامرات الحربية (١) .

ويعتبر رباط الأسرة القوى لدى الجرمان ، ورعايتهم للمرأة ، وكرههم لتعدد الزوجات وحبهم للاكثار من الذرية ، فضلا عن تمتع الأب بسلطة تامة على زوجته وأولاده ، هى أهم مميزاتهم الاجتماعية ، وهى صفات لم تتغير باختلاطهم بالرومان (٢) ، وحازت فى نفس الوقت إعجاب الرومان المحافظين الذين مافتئوا يعلنون إستياءهم لانحراف قومهم عن الطريق المستقيم . والواقع أن مبدأ الاكثار من الذرية فى الأسرة الواحدة ، أدى إلى تفوق الجرمان على الرومان تفوقا عدديا حاسما حين أندلعت الحروب بينهما وأستعر بينهما القتال (٣) . وتعتبر الأسرة وحدة النظام الاجتماعى الجرمانى ، وكانت أسرة متماسكة يتمتع فيها الزوج بسلطة تامة على أفرادها وقد بلغت هذه السلطة حد قتلهم والتنكيل بهم ، على حين كان جميع أفراد الأسره مسئولين مسئولية مشتركة عما يرتكبه أحدهم من جرائم ، ومتضامنين فى الأخذ بثأر قتلاهم أو الحصول على دية مرضية عنهم (٤) ، وتتألف

---

(١) نعمر : تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ق . ١ ص ١٩

Ripley: The Races of Europe. p. 106
The Med. World. by Cantor. pp. 49-50

(2) Heyck: op. cit. p. 3443

(٣) نعمر : نفس المرجع ص ١٩

The Med. World. 300-1300. by Cantor. p. 49-50

(4) Katz: op. cit. pp. 100-1

العشيرة من مجموعة الاسرات ذات القرابة ، ولم يلحق العشيرة الجرمانية تغـيير كبير بمرور الاجيال ، بل ظلت تحتفظ بكثير من خصائصها وسماتها ، إذ عاشت دائما فى صخب ، وتمتع رئيسها بمكانة ممتازة وسلطة تكاد تكون مطلقـة (١) ، وحصل من رفاقه المحاربين على يمين بالولاء وعهد بالدفاع عنه وحمايته (٢) ،وتحتم على ذلك الرئيس أن يبالغ فى إظهار كرمه وسخائه نحو رفاقه فيبذل لهم الجياد والحراب ، ويقيم لهم الحفلات والولائم من حصيلة الحروب والنهب والسلب . ومن مجموعة العشائر المختلفة كانت تتألف القبيلة الكبرى أو الفرع الجرمانى الكبير أو الدولة الجرمانية (٣) ، وأنتظم الجرمان من حيث بناء المجتمع فى ثلاث طبقات طبقة النبلاء وطبقة الاحرار وطبقة العبيد ، فبينما كان العبيد يقومـون بأعمال الفلاحة وزراعة الأرض وغيرها من الاعمال اليومية ، إقتصر دور النبلاء وهم صفوة المجتمع الجرمانى على ممارسة الحرب . والتمتع بشرف الانتساب للفئـة المميزة فى المجتمع وهى فئة المحاربين (٤) ، وكذلك قضاء فترات السلم فى حيـاة لاهية ، وممارسة الصيد والقنص وإبراز سمات الأرستقراطية الجرمانيـة ، ولم يحتل أحرار الجرمان منزلة هامة فى هذا البناء الاجتماعى ، إذ لم يزيدوا كثيرا عن طبقة الفلاحين من العبيد ،وإن تميزوا عنهم بملكيتهم قطعا صغيرة من الأرض (٥) لأن الحرية فى هذا المجتمع أرتبطت إلى حـد كبير بملكية الأرض مثلما أرتبط

---

(1) Heyck: op. cit. pp. 3439-40

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 8,31

(3) Kern: op. cit. p. 11

(٤) موس : ميلاد العصور الوسطى (ترجمة جاويد ومراجعة العرينى) ص ٨٠-٨١

(5) Cantor: Med. Hist. p. 126

« النبل » بالوراثة وشرف المولد بصرف النظر عن ملكية الأرض(١) .

ونظرا لما أكتنف أرض جرمانيا من غابات ومستنقعات ، فقد كانت حياة الرعى تمثل عصب الحياة الإجتماعية فى العصور الاولى ، برغم أن مساحات متفاوتة من تلك البلاد كانت تصلح للزراعة ، ولهذا حددت قطعان الماشية والخيل ثروة الأسرة أو العشائر الجرمانية ، وعينت قدرها فى المجتمع(٢)، وتجمع الجرمان فى قرى صغيرة وكفور متناثرة ، حول منابع الماء والمراعى والأحراش ، وغدت القرية تشتمل فى الغالب على حقل مزروع ومرعى تمرح فيه القطعان وغابة تحمى القرية وتمدها بالأعشاب وحيوانات الصيد ، وكانت منازل القرية الجرمانية لا تزيد على أكواخ مقامة من أغصان الشجر ومدعمة بالطمى(٣) ، وكان طعام الجرمان بسيطا خاليا من الإسراف ، قوامه الحبوب ولحوم الصيد وألبان الماشية والفاكهة ، وشرابهم يصنعونه من الشعير . وظلت الماشية تحدد ثروة الجرمان، وكانت الزراعة تمثل جانبا ضئيلا فى حياتهم الاقتصادية حتى تحولوا زمن هجراتهم من الرعى إلى الزراعة ، فلما استقروا داخل حدود الأمبراطورية الرومانية ، لم يعد ثمة فارق كبير بين حياتهم الزراعية وحياة المجتمع الرومانى ، ولهذا تعاونت القرية الجرمانية مع المزرعة الرومانية فى إظهار نظام الضياع فى أوربا الذى غدا عصب النظم الزراعية فى العصور الوسطى(٤).

---

(1) Heyck: op. cit. p. 3440-1

(2) Ibid. p. 3440

(3) Katz; op. cit. p. 99

(٤) كوبلاند وفينوجرادوف : الاقطاع والعصور الوسطى (ترجمة زيادة) ص ١٠٢ — ١٠٤

وعلى إختلاف الوحدات السياسية التى أنتظم فيها الجرمان ، وجدت مجالس أو جمعيات تضم جميع الرجال الاحرار فى الوحدة ،سواء أكانت قرية أم مائة أم مقاطعة أم قبيلة جرمانيه أم دولة قبلية كبيرة(١) ،فلكل من هذه الوحـــدات مجلسها العام . وكان القرية وهى أصغر هذه الوحدات مجلسها أو جمعيتها العمومية التى تضم جميع رجالها الأحرار ، كما كان للدولة الجرمانية ، وهى أكبر هذه الوحدات ، جمعيتها العمومية ، التى تجتمع كلما عن أمر يتصل بمصلحة القبيـــله بأسرها كالحرب أو الهجره (٢) ، غير أن تلك الأمور الهامة كان ينظرها رؤساء العشائر قبل أن يجرى عرضها على الجمعية العامة التى تضم جميع المحاربين الأحرار والزعماء ورجال الأسرات النبيلة، ويتحدث فيها الزعماء والقادة كل حسب عمره ونبل أصله وفصاحة بيانه وصيته فى الحرب . فاذا قبـل الحاضرون رأيه وحاز إعجابهم أحثوا صخبا وقارعوا الحراب ، وإذا لم يحز رأيه رضاهم أعلنـوا رفضهم له بالصياح(٣) . وفيما عدا الجمعية العمومية للدولة الجرمانية أو القبيـلة الكبرى ، التى لا تجتمع إلا للنظر فيما يتعلق بمسائل الحرب و الهجرة ، والنظر فى القضايا الخاصة بإعدام الخونة والمارقين ، وقذف الضعفاء والجبناء ودعاة الهزيمة فى المستنقعات ، ومرتكبى الجرائم المخلة بالشرف ، كانت الجميات الصغرى تنعقد فى أوقات السلم أيضا لتنظر فى المسائل المدنية التى تهم الأفراد(٤) ، وفى الجمعية

---

(1) Heyek; op. cit. p. 3441

(2) Tacitus: "Germanic institutions" in "Med. world" by Cantor. p. 53

(٣) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٨٠ Cantor, Med. Hist. pp. 126–7

(4) Heyck; op. cit. p. 3441

العمومية الكبيرة كان يجرى أختيار القادة الكبار طبقا لمقدرتهم الحربية ودرجة بسالتهم ، ثم جرى أختيار الملوك بعد ذلك وفقا لعراقة أصولهم ودرجة نبلهم(١)

ومن العجب حقا أن يحيا الجرمان برغم وحدة أصولهم وتشابه عاداتهم ، حياة خالية من الروح القومية ، طافحة بالحروب الداخلية والمنازعات القومية ، فقد حاربت القبيلة أختها من القبائل وشاجرت العشيرة جارتها من العشائر ، حتى لم يعد الجرمان سوى جموع من القبائل المتحاربة المتشاجرة ، كما أن نظرتهم لجارتهم الامبراطورية الرومانية أختلفت أيضاً ، فنظر اليها بعضهم على أنها عدو ينبغى محاربته ومناهضته ، فى حين نظر اليها البعض الآخر على أنها موطن يرجى إستيطانه ومصدر للرزق يمكن الإفادة منه ببذل الخدمة العسكرية(٢).

والواقع أن الامبراطورية الرومانية أصدمت بمجموعتين كبيرتين أنقسم اليها الجرمان ، بعد انسياب الجانب الأعظم منهم من شبه جزيرة اسكنديناوه الى جوف القارة الاوروبية ، فضمت مجموعة الجرمان الغربيين : الفرنجة والإنجليز والسكسون والسويفيين والالمانى وضمت مجموعة الجرمان الشرقيين : القوط والوندال والجبيداى والبرجنديين واللمبارديين والروجيين وغيرهم(٣) . وفى حين بقى فريق من الجرمان فى شبه جزيرة أسكنديناوه ، حيث تفرعت الامم السويدية والنرويجية والدانيه الحالية ، وصل فريق فى رحلته جنوبا بغرب عبر المانيا — سعيا وراء العيش أو الجو الدافىء أو حبا فى المغامرة والحروب — الى حوض نهر الراين ، فى حين اتجه فريق ثالث وجهة شرقية ،

---

(1) The Med. World. by Cantor. p. 51

(٢) نفس : نفس المرجع ص ٢٠

(3) Katz: op. cit. pp. 99–100

فوصل إلى ضفاف نهر الدانوب وسواحل البحر الأسود ، وهذان التيـــاران المتباعدان من تيارات الهجرة الجرمانية هما اللذان اصطدمت بهما الامبراطورية الرومانية(١)

وعلى الرغم من أنه لم يكن هناك اختلاف كبير بين الجرمان قبل هجراتهم فإن الاختلافات ما لبث أن ظهرت بينهم بعد الهجـرات بسبب اضطرار كل فريق إلى مواءمة حياته فى البيئة التى حل بها ، فبينما السابت جماعات الفـــرنجة والسويفيين والسكسون والألمانى من مواطنها نحو الجنوب إلى بلاد لا تختلف كثيرا فى طبيعتها عن بلادهم ، فصاروا إلى شىء من الزراعة والاستقرار قبـل أن يغيروا على الامبراطورية الرومانية(٢) ، نجد القـوط والوندال واللمبـارديين فى الفرع الشرقى قد هاجروا إلى سهوب البحر الأسود وإلى بلاد بالغة الاختـلاف عن بيئاتهم ، ولذا ظلوا رعاة يضربون فى مناكب الأرض الوعرة والغـــابات بسائمتهم وعرباتهم طلبا للعيش والمرعى ، كما ظلوا فرسانا شديدى البأس(٣) وهكذا ظل الجرمان الشرقيون فى حالة بداوة لم يصبهم كثير من التغير ، وغاراتهم ليست سوى هجرات وتحركات تبدأ وتنتهى من آن إلى آن بحثا عن مراع جديدة ومواطن صالحة لهذه الحياة ، بينما اتخذت غزوات الجرمان الغربيين صفة الزحف الدائم مع الاحتفاظ بالأصول والموطن تمد وتدعم وتقوى بانتظام(٤). وظـل الجرمان يختلفون اختلافا بينا عن سكان الامبراطورية الرومانية حتى بعد انتقالهم

---

(1) Orten: The Shorter Caml. Med. Hist. V.I. pp. 360–64

(2) Cantor: Med Hist: p. 125

(3) Heyck: "The great Tentonic deluge" in B H. V.VII p. 3447

(4) Heyck: "Rise of the Frankish dominion" in B.H. V. VII. p. 3471.

إلى تخوم الدولة ، فبقوا قبائل متحاربة ، وعشائر متشاجرة ، وظلوا أمما متخلفة من الناحية الحضارية تفتقر إلى نظم إدارية وثقافية وفكرية ، وبقيت حيــاة البداوة تغلب عليهم ، وليس لهم شيء من التجارة والصناعة، لكنهم كانوا شديدى التحمس للافادة من مظاهر الحضارة التى غدوا بقربها(١) ، وعلى استعداد لتقبل كل ما من شأنه أن يرقى بهم ، حتى ليصبح من الصعوبة بمكان أن نفرق بين ماهو من أصل جرمانى بحت وما هو من أصل رومانى(٢) .

على أن الإفادة من مظاهر هذه الحضارة والإفادة من ثروة الأراضى الرومانية وخصبها كانتامن بين الأسباب التى أدت إلى تحرك الجرمان إلى تخوم الامبراطورية الرومانية ، فضلا عما اكتنف المنطقة من حولهم من تغيرات ساهمت فى دفعهم إلى جوف الدولة الرومانية ابتداء من أواخر القرن الثانى الميلادى(٣) ، فقد ضاقت بهم سبل العيش نظرا لتزايد أعدادهم وفقر أراضيهم ، وشغل مساحات شاسعة منها بالغابات والمستنقعات وعدم كفاية زراعتهم البدائية لحاجة السكان ، فضلا عن تعرضهم لكوارث الطبيعة من جفاف ومجاعات وفيضانات وحــرائق فى الغابات وصواعق أدت إلى تحركهم إلى مواطن جديدة(٤) ، هذا بالإضافة إلى ما حدث من ضغط قبائل أخرى كالصقالبة والسلاف من جهة الشرق ، كل هذا جعلهم يتحركون التماسا لمواطن جديدة ، عبر مجرى الراين والدانوب، يتطلعون فى حسد وغيرة للأراضى الوادعة والحقول المزروعة والمدن الصاخبة على الجانب

---

(1) Pirenne: op. cit. 22

(2) Katz: op. cit. p. 10

(3) Heyck : " The Rising tide of Tenton power " B. H. VII. p. 3443

(٤) موس : المرجع السابق ص ٧٨-٨٧ ، Cantor : Med. Hist. p I22

الآخر من ضفاف النهرين الكبيرين(١). غير أن تحرك فريق من الجرمان الشرقيين وهم القوط إلى داخل الامبراطورية الرومانية كان نتيجة لتحرك شعب أسيوى آخر أشد ضراوة وأكثر وحشية، وهو شعب الهون، إذ يبدو أن الظروف المناخية كانت قد تغيرت فى آسيا الوسطى، وازدادت البيئة فيها قسوة، فأدى ذلك إلى اندفاع شعوب متبربرة وضغطها على سكان الجهات المجاورة(٢)، وكان تحرك الهون صوب الجنوب والغرب مجتازين قارة آسيا إلى حوض نهر الدون فى النصف الثانى من القرن الرابع الميلادى فهزموا القـــوط الشرقيين، وراحوا يدفعونهم وغيرهم من الجرمان إلى جوف الإمبراطورية الرومانية(٣).

والواقع أن علاقة الجرمان بالإمبراطورية الرومانية مرت بأدوار مختلفة، وانتهت بغزو الجرمان لأراضى الإمبراطورية وإقامة ممالك جرمانية بين ربوعها ويشير كثير من الدلائل إلى أن هذه العلاقة بدأت بفترة من السلم والتعاون بين الجانبين استغرقت نحو قرنين من الزمان(٤) حتى نهاية القرن الثـــانى الميلادى وبالتحديد نهاية عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس سنة ١٨٠م حيث أخذت القبائل الجرمانية المرابطة على حدود الدولة إلى السكينة فى حين تكفلت استحكامات الدفاع الرومانية بكبح جماح هذه القبائل ووضع حد لأطماعها، لـــكن الأمور

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 188

(2) Heyck: "The great Teutonic deluge" in B. H. VII. pp. 3453-4

(3) Grant: Outlines of European Hist. p. 127

(4) Heyck: "The rising tide of Teuton power", B H. VII. pp. 3443-5

أخذت تتبدل فى غير صالح السلام ابتداء من أواخر القرن الثانى ، حين عاشت قبائل الجرمان فى حوض نهر الدانوب(١) ، واتخذت هجماتهم طوال هذا الدور طابع الهجمات المتفرقة والعمليات الحربية المتقطعة المفتقرة للرباط أو الوحدة أو الخطة الشاملة والمعتمدة على الظروف المتغيرة والعوامل المحركة كضغط القبائل الأخرى وحدوث المجاعات ، غير أن عبث القوط امتد فى البلقان سنوات طويلة خلال القرن الثالث حتى تمكنت الإمبراطورية من هزيمتهم سنه ٢٧٠م(٢) وتأخير تغلغلهم فى أراضيها ، وساعد على كبح جماح هذه القبائل حينذاك ما حدث من تنازل الإمبراطورية عن إقليم داشيا بالبلقان ليقيم به القوط ، فاستقروا به وأخلدوا إلى السلم فترة ، وتأثروا بالمسيحية ، وأخذوا يفيدون من مظاهر الحضارة الرومانية(٣) ، واستمر تغلغل الجرمان فى جوف الإمبراطورية بالهجوم تارة وبالتسرب البطىء تارة أخرى ، حتى أواخر القرن الرابع الميلادى وساعد على ذلك ما حدث من اتجاه الإمبراطورية للافادة من هذه العناصر المتحمسة الوافرة النشاط واستخدامهم جنداً مرتزقة فى الجيوش الرومانية ،وأصبح بعض المهيمنين على مصائر الإمبراطورية من القادة تجرى فى عروقهم دماء جرمانية(٤) بعد أن أصبح التفاعل والتزاوج بين الجانبين أمرا مألوفا فى القرنين الثالث والرابع . على أن الهجمات الجرمانية ما لبثت أن تجددت فى الربع الأخير من القرن الرابع بطريقة جديدة تعين بداية مرحلة ثالثة فى العلاقات بين الجانبين،ذلك

---

(1) Katz: op. cit. p. 21

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 188

(3) Heyck : "The great Teutonic deluge" B. H. VII p. 3447

(٤) رستوفتزف : تاريخ الامبراطورية الرومانية (ترجمة د. زكى على) ص ٤٧٤ ،
Hussey : The Byzantine World. p. 15

أن هجمات الجرمان فى هذا الدور اتسمت بطابع الهجمات المنظمة والهجـــرات الجماعية الكبيرة[١] ، المرتكزة على خطط حربية هامة واستمرت هـذه الحـركة نحو قرنين من الزمان استطاعت خلالها القبائل الجرمانية الكبيرة إخضـــاع أقاليم رومانية كبيرة وفرض استقرارها داخل حدود الأمبراطورية الرومانيه قهراً ، وإقامة ممالك جرمانية معروفة ظلت قائمة فترات متفاوتة تساهم فى صنـع التاريخ الأوربى الوسيط[٢] .

(I) Heyck : op int. pp. 3447-8

(2) Oman : The Dark ages. p. 4

الفصل الثاني

غزوات الجرمان

القوط الغربيون ـ أثر ضغط الهون في تحرك القوط الغربيين ـ القوط الغربيون والإمبراطور فالنز والامبراطور ثيودسيوس العظيم ـ آلاريك الجسور وغزو إيطاليا ـ إبعاد القوط الغربيين عن إيطاليا إلى جنوب غرب غالة ـ الوندال ونزوح جنزريك إلى شمال إفريقية ـ سياسة جنزريك في شمال إفريقيه ـ البرجنديون وغزوهم لغالة واستقرارهم بين جبال الألب ونهر الرون ـ الهون وولاية أتيلا ـ غزو أتيلا لغرب أوربا ـ هزيمته عند شالون ـ حصاره لروما وانسحابه ثم وفاته ـ نهاية الامبراطورية الغربية سنة ٤٧٦م. على يد أدواكر ـ أهمية هذا الحدث ـ غزو القوط الشرقيين لايطاليا بقيادة ثيودريك ـ الفرنجة وغالة ـ انتصار سياجريوس ـ تمايز الفرنجة عن بقية العناصر الجرمانية ـ إعتناق كلوفس المذهب الكاثوليكي ـ أثر هذا في تاريخ الفرنجة ـ سياسة كلوفس في غالة ـ غزو الانجلز والسكسون والجوت لبريطانيا .

تميزت هجمات الجرمان منذ أواخر القرن الرابع إذن ، بطابع الهجمات المنظمة والهجرات الجماعية الكبيرة ، وانتهى الأمر باستقرار الجرمان الدائم داخل حدود الإمبراطورية الرومانية ، وتأسيس ممالك جرمانية معروفة ، ظلت قائمة فترات متفاوتة ، لتصبح أحد العناصر المكيفة للتاريخ الأوربي الوسيط .

ويمثل غزو القوط لأراضي الامبراطورية الرومانية أكثر الغزوات إثارة وأشدها قسوة ، فمن موطنهم الأصلي في اسكنديناوة ، عبر القوط البحر البلطي

ووصلوا إلى مصب نهر الفستولا ومنه بدءوا سيرهم وطوافهم ، قرب منتصف القرن الثانى الميلادى ، جهة الجنوب الشرقى وأستقروا شمالى البحر الأسود ، مكونين مجموعتين كبيرتين : هما القوط الشرقيون Ostrogoths والقوط الغربيون Visigoths (١) . وفى حين إتجه القوط الشرقيون نحو حوض نهر الدون وسهول روسيا الجنوبية ، إتجه القوط الغربيون نحو بلاد البلقان وإقليم داشيا . الذى تنازلت عنه الامبراطورية مرغمة (٢) . وسمحت للقوط بالإقامة فيه نحو قرن من الزمان (٢٧٥ - ٣٧٥ م) قبل أن يعبروا إلى داخل الامبراطورية ويقيموا ممالك مستقرة ، ويقوضوا نفوذ الحكومة الغربية وسلطانها(٣) . على أن القوط مالبثوا أن أظهروا من الحماسة لتقبل الحضارة التى أضحوا بقربها ما جعلهم شديدى التأثر بعناصر تلك الحضارة ، صريعى التعلم لكل ما كانت الإمبراطورية تود أن تعلمه لهم(٤) ، فسرعان ما اعتنقوا المسيحية الاريوسية على يد مبشر يدعى أولفلاس (٣١٠ - ٣٨٠ م) ، وهو يونانى من إقليم قبادوقيا بآسيا الصغرى ، نال قسطا من التعليم فى القسطنطينية ، وترجم الإنجيل الى اللغة القوطية(٥) واهتم بنشر المسيحية بين أهل البلاد التى أتخذها موطنا . وساعده على ذلك ما حدث من إقبال القوط على تفهم الدين الجديد ، لإتخاذه وسيلة للتلاؤم على المدنية الجديدة التى حرصوا على المشاركة فى ركبها (٤) .

---

(1) Cantor; Med Hist. pp. 121-2

(2) Heyck : op cit. p. 3447

(٣) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص٥١ (ترجمة د. عبد الحميد حمدى)

(4) Pirenne: op. cit. p. 22

(5) Rofael Altamira : A. Hist. of Spain. p. 76

(٦) نفس المرجع ص ١٧ ، Grant ; op. cit. p. 120

غير أن الهون مالبثوا أن نفذوا الى ربوع داشيا سنة ٣٧٦م ، وهزموا عشائر القوط الغربيين وأجلوهم عن تلك المقطقة (١) ، فتوسل القوط الغربيون الى الإمبراطور فالنز Valens (٣٦٤ - ٣٧٨ م) أن يجيبهم ملجأ ثانيا يحتمون به من خطر الهون ، فسمح لهم الإمبراطور بعبور نهر الدانوب والالتجاء الى الأراضى المهملة فى تراقيا ومحاولة استصلاحها ، ويبدو أن الإمبراطور كان يهدف الى الإفادة من القوط لحماية حدود الإمبراطورية عند الدانوب ، واتخاذهم حاجزا بينه وبين الهون (٢) ، إلا أن الإمبراطور ما لبث أن أدرك مغبة هذا العمل ، وعرف أبعاد هذا الخطأ ، اذ لم يكن بوسع السلطات الرومانية توفير سبل العيش والحياة المستقرة لهذه الجموع الكثيرة ، وكبح جماحها عن العبث بالجهات المجاورة ، وسرعان ما أحس القوط بالضجر والضيق من الوضع الجديد ، وقاسوا شظف العيش فى مضاربهم الجديدة ولم يقنعوا بأن يكونوا مواطنين ، فأخذوا يفرضون سلطانهم على السكان المجاورين ، ويستولون لحسابهم الخاص على كل المنطقة حتى نهر الدانوب (٣) وإذ طفح الكيل بهم فى النهاية ، أعلنوا الثورة على الإمبراطور فالنز والتجئوا الى السلاح ، فاستبد القلق بالإمبراطور فالنز ، وكان حينذاك بأنطاكية ، فبادر بالنهوض فى جيش من الشرق غير منتظر قدوم إمدادات من الغرب ، فتعرض لهزيمة ساحقة فى موقعة أدرنة سنة ٣٧٨م (٤) .

---

(1) Camb. Med. Hist. V. 1. pp. 215-6 ,"Ammianus Marcellinus. pp. 576-9" tran. by Yonge. in: The Med. World. by cantor. pp. 68-70

(2) Heyck : op. cit. p. 3449

(3) Jordanes : "The Visigothic Conquest" tran. by Mierow pp. 89-96. in Med. world. by Contor. p. 71

(4) Heyck : op. cit. p. 3450.

ولقى حتفه على أيديهم ، بعد أن إجتاحوا . بخيالتهم الثقيلة جيوشة الراجلة ، وحصلو على نصر كبير بدءوا به مرحـــلة هامة فى علاقتهم بالإمبراطورية الرومانية (١).

أدرك الإمبراطور ثيودوسيوس (٣٧٨ - ٣٩٥م) خليفة فالنز أن معاداة القوط ليست من الحكمة فى شىء ، ولهذا حرص على محاولة استرضائهم ، ونجح بفضل مهارته السياسية فى تحويل القوط الغربيين إلى معاهدين أوفياء ، وذلك حين هيأ لهم موطنا آمنا فى إقليم تراقيا ببلاد اليونان (٢)، وسمح لمن يرغب منهم بالانخراط فى الجيش جنداً مرتزقة ، ووافق على احتفاظهم باستقلالهم القبلى وخصائصهم القومية واحتفاظهم بقوانينهم وعقيدتهم الاريوسية ، وأعفاهم من الضرائب نظير تقديمهم الخدمة العسكرية ، وكان ذلك بمعاهدة عقدها معهم ترتبت عليها نتائج بالغة الاهمية بالنسبة للأحداث اللاحقة (٣) . على أن أمجـــاد ثيودوسيوس التى كفلت له التمتع بلقب ثيودسيوس العظيم هى التى منحت الإمبراطورية سلاما مع هـــذه العناصر المتبربرة ، امتد قرابة ثلاث عشرة سنة منتزعا منهم صداقة عزمنا لها لفترة طويـلة وجبرا إياهم على العيش فى سلام مع الرومان (٤)، غير أن الظروف مالبثت أن تغيرت فى غير صالح الإمبراطورية بعد وفاة هذا الإمبراطور العظيم سنة ٣٩٥م ، إذا اعتلى العرش بعده ابنان ضعيفان أحدهما أركاديوس الذى كان وقتذاك فى الثامنة عشرة من عمره ، والذى

---

(1) Ostrogorsky : Hist. of the Byzantine State. p. 48
Katz : op. cit. pp. 88–9

(٢) نفس: نفس المرجع ق ١ ص ٢٢

(3) Katz : op. cit. p. 39

(4) Pirenne: op cit. pp. 23–4

وصف بأنه كان قليل الحجم بادى الكآبة بطىء الحديث ، ويبدو دائما كما لو كان نائما ، بينما كان الآخر هنوريوس فى الحادية عشرة من عمره ، ورغم تدينه ومظهره المهذب فقد كان قاصرا مثل أخيه ، فضلا عما اتسم به من عناد وقلة كفاية (١) ، وقد اعتلى الأول القسم الشرقى من الإمبراطورية وعاصمته القسطنطينية ، فى حين اعتلى الثانى عرش القسم الغربى من الإمبراطورية وعاصمته رافنا Ravenna (٢) ، ويعد ذلك أمرا بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ الإمبراطورية الرومانية بصفة خاصة والتاريخ الأوربى الوسيط بصفة عامة ، إذ انقسمت الإمبراطورية منذ ذلك الوقت إلى قسمين ، وبدأت وحدتها تتفتت وقوتها تضعف (٣) ، وخضع أركاديوس فى القسم الشرقى لسلطة طواشى يونانى ، يدعى يوتروبيوس ، وقنع الآخر - هنوريوس - فى القسم الغربى بسلطة شكلية فى ظل قائد وندالى قوى يدعى ستيلكو (ستيلخو) (٤).

انتهز القوط الغربيون هذه الفرصة وأخذوا يعيثون فسادا فى البلاد التى نزلوا بها غير قانعين بما حصلوا عليه من امتيازات على عهد ثيودسيوس العظيم ، بل إنهم بادروا بانتخاب ملك عسكرى عليهم فى سن الثلاثين ممتلىء بالحماس والجسارة وهو ألاريك Alaric ، الذى أقض مضاجع الرومان ، وأفزع بجسارته الحربية أفئدة المعاصرين (٥) ، إذ قاد عشائره من القوط الغربيين وهاجم أثينا

(1) Lot : The end of the ancient world. p. 201

(٢) ديهز : نفس المرجع السابق ص ١٧—١٨ ، Ostrogorsky: op. cit. pp. 50

(3) Heyck : op. cit. p. 3450

(4) Hussey: "The Byzantin world. p. 14

(5) Lot: op. cit. pp. 203-4

وتساليا واستولى على كورنثه وإسبرطة وراح يعمل بحماس للحصول لقدمة على إقليم خصب من أقاليم الإمبراطورية ، ولم تهن عزيمته حين لحقته بعض الهزائم على يد القائد ستيلكو ، بل إنه بدأ يعد العدة لغزو إيطاليا ذاتها (١) ، وإذا كان القائد ستيلكو قد نجح فى رد ألاريك عن إيطاليا سنة ٤٠٢م ، فإن الظروف مالبثت أن تغيرت فى سنة ٤٠٨ حين اختفى استيليكو من مسرح الأحداث بعد اتهامه بالخيانة وإعدامه بأمر إمبراطور الغرب هنوريوس (٢) ، وكان ذلك فى حد ذاته كافيا لفتح الطريق أمام ألاريك لحصار روما ، وفعلا تعرضت روما لحصار القوط الغربيين ثلاث مرات ، حتى اضطرت فى النهاية لفتح أبوابها سنة ٤١٠م لألاريك ، فأباحها لقومه يعيثون فيها فسادا (٣)، غير أن دخول القوط الغربيين إيطاليا واستباحتهم روما ونهبها لم يكن فى حقيقته سوى مرحلة من مراحل سعيهم للفوز بموطن دائم خصيب يقيمون فيه ، بدليل أن ألاريك فكر فى غزو إقليم شمال إفريقية الذى كان يمد روما بالغلال ، وسار بقومه نحو جنوب إيطاليا توطئة لعبور البحر المتوسط ، ولكن الموت لم يمهله إذ توفى فى نفس العام (٤) ، قبل أن تتضح الخطط القادمة لتحرك هذه المجموع الغازية (٥).

وبصرف النظر عما حدث من صدمة للمعاصرين حين اقتحمت روما واستبيحت على يد القوط الغربيين ، وما حدث من مهاترات انحدرت حينا إلى حد التساؤل :

---

(1) Jordanes : op. cit. pp. 89 — 96 in Med. World. p. 71

(2) Heyck : op. cit. pp. 3451—2

(3) Bury : Hist of th later Roman Empire. V. 1 p. 180

جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢١٦ (مترجم) .

(4) Pirenne : op. cit. p. 25

(5) Katz: op. cit. p. 91

أكان ذلك انتقاما للوثنية وآلهتها ومعابدها السالفة ، أم جزاء لاعتناق المسيحية والتعصب لها ؟ فقد تلاشت تلك الصدمة سريعا وابتلعها المعاصرون فى فتور (١)، وخاصة أن روما كانت قد ذوت مكانتها وتزعزع مركزها ولم تعد العاصمة السياسية للامبراطورية ، ولم تكن حصن المسيحية أصلا ، قبل أن تفيق من غيبوبتها وتنهض من عثرتها لتستعيد مجدها التالد وعزها القديم (٢). ولقد ألحى القديس جيروم باللائمة على سياسة ستيلخو فقال إن كل ما أصاب روما لم يكن بسبب أباطرتها ولكن بسبب سياسة هذا الرجل الذى كانت تجرى فى عروقه دماء نصف بربرية (٣) .

على أن الإمبراطورية الغربية مالبثت أن أدركت أن بوسعها صرف أولئك الغزاة من إيطاليا ، بمنحهم إقليما آخر يوجهون إليه ، فى أدك القوط الغربيون أنه ليس من المصلحة فى شىء هدم كيان الإمبراطورية والقضاء عليها وأن هذا الهدف ليس وارداً فى خططهم ، ولهـــذا التقى الطرفان فى منتصف الطريق ، وكانت جموع الوندال والآلانين Alans والسويفيين (السويفى Suevi) قد انسابوا نحو غالة واستباحوها، وغدت تلك البلاد شبه مفقودة بالنسبة للامبراطورية (٤)،

---

(1) Heyck: op. cit. pp. 3452–3

(2) Lot: op. cit. pp. 197–80

(3) "... not by the fault of her emperors ... but by the crime of a half-barbarian traitor (stilicho) ... who with our money has armed our foes against us" انظر مقالة القديس جيروم بعنوان The Barbarian Traitor فى كتاب The Med. World. 300 – 1300 by Cantor. p. 11

(٤) موس : نفسه ص ٤٢ Camb. Med. Hist. v. I. pp. 266–8

فلم يجد الإمبراطور هونريوس غضاضة فى صرف القوط الغربيين عن إيطاليا بمنحهم إقليم أكوتين فى جنوب غرب غالة فى المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى حدود البرانس، على أن يستخلصوه من تلك الجموع وبذلك تضمن الإمبراطورية تحقيق هدفين فى وقت واحد ، إبعاد القوط الغربيين عن إيطاليا ، ودفع تلك الجماعات - وهى أكثر منهم بربرية - عن غالة ، ولذا حصل الإمبراطور هونريوس على موافقة مجلس السناتو ، وأكدها بموافقته الشخصية وعرضها على القوط (١) ويبدو أن القوط الغربيين لم يجدوا غضاضة فى الدفاع عن مصالح الإمبراطورية ، وفى نفس الوقت تحقيق أهدافهم الذاتية فى الاستقرار، فقدمضوا نحو غالة سنة ٤١١م ، بعد أن حل أتولف ملكهم الجديد الغنائم التى حصل عليها قومه إلى الموطن الجديد المزمع استخلاصه (٢). ولم تمض عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا فى الجزء الجنوبى من غالة فى المنطقة الواقعة بين نهرى اللوار والجارون ومن بينها تولوز وبوردو وبواتيه ، قبل أن يزيحوا جموع السويفيين والوندال عن أسبانيا ويقيموا بها مملكة مستقرة ظلت قائمة لفترة طويلة (٣) .

وإذا عدت هجمات القوط أكثر غزوات الجرمان إثارة فى تاريخ الإمبراطورية الرومانية ، فإن غزوات الوندال وهم من فرع الجرمان الشرقيين أيضا تعد أكثر تلك الغزوات فجعاً وأشدها قسوة على الإطلاق (٤)، فقد اضطر هؤلاء الغزاة

(1) Jordanes: op. cit. pp. 89–96 in Mod. World Cantor. p.72

(2) Heyck: op. cit. p. 3452

(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 53
Altamira: A. Hist. of spain. p. 76

(4) Heyck: op. cit. p. 3452

تحت ضغط القوط الغربيين إلى ترك أسبانيا والنزوح إلى شمال إفريقية عبر البحر المتوسط ، وذلك سنة ٤٢٩م تحت قيادة ملكهم ذائع الصيت جنزريك Gaiserie الذى حظى بشهرة واسعة فاقت شهرة كثير من قادة وملوك البرابرة فى تلك الفترة (١)، فقد أثبت ذلك الرجل القصير الأعرج ، أنه على جانب كبير من البراعة فى الشئون السياسية والحربية ، وبطل همام وقائد محنك ، لكنه اتسم بمسحة من القسوة والعنف وصمت حركة الوندال بالوحشية وحولت غزوهم إلى محنة حقيقية لأهل البلاد التى نزحوا إليها(٢) ؛ فقد انتهز جنزريك فرصة اضطراب أحوال الإمبراطورية ، ونزل بقومه الذين بلغ عددهم نحو ثمانين ألفا من الرجال والنساء والأطفال ، إلى الساحل الإفريقى ، وشرع فى الاستيلاء علـى السهول الخصبة فى شمال إفريقية ، ولم يستطع القائد إيتيوس أن يمنع سقوط شمال إفريقية فى يد الوندال نظرا لافتقاره إلى أسطول قوى (٣) ، فدانت البلاد لجنزريك ، من طنجة فى أقصى الغرب حتى طرابلس فى الشرق وسقطت فى يده قرطاجة سنة ٤٢٩م أهم مدن الغرب وأكبر مركز حضارى وعمرانى بعد روما ، فأصبح يملك ناصية ولاية شمال إفريقية وأهم مصدر لإنتاج القمح فى الإمبراطورية ، فضلا عن الفوز بقاعدة بحرية ضخمة علـى الساحل الإفريقى (٤) ، ويبدو أن الوندال أدركوا مبكرا أنه يتحتم عليهم حيازة أسطول بحرى قوى إذا كان عليهم أن يحموا البلاد التى أغتصبوها ، وهى تتمتع بساحل طويل تسهل مهاجمته بحرا ،

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 29
(2) Oman : The dark ages. pp. 7-9
Grant : op. cit. pp. 126-7
(3) Lot : op. cit. p. 207
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 57

ولهذا لم يمض وقت طويل حتى غدوا أكبر قوة بحرية فى غرب البحر المتوسط، فهاجموا صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزر البليار[١] ، وأنزلوا بصقلية وسردينيا الخراب والدمار ، بل بل إنهم تحولوا إلى إيطاليا نفسها ونزلوا بالساحل الإيطالى وهاجموا روما نفسها سنة ٤٥٥م واستباحوها أسبوعين [٢].

على أن محنة الغزو الوندالى لاتكمن فى مجرد القرصنة البحرية وإلحاق الخراب والدمار بالجبهات التى هاجموها بقدر ما تكمن فى السياسة الاستبدادية التى انتهجها جنزريك فى حكم مملكته الجديدة ، إذ أمعن فى مصادرة الأملاك وانتزاع الضياع من أصحابها وفرض الضرائب وأظهر القسوة فى جبايتها ، واضطهد رجال الدين الكاثوليك[٣]، وصادر أملاكهم وتعصب بحكم أريوسية ضد الكنيسة الكاثوليكية وأنتهج نهجا فريدا فى إلحاق الضرر برجالها ، ويبدو أنه اضطر إلى اتخاذ هذه السياسة ردا على المؤمرات التى كانوا يحيكونها ضد دولته الناشئة ، فضلا عما تعرضت لدولته من سخط قبائل البربر الأفريقيين فى جنوب المملكة[٤]، ولكن لم يمض وقت طويل حتى اضطر الإمبراطور فالنتيان الثالث فى سنة ٤٤٢م إلى الإعتراف بمملكة الوندال، ولم تأت سنة ٤٥٨ حتى كان جنزريك قد بسط سلطانه على بقية شمال إفريقية ، فأصبح يحكم من طنجة إلى طرابلس [٥]. غير أن المملكة الوندالية التى أجهد جنزريك نفسه لإقامتها ، مالبثت أن اضمحلت

---

(1) Heyck: op cit. p. 3453

(2) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 306-8
Cantor: Med. Hist. p. 65

(3) Oman : op. cit. p. 8

(4) Ibid. p. 9

(5) Lot : op. cit.. p. 210

وتداعت بعد وفاته سنة ٤٧٧م ولم يتحقق لها البقاء والاستمرار بعد ذلك ، إلا بسبب اضمحلال الجزء الغربي من الإمبراطورية وانشغال أباطرة الشرق بأمور أكثر أهمية (١) ، فلما تغيرت الظروف في الشرق ، واعتلى العرش الإمبراطور جستنيان بعث قائده بلزاريوس ليضع حداً لعهد تلك المملكة المتداعية ، ويعيد ولاية إفريقية إلى حظيرة الدولة ، فنجح بلزاريوس في استردادها من الوندال سنة ٥٣٤م ، بعد أن عمرت دولة الوندال بها نحو قرن من الزمان (٢).

أما البرجنديون فهم فرع آخر من الجرمان الشرقيين ، بدأ ظهورهم على مسرح الأحداث في القرن الثالث الميلادي ، حينما تقدموا من موطنهم في وادي نهر الماين إلى الجزء الأوسط من حوض نهر الراين ، وقرب أواخر القرن الرابع الميلادي اتخذوا فورمز عاصمة لهم (٣) ، ثم تحركت جموعهم إلى الجزء المعروف حاليا ببلجيكا ، لكنهم اضطروا تحت ضغط الهون إلى شق طريقهم في غالة بشيء من العنف حتى نزلوا بموافقة الحكومة الرومانية في سافوي قرب نهر الساءون سنة ٤٤٣ م (٤) ، وعلى الرغم من أن السلطات الرومانية كانت تعتبرهم حلفاء معاهدين ، فإنهم كانوا يشكلون في الواقع مملكة أريوسية مستقلة ، أخذت تتوسع حتى كادت تبلغ شاطيء البحر المتوسط ، وغدت في سنة ٤٩٨ تبتلع كل المنطقة الواقعة بين جبال الألب والرون ، ولكنها لم تكن من القوة بحيث تحتفظ بإقليم

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 64

(2) Keen : op. cit. p. 5

Hussey, op. cit. p. 18

(3) Heyck : "Rise of the Frankish dominion" B. H. V. VII p. 3474

(4) Lot : op. cit. p. 207, p. 213

Bury : op. cit V. I. p. 249

بروفانس الغنى أو تناهض الفرنجة الذين تطرقوا إلى غالة ، وأوقفوا توسعات البرجنديين فى تلك الجهات (١) .

وليس بخاف أن اندفاع العناصر الجرمانية إلى جوف الإمبراطورية الرومانية ساهم فى صنعه هجمات أخرى أكثر بربرية وأشد هولا ، ذلك أن الهون وهم عنصر أسيوى من جنس المغول كانوا قد نفذوا إلى جنوب شرق أوربا قادمين من أواسط آسيا عبر البرارى والسهوب الآسيوية فى أواخر القرن الرابع الميلادى(٢) وأحدث الهون الخراب والدمار وأنزلوا أصناف العذاب بالبلاد التى مروا بها فى اندفاعهم نحو الغرب حتى ليقال إن الأرض التى يرعون فيها خيلهم تصبح صحراء قاحلة (٣) ، ونظراً لما اتصفوا به من سرعة الحركة ودوام الإرتحال والقسوة البالغة فى معاملة الشعوب ، والقبائل المغلوبة على أمرها ، جرى الاعتقاد فى تسخيرهم لقوى سحرية فى حروبهم ، وبولغ فى تقدير أعدادهم وأوصافهم مع أن جانبا كبيراً من جموعهم تألف من قبائل مهزومة ساقوها معهم أثناء زحفهم صوب أواسط أوربا (٤) . غير أن الهون ظلوا مقيمين على شواطىء البحر الأسود فى المنطقة المعروفة حاليا بالمجر، منذ أواخر القرن الرابع حتى سنة ٤٢٥م حين أخذوا يتحركون فى البلقان ويهاجمون الجهات المجاورة . وحين تولى حكم الهون أتيلا Attila ذائع الصيت سنة ٤٢٣ م بدأت مرحلة هامة فى تاريخ ذلك الشعب

(1) Pirenne : op. cit. p. 32.

(2) Ammianus Marcellinus: "The Huns. pp. 576–79 trans. by Yange" in Med. Worl. Cantor. p: 68

(3) Rice : Byzantium. p. 26

(4) Renouf : Outlines of General Hist. p. 180
Katz : op. cit. pp. 103 – 4

المتبربر ، فقد أكد الهون تحت زعامة أتيلا سيطرتهم على معظم القبائل الجرمانية وغير الجرمانية النازلة فى حوض نهر الدانوب (١) ، وفيهم القوط الشرقيون والصقالبة بجنوب روسيا ، وأخذ يفرض الأتاوات الكبيرة على الإمبراطورية الشرقية ، ويصر على تحصيلها ذهبا ، فأذعن الامبراطور ثيودسيوس الثانى (٤٠٨ — ٤٥٠ م) ، ورضى أن يعقد معه صلحا مهينا ويقدم الجزية الكبيرة نظير تعهد الهون بعدم الإعتداء على أراضى الإمبراطورية الشرقية (٢) . ولكن حدث أن خلف مرقيان ، ثيودسيوس الثانى سنة ٤٥٠م، فتشجع هذا الإمبراطور الجديد ورفض دفع الاتاوة لأتيلا ، وحذا حذوه إمبراطور الغرب فالنتنيان الثالث (٤٢٥ — ٤٥٠ م) ، وعند ذلك قرر أتيلا الزحف غربا للاستيلاء على إمبراطورية الغرب (٣) ، نظراً لضعفها واضمحلالها وعبث الجرمان بها ، وتقدم الهون تحت قيادة أتيلا غربا بحذاء نهر الدانوب، فألحقوا الخراب بالأقاليم التى مروا بها ثم عبروا نهر الراين إلى غالة سنة ٤٥١ وأجبروا الأهالى على الفرار وأمعنوا فى نهب المدن الكبيرة فيها (٤) .

وعلى الرغم من أن إيتيوس قائد الامبراطورية الغربية الشهير كان مشغولا بخطط حربه ضد القوط الغربيين ، وأنه انتهز فرصة وصول الهون ليبث الذعر فى نفوس القوط توطئة لهزيمتهم ، فإن تقدم أتيلا عبر الحوض الأدنى لنهر الرين سنة ٤٥١ وزحفه إلى أورليان ، جعل هذا القائد يفكر فى التحالف مع القوط

---

(1) Lot : op. cit. p. 209
(2) Vasiliev: The Byzantine Empire, p. 98
(3) Ostrogorsky : op. cit p. 53
(4) Bury : op. cit. V. I pp. 291–4

لصد هذا الخطر المشترك (١) ، وفى تلك الظروف أظهــــر القوط تفهما ملحوظا لأبعاد الخطر المحدق بالجميع فتحالفوا مع الرومان لحرب الهون ، وحين اندلعت الحرب فى سهل موريالك قــرب شالون فى نفس العام ، دارت الدائرة على أتيلا وقومه وخرج الحلفاء من تلك الموقعة منتصرين ودفع القوط ثمن تفانيهم فى تلك الحرب فلقى ملـكهم حتفه فى ساحة القتال (٢) . غـير أن القائد إيتيوس رفض أن يمضى قدما لتحطيم قوة الهون نهائيا ، برغم هذا النصر الحاسم ، وقد جعل ذلك أتيلا يجمع شتات جيشه ويهىء لنفسه من القوة ما يـكفى للهجوم على إيطاليـا فى العام التالى (٣) ، ولا تعليل لموقف إيتيوس سوى أنه ربما خشى إن هوأجهز على أتيلا وقومه ، أن يقع تحت رحمـة القوط الغربيين، فحاول الإفادة من هـذا الانتصار بالاكتفاء بإضعاف خصومه جميعا مع عدم المضى فى إزاحة أحدهما حتى لا يقع فريسة للاخر .

ولا شك أن هزيمـة الهون فى غالة سنة ٤٥١ وتراجعهم عنها كان أمرا بالـغ الأهمية بالنسبة لغرب أوروبا قاطبة فقد قدر له أن ينجو فى تلك المرة من وحشية هذا الشعب المتبربر ، ويلفظ هذه الجموع العابثة (٤) ، لـكن قدر الإيطاليا قلب الإمبراطورية الغربيـة — أن تذوق بعض أصناف العـذاب على أيدى أولئك المتبربرين قبل انحسار موجتهم وتراجعهم عن الغرب ، إذ وجـدت روما نفسها

---

(1) **Pirenne : op. cit p. 29**

(٢) فشر ، نفس المرجع ص ٩

(3) **Grant; op. cit. p. 127**

(4) **Heyck : "The great Teuton deluge" in B. H. V. VII. p. 3454**

فجأة فى مواجهة هذا الخطر الداهم سنة ٤٥٢ م فلم يسع البابا ليو الأول أو العظيم إلا أن يخرج للقاء أتيلا يلتمس منه الانصراف عن إيطاليا (١)، وحين أسرع أتيلا بالانسحاب إلى شمال جبال الألب وسحب قواته من إيطاليا راج كثير من القصص والأساطير حول ذلك الانسحاب السريع، وجرى الاعتقاد فى حدوث معجزات كان لها ضلع فى إفزاعه وهربه (٢). والحقيقة أن الاخبار كانت قد أخذت تتوالى بقرب وصول جيش رومانى تحت قيادة إيتيوس، فضلا عن تفشى الامراض فى جيش أتيلا ونفاذ المؤن والأقوات فى معسكره، كل ذلك جعله يسرع بسحب جيوشه من إيطاليا ويعود أدراجه صوب الشرق، حيث توفى بمعسكره فى بانونيا سنة ٤٥٣ م وتداعت إمبراطوريته بعد وفاته (٣)، وانتهزت القبائل الخاضعة لحكم الهون الفرصة وطرحت طاعتهم وتمردت عليهم بل جدت فى طردهم إلى ما وراء الدانوب، ولم يمض على وفاة أتيلا أكثر من عشرين سنة حتى كانت دولته قد وات وتفككت، ولم يعد ثمة ما يرهب الجرمان أو يثير الخوف فى نفوسهم (٤).

غير أن تراجع أتيلا عن إيطاليا ونجاة روما من عبث الهون لم يكن ليحول بين هذا الجانب من العالم الرومانى وبين مصيره المحتوم، أو ليمنع ما قد ينزل به

---

(1) Hearder and Waley : A short Hist. of staly. p. 27

(٢) جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٢٨٩.
Bury: op. cit. p. 294

(3) Rice : op. cit. p. 26

(4) Lot; op. cit. p. 208
Camb. Med Hist. V. I. p. 366
Renouf : op. cit. p. 181

من كوارث فى مستقبله القريب ، ذلك ان الإمبراطورية الغربية كانت قد وصلت إلى درجة من الضعف والاضمحلال عقب وفاة فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م كانت كفيلة بأن تضع نهاية لعهدها فى غرب أوربا بعد أن عبث الجرمان بمصائرها وعاثوا فى أقاليمها فسادا ، بل إنهم أقاموا دويلات مستقلة داخل حدودها (١)، وبعد أن تسلط على أقدارها قادة عسكريون تجرى فى عروق بعضهم دماء جرمانية وليس لهم اهتمام بالحفاظ على أمجاد روما وضرورة ضمان سلامتها (٢) ، ولقد تنبهت الإمبراطورية فى الغرب إلى خطر أولئك القادة من الجرمان وخططهم البعيدة ، برغم كل ما أظهروه من حماسة لحرب الغزاة ودفع أخطار المهاجين من الجرمان وغير الجرمان ، فأنزل الإمبراطور هنريوس نقمته على قائدة استيلكو قبل أن يستفحل خطره ويصبح داؤه عضالا ، وأسرع بإعدامه سنة ٤٠٨ م(٣) ، ثم حذا حذوه الامبراطور فالنشيان الثالث قبل وفاته بعامين حين أعدم قائداً آخر سمت همته ليهيمن على مصائر الامبراطورية الغربية وارتقت آماله ليمسك بزمام الأمور فيها ؛ وهو القائد الشهير إيتيوس الذى أعدم سنة ٤٥٣ م (٤) ، إلا أن قائدا آخر من الجرمان الشرقيين ما لبث أن برز على مسرح الأحداث ليحقق ما فشل فى تحقيقه استلكو وغيره من القادة الجرمان ، ألا وهو أودواكر Odoacer أو Odevacer ، قائد الإمبراطور الرومانى الصغير رومولس أوغسطولوس Remolus Augustulus ، الذى أدرك فى سنة ٤٧٦ م أن لديه من

---

(1) Prienne; op. cit. p. 29

(2) "St. Jerome: The barbarian tratior" in Med. World by Canter. p. 11

(3) Contor; Med. Hist. p. 134

(4) Cameb. Med. Hist. V. I. pp. 418–20

القوة ما يمكنه من خلع الإمبراطور الغربى، ويكفى لإدارة شئون إيطاليا (١)، ولكنه سلك فى ذلك طريقا آخر، إذ عول على الوصول إلى حكم إيطاليا ببذل ولائه للامبراطورية الشرقية والارتباط بالتبعية لها (٢)، وفى سبيل ذلك حظى من مجلس السناتو على موافقة شكلية بالاتصال بإمبراطور الشرق زينون Zeno لطلب تفويض بحكم إيطاليا فى ظـــل التبعية القسطنطينية وخلع الإمبراطور الغربى (٣).

وإذ رحب الإمبراطور زينون بعودة إيطاليا وما بقى لها من نفوذ اسمى فى الغرب لحظيرة الإمبراطورية الشرقية تشجع أدواكر وخلع آخر الأباطرة فى الغرب سنة ٤٧٦ م، واكتفى بنفيه إلى جنوب إيطاليا والانفراد بتسيير دفة الحكم فى إيطاليا، فوضع بذلك نهاية أليمة لأمجـــاد روما، وعهدها السالف، وبقى غرب أوربا بدون إمبراطور حتى توج شارلمان سنة ٨٠٠ م (٤). ومهما قيل فى أهمية هـذا الحدث، وفى أنه جاء حدا فاصلا بين العصور القديمة والعصور الوسطى، فإن آثاره كانت بعيدة المدى فعلا بالنسبة للمالك الجرمان بغرب أوربا، فقد ساعد خلو الغرب الأوربى من إمبراطور رومانى وتشكيل ما يشبه مملكة جرمانية فى إيطاليـا على أنقاض الإمبراطورية الرومانية الغربية يتزعمها أدواكر (٥)، ساعد كل ذلك فى تطوير بقية الممالك الجرمانية، وأعطى زعماء

(1) Hearder & Waley: op. cit. p. 29
(2) Heyck; The great Teutonic deluge. B. H. VII p. 3454
(3) Vasiliev: op. cit. p. 107
Bury: op. cit. V. I. p. 406
Katz: op. cit. p. 73 (٤) ديفز: شارلمان ص ١٧٨ - ١٧٩،
(5) Helmolt: "Italy" in B. H. VII. p. 3455

طوائف الجرمان فرصة ذهبية لتأكيد استقلالهم ، والتحرر من أية ضوابط قد تحد من غلوائهم (١) ، كما جاء هذا الحدث عاملا هاما فى تطور البابوية فى إيطاليا بعد أن أفسحت لها السلطة الزمنية المجال للفوز بولاء الإيطاليين والالتفاف حول البابا وتفويضه الزعامة فى غياب الإمبراطور ، والنظر إلى الكنيسة فى روما على أنها الحصن الباقى للدفاع عن إيطاليا والسند الأكيد لإستعادة مجد روما وعزها وكان لذلك دون شك أبلغ النتائج بالنسبة لغرب أوربا بصفة عامة وتاريخ البابوية بصفة خاصة .(٢)

ولا شك فى أن سنة ٤٧٦ م جاءت خاتمة لمرحلة بائسة فى تاريخ الإمبراطورية الغربية ، وبداية مرحلة جديدة فى تاريخ أوربا الغربية ، التى أخذ يغلب عليها الطابع الجرمانى ، لكنه كان تأثيرا بطيئا ، بدأ قبل هذا الحدث ، واستمر بعده رويدا رويدا ، حتى ليصبح من المبالغة وسوء التقدير تحميل هذا الحدث كل ما ترتب من نتائج ، بدت مقدماتها قبل ذلك بوقت طويل ، وظهرت إرهاصاتها قبل سقوط الإمبراطورية الغربية بأجيال كثيرة (٣). فقد كان القوط الغربيون قد أقاموا لهم مملكة فى جزء من غالة وكل أسبانيا ، وبرزت مملكة الوندال بإفريقية لتلعب دورها فى غرب البحر المتوسط ، فى حين نجح البرجنديون فى إقامة مملكة مستقلة غربى جبال الألب حتى وادى الرون ، فى الوقت الذى دانت فيه إيطاليا لسيادة المغيرين (٤) ، ونزل الإنجليز والسكسون والجوت بريطانيا ، وتقدم

(1) Pirenne : op. cit. p. 29

(٢) موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٤٠

(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 430-33

(4) Helmolt : op. cit. p. 3455

الفرنجة إلى شمال غالة ، وجرى طبع غرب أوروبا بطابع جرمانى ، ولم يعـد سقوط العرش الإمبراطورى فى الغرب سوى أحد المعالم البارزة فى تطـور التاريخ الاوربى (١)

على أن أدواكر لم يهنأ بحكم إيطاليا طويلا ، فقد تطورت الأحـداث فى غير صالحه ، وجرى من الأمور ما كان كفيلا بوضع حد لمشروعاته وحياته معا، برغم أن ذلك لم يحدث تغييرا فى وضع إيطاليا ذاتهـا ، ولم يزد الأمر عن نزع البلاد من يد متبربر إلى يد متبربر آخر ، وإجلاء فريق من الجرمان وإحلال فريق آخر مكانهم (٢).

وكان القوط الشرقيون هم فريق المتبربرين الجدد ، الذين أثروا فى أقدار إيطاليا فترة طويلة . وينتمى القوط الشرقيون لفرع الجرمان الشـرقيين ، كما سبقت الإشارة ، وكانوا قد نزلوا بالجهات الواقعة شمال البحر الأسود فى المنطقة الممتدة من نهر الدنيستر غربا إلى نهر الدون شرقا ، وكان ذلك قـرب منتصف القرن الرابع ، لكنهم تعرضوا لخطر الهون حـوالى سنة ٣٧٥م(٣) ، ولم ينجحوا فى الفرار عبر الدانوب ، كما فعل القوط الغربيون، وظلوا لذلك خاضعين للهون أكثر من ثلاثة أرباع قرن حتى وفاة أتيلا سنة ٤٥٣م ، وعندئذ طرحوا طاعة الهون ، وشاركوا فى تدمير أمبراطوريتهم وأخذوا يلعبون دورهم الخاص كبقية الطوائف الجرمانية (٤) . بدأ القوط الشرقيون التجول والطواف فى أقاليم

(1) Keen: op. cit. p. 6

(٢) ديفز: أوروبا فى العصور الوسطى . ص٣٥، Hearder & waley: op. cit. p. 29

(3) Ostrogorsky : op. cit p. 48

(4) Oman: op. cit. p.15

البلقان يحيون حياتهم الصاخبة ويعيثون فى بلاد اليونان فسادا ، يأسرون وينهبون ويسبون ضغطا شديدا على القسطنطينية ، ولم تفلح جهود الأباطرة الشرقيين فى كبح جماحهم أو إجبارهم على الإخلاد إلى السكينة، ولم تفلح استضافة ثيودريك فى القسطنطينية سنة ٤٦١ ، — وقد غدا أشهر زعماء القوط فيما بعد (١) — ليقضى بها عشر سنوات من شبابه وسط مظاهر الحفاوة والتكريم ، فى صرف هؤلاء القوم عن مناوأة الإمبراطورية ، وإحداث تغيير جذرى فى سياستهم تجاهها ، واقتصرت نتائج هذه الاستضافة على إطلاع هذا الجرمانى الجافى على ما اتسمت به الأمم المتحضرة من نظام وما اختصت به من تمدين (٢)، لكنها لم تستطع أن تنزع من نفسه حب قومه والإخلاص لتراثهم ، فقد أصبح ثيودريك فى سنة ٤٧١ م زعيما للقوط الشرقيين ، ولم يسعه إلا أن يودع القسطنطينية ، ويفر إلى قومه ليبدأ دوره سنة ٤٧٤ ، ثم يصبح ملكا لهذه الطائفة الجافية من الجرمان سنة ٤٨٠ م (٣)

ولما تفاقم خطر القوط الشرقيين بالنسبة لأقاليم البلقان ، رأى الإمبراطور زينون أن يعهد إلى ثيودريك بإدارة شئون إيطاليا ، حتى يبعده عن البلقان ، ويتخلص من عبث قومه ، ولا بد أنه أراد بإحداث الصدام بين ثيودريك وأدواكر إضعاف الجانبين وشغلهما عن دولته ، فقد نزل ثيودريك إيطاليا ، ودخل فى معارك طاحنة مع أدواكر انتهت أخراها سنة ٤٩٠ م بهزيمة ساحقة

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 43
Oman ; op cit p. 40
(2) Helmolt: op. cit. p. 3455
(3) Cantor: Med. Hist. p. 140

لأدواكر وتحطيم قواته (١)، ثم حصاره في رافنا وإجباره على الاستسلام، وعند ذاك أمر ثيودوريك بقتـــله، وسارع مجلس السناتو بتأييـــد ثيودوريك والاعتراف به سيدا على إيطاليا، في حين وقعت مذبحة كبيرة بين جنود أدواكر المرتزقة، وحل محلهم القوط الشرقيون، الذين كونوا تحت زعامـــة ثيودوريك مملكة مستقلة في إيطاليا في ظل تبعية اسمية للامبراطورية الشرقية (٢). وقـــد اتسم غزو القوط الشرقيين لإيطاليا بأنه كان غزوا جماعيا وهجرة عامة، نزل فيها القوم بنسائهم وأطفالهم وسائمتهم بغية الاستقرار والاستيطان، ثم كونوا الفئة الأرستقراطية الجرمانية الحاكمة واحتل زعيمهم مكانة بارزة بين معاصـــريه طوال فترة حكمه التي امتدت من سنة ٤٩٣م إلى سنة ٥٢٦م، وكان بحق أبرز زعماء البرابرة في تلك الفترة (٣). حتى إن اختفاءه من المملكة كان كفيلا بإضعافها فلم تكد تمضي سنوات قليلة على وفاته حتى نزلت قوات جستنيان العظيم إيطاليـا ولم تهدأ حتى انتزعتها من يد القوط، وقضت على دولتهم نهائيا، قرب منتصف القرن السادس الميلادي، كما سوف نفصل (٤).

وكما دخلت إيطاليا في حوزة القوط الشرقيين وزعيمهم ثيودوريك، صارت غالة أيضا إلى يد الفرنجة وزعيمهم كلوفس. والفرنجة أحد عناصر الجـــرمان الغربيين الذين غدوا في القرنين الثالث والرابع قوة جرمانية كبيرة، فانســـابوا

---

(1) Grant: op. cit. p. 129

(2) Ostrogorsky: op. cit p. 58
Vasiliev: op. cit. p. 107

(3) Hearder & Weley: op. cit p. 29

(٤) ديفز: أوربا في العصور الوسطى ص ٣٥ — ٣٨

إلى شمال غالة . مكونين مجموعتين كبيرتين هما الفرنجة البحريون أو الساليون Saliens ،والفرنجة البريون أوالريبواريون Ripuaires (١) ، وظل الفرعان مصدر خطر كبير على سلطات الإمبراطورية الرومانية فى غالة فترة طويلة ودوجوا على عبور نهر الراين فى حملات متلاحقة بغية السلب والنهب (٢) ، على الرغم من جهود الأباطرة الرومان لصدهم ، ووضع حد لخطرهم فى غالة ، غير أنهم تحولوا إلى محالفين ومعاهدين للامبراطورية ، على الأقل منذ عهد إيتيوس ، فحاربوا تحت لوائه ضد جيوش الهون سنة ٤٥١ م (٣) ، وفى أواخر القرن الخامس تفاقم خطر الفرنجة تفاقما كبيرا ، وسمت همة الفرنجة البحريين بصفة خاصة لنزول غالة واستيطانها (٤) ، ثم كان سقوط الإمبراطورية الغربية سنة ٤٧٦ عاملا مساعدا لتحقيق هذا الهدف ، خاصة وقد تداعت سلطات الرومان فيها ، واقتصر الأمر على بقاء ممثل للادارة الرومانيه فى حوض نهر السين (٥) .

ولقد نجح كلوفس Clovis زعيم الفرنجة البحريين ومؤسس دولتهم أن يلحق الهزيمة بسياجريوس Syagrius ، ممثل الإدارة الرومانية فى غالة سنة ٤٨٦ ، أى بعد انهيار الإمبراطورية الغربية بنحو عشر سنوات ، ويمهد السبيل لقومه للانتشار فوق الجهات الشمالية من غالة (٦) . وهكذا غدت غالة فى نهاية القرن

---

(1) Lot: op. cit. p. 214, pp. 312–13

(2) Oman : The Dark ages. pp. 55–6

(3) Lot : op. cit. p 313

(4) Canter: Med. Hist. p. 147

(5) Heyck : "Rise of the Frankish dominion" B.H. VII. pp. 3472–3

(6) Lot: op. cit. p. 316

الخامس نهبا للجماعات الجرمانية ، إذ احتل شمالها الفرنجة ، وشكل البرجنديون مملكة أيوبسية فى المنطقة بين جبال الألب والرون ، فى حين كان القوط الغربيون لا يزالون يهيمنون على المنطقة الجنوبية الغربية منها (١) . ويعتبر كلوفس (٤٨١ - ٥١١م) مؤسس البيت الميروفنجى ، والدولة الفرنجية التى عاشت طوال العصور الوسطى ، وتولدت منها مملكة فرنسا فى التاريخ الأوربى الحديث ، والمملكة التى كتب لها البقاء داخل حدود الإمبراطورية فترة طويلة فى الوقت الذى تداعت فيه الممالك الجرمانية ومحيت معالمها فى أوربا (٢) . فقد قدر لكلوفس أن يلعب دوراً كبيراً فى تاريخ فرنسا أولا ثم فى تاريخ الغرب الأوربى ثانيا ، برغم أنه لم يكن يتعدى الخامسة عشرة من عمره حين آلت إليه زعامة الفرنجة، وكان طموح هذا الملك الصغير لايعرف الحدود ، مقرونا بجرأة نادرة ومهارة عظيمة (٣) ، هذا فضلا عما ظهر من تفوق الفرنجة على بقية الجرمان، إذ ظهروا كقوم يتوسعون فى المناطق المجاورة لوطنهم دون سير وطواف وجوس خلال الديار، فظل موطنهم الأصلى فى الحوض الأدنى لنهر الراين مركزاً لتوسعهم وإنتشارهم فى شمال غالة يمدهم ويدعمهم ويحفظ عليهم أصولهم وحيويتهم وحماستهم دون أن يقطع الفرنجة صلتهم بهذا الموطن أو يتخلوا عنه فى حين كانت بقية العناصر الجرمانية قد استقرت فى مكان يبعد عن موطنها كثيراً ، وجاست خلال الديار وقطعت صلتها بأصولها ومواطنها وغدت تحت رحمة الأقدار (٤) . ولهذا احتفظ الفرنجة

(1) Oman: op. cit. p. 59

(2) Pirenne; op. cit. p. 54

(3) Lot; op. cit. p. 316

(4) Heyck ; "The rising tide of teuton power" B. H. VII pp. 3438-9

بحضارتهم وتراثهم وحيويتهم ، وظلوا أمة مترابطة تعلو فوق عـــوامل التفكك والضياع ، وسط المحيط اللاتيني الكبير ، الذى نجح فى إذابة جماعات جـــرمانية أخرى، ربما كانت أشد عنفا وأكثر عدداً وأقوى شكيمة(١) .

وفى الوقت الذى دخلت فيه طوائف الجرمان الأخرى إلى جوف الإمبراطورية لتقيم ممالك جرمانية أريوسية المذهب مخالفة للمذهب السائد بين بقية السكان ولتمثل طبقة مذهبية مناهضة لبقية الطبقات الأخرى ، نجد أن كلوفس تحول عن وثنيته إلى الكاثوليكية السائدة فى غالة سنة ٤٩٦ بعد نحو عشر سنوات من قيامه فى الحكم (٢) ، فأقدم بذلك على أهم خطوة كفلت لدولته البقـاء والاستمرار فى تلك البـلاد ، وقرب نفسه وقومه من قلوب ونفوس السكان وسلطـات الكنيسة الكاثوليكية فى غالة، وأحل قومه منزلة سامية بين أهل البـلاد المفتوحة ، وحين عمد كلوفس وفقا لمبادىء المذهب الكاثوليكى الغربى جرى تعميد أكثر من ثلاثة آلاف رجل من رجاله المحاربين (٣) ، وسواء أكان سبب اتخاذه هـذه الخطوة يرجع إلى زواجه من أميرة برجندية كاثوليكية هى الأميرة كلوتيلدا ،التى ربما أغرته باعتناق هـــذا المذهب ، أم يرجع إلى حسن تقديره للأمور وإدراكه لما سوف يترتب على هذه الخطوة من نتائج سياسية هامة (٤) ، فإنه غدا فى نظر الأهالى والسلطات الكنسية بطلا من أبطال المسيحية الكاثوليكية،وسيفاً من سيوف المسيح المجردة لتقليم أظفار الممالك الأريوسية المجاورة ،ووضع حد لعبثها بأقدار

(1) Heyck: "Rise of the Frankish dominion" p. 3480

(٢) جيبون . اضمحلال الامبراطورية ج ٢ ص ٣٤٩

(3) "Cregory of Tours, Hist. of the Franks" (trans. by Dalton). in Med. World. by Cantor p. 80

(4) Lot; op. cit. p. 317

البلاد والقضاء على زندقتها الدينية (١) .

والواقع أن كلوفس كان يدرك تماما أن اعتناقه المذهب الغربى كان يضعه حتما فى حلف قوى مع الكنيسة الكاثوليكية ، وقد دام هـذا الحلف طويلا بين دولة الفرنجـة والكنيسة الكاثوليكية ، وآذن بعصر جـــديد فى تاريخ غالة والتاريخ الاوروبى معا ، إذ رضى كلوفس ، وهو ملك متبربر أن تستلهم حكومته الإرشاد من الكنيسة ،وأن يضع نفسه فى خدمة تلك الكنيسة ، وأن يدافع عن شئونها(٢)، ولعل ما أثر عنه من قول ، وهو فى طريقه لحرب القوط الغربيين يوضح إلى أى مدى جعل كلوفس نفسه فى خدمة الكنيسة الغربية وفى الدفاع عن مصالحها ، إذ نسب إليه أحد المؤرخين قوله : « يحزننى أن أرى أولئك الآريوسيين ملوكا فى جزء من غالة ، فهلم معى إلى مهاجمتهم وقتالهم بعون الله ،حتى إذا انتصرنا صارت لنا أرضهم » (٣) . وهناك سبب آخــــر منح دولة الفرنجة تمايزاً عن بقية ممالك الجرمان ، ذلك أن الفرنجة اتبعوا سياسة لينة فى معاملة السكان ، ولم يحدثوا هوة بينهم وبين الأهالى ، أو يقضوا على سبل التفاهم بين الجانبين ، كما أن الفرنجة لم يفرطوا فى استخــــدام العنف أو يحاولوا نزع الأراضى والضياع من أيدى أصحابها أو يؤذوا السكان فى أرواحهم (٤) ، فلم يتعرض الغــاليون — الرومان لمذابح بشرية على أيدى الفرنجــــة ، أو يهبطوا الى رتب العبودية ، أو تخفض

---

(١) ديفز: أوروبا فى العصور الوسطى ص ٤٢ ، Pirenne: op. cit. p 56

(2) Oman: op. cit. p. 58

(٣) فشر: تاريخ أوروبا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٣٦ ،

Camb. Med. Hist. V. I. p. 285

(4) Pirenne: op. cit. pp. 54-6

درجتهم الإجتماعية ، ولم يحصل الفرنجة على ميزات إجتماعية أو سياسية فى الدولة التى أقاموها ، كل ذلك قربهم إلى قلوب الناس وحد من الخلافات العنيفة بين الجانبين (١) ، هذا فضلا عن أن كلوفس حاول الحفاظ على العلاقات الطيبة مع الإمبراطور البيزنطى ، وسعى للحصول على تقليد من الإمبراطور أنسطاسيوس باعتباره قنصلا شرفياً فى غالة ، وهو لقب كان يخلع على أصحاب المقام الرفيع والمنزلة السامية فى الدولة الرومانية (٢) .

ومهما يكن من أمر فقد انبثقت مملكة الفرنجة فى غالة ، وهذا أهم حدث فى تاريخ الغزوات الجرمانية ، وغدت الدولة الوحيدة من دول الجرمان التى قدر لها البقاء والاستمرار لتلعب دورها فى صنع جانب من التاريخ الأوربى الوسيط، فى الوقت الذى اندثرت فيه الممالك الجرمانية الأخرى ، وزالت سلطة الجرمان من كثير من بقاع أوربا (٣) .

أما عن غزوات الإنجليز والسكسون والجوت للجزر البريطانية ، فقد لعبت دوراً هاماً فى تاريخ تلك البلاد ، واستمرت هجمات السكسون على الشواطىء الشرقية للجزر البريطانية وشواطىء بحر المانش منذ أواخر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادى(٤)، وساعد على ذلك سحب آخر حامية رومانية من بريطانيا قرب منتصف القرن الخامس ، كما ترتب على ذلك طمع أولئك الجرمان فى

---

(1) Lot: op. cit. p. 321

Keen: op. cit. p. 6 — (٢) نفس المرجع ، ص ٣٣ ،

(3) Cantor: Med. Hist. p. 145

(4) Trevelyan: Hist. of England. Part. I. pp. 57-8
Camb. Med. Hist. V. I. p. 378

الاستقرار الدائم فى بريطانيـا ، فقد أخذوا ينسابون فى قواربهم المعروفة عبر الأنهار المنتهية إلى الساحل الجنوبى الشرقى ، للاستيطان فى وديان تلك الأنهار وإلى أبعد من مصباتها(١) ، ولقد قدم أولئك الغزاة من شواطىء بحر الشمال ومن شبه جزيرة جتلاند ومن الدانمرك ومن الجهات الواقعة إلى جنوب الدانمرك ، وكان يربط بينهم اشتراكهم فى اللغة والعادات ويجمع بينهم هدف الاستقرار فى موطن جديد ، واستغرقت المرحلة الأولى من غزواتهم لبريطانيا الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ومنتصف القرن السادس تقريباً ، فقد توافد فيها الإنجليز والسكسون فى حركة أشبه بحركات الاستعمار ، ساعد على نجاحها ضآلة المقاومة التى أبداها أهل بريطانيـا الرومانية ولاسيما فى الجنوب الشرقى (٢) ، وأخذ الجرمان يتقدمون فى الجهات القريبة ، ويتوسعون فيما حولهم ، فلم تأت نهاية القرن السادس حتى كانوا قد بلغوا سفرن **Severn** ، وفى بداية القرن السابع استولى الجرمان على كل ما هو معروف الآن باسم إنجلترا باستثناء بعض المدن القليلة (٣) .

ولقد اتسم غزو الإنجليز والسكسون والجوت لبريطانيا بالقسوة والعنف ، ولم يفقه فى ذلك سوى غزو الوندال لشمال إفريقية ، فقد جرى استرقاق الأهالى ، وانتزاع الأراضى من يد أصحابها والإمعان فى القتـل والتشريد

---

(1) **Frevelyan: op. cit. p. 33**
Camb. Med. Hist. V. I. p. 382

(2) **Davis: "The British Isles" in B. H. V. VII. p. 3502**

(3) **Lot: op. cit. p. 210**
Katz: op. cit. p. 104, p. 114

وتحويل قرى الأهـــالى إلى قرى جرمانية (١) ، وترتب على ذلك تقهقر اللغـة اللاتينية وتراجع المسيحيـة ، وانحطاط المـــدن الكبرى ، واضمحـلال النظم الرومانية ، كل ذلك قبل أن يتأثر الجـرمان بالمدنية الرومانية وتهـذب صفاتهم ويقل عسفهم . على أن رؤسـاء القبائل وزعماء العشائر الجرمانية مالبثوا أن تحولوا إلى ملوك متوجين بعد الاستقـرار ، فبزغت ممالك قبلية متعددة جـرى تسميتها بالممالك السبع Heptarchy ، فقد أقام الجوت مملكة واحـــدة وكون السكسون ثلاث ممالك أخـــرى ، واختص الإنجـليز بالثلاث الباقيات (٢) ، وسـاعدت الظروف الجغـرافية على تكوين هـذه الممالك ، إلا أن الحـــروب الداخلية عاقتهم عن تطـورها ، ولم تصبح إنجلترا دولة متحـدة إلا بعد مرور أجيال عديدة .

---

(١) فشر : نفس المرجع ص ٧٢

(2) Davis & Arthur : "The British Isles" in B. H. V. VII. p. 3837

الباب الثاني

الممالك الجرمانية

الممالك الجرمانية

إنجلت هجمات البرابرة على الإمبراطورية الرومانية اذن ، عن تغلغل جرمانى كبير فى جوف أوربا ، واستيطان الجرمان فى أجزاء كبيرة منها ، وإقامة ممالك مستقرة داخل الإمبراطورية(١) والواقع أن هجمات البرابرة على أوربا اتخذت صفة التدرج ، ولم تحدث بطريقة فجائية ، ولهذا لم يحفل بهـا كثير من الناس أو يعيروها كبير اهتمام. حقيقة لقد جرى من الأمور أحيانا مازلزل الناس وأذهلهم بعض الوقت ، مثلما حدث حين استباح القوط الغربيون روما سنة ٤١٠ م ، أو حين راحت ولاية شمال إفريقية مركز إنتاج الغلال إلى أيدى الوندال أو حين عزل الإمبراطور رومولوس أوغسطولس سنة ٤٧٦ م (٢) ، لكن مالبثت الأمور أن عادت رتيبة ، ومضى الناس فى حياتهم وكأن شيئا لم يحدث .

ومن المبالغة حقا أن نعتبر جميع الممالك الجرمانية التى انبثقت بعد عهد الغزوات فى أوربا ممالك معادية للامبراطورية ، مقوضة لنفوذها ومصالحها ، فالحقيقة أن ثمـة ممالك جرمانية اتخذت من الدفاع عن مصالح الإمبراطورية محوراً لسياستها أو واجهة كبرى لقيامها (٣) ، فى حين جرى اعتبار ممالك أخرى ممالك معاهدة ومحالفة للامبراطورية ، أفسحت لها السلطات الرومانية صدرها ، ورضيت باستضافتها على مبدأ جرى الاعتراف به من قبل، واتخذته الإمبراطورية ضمن مبادئها وسياستها ، وتوسعت فى تطبيقه بأن جعلته ساريا فى بعض أقاليمها،

---

(1) Rice: op. cit. p. 26
(2) Oman: op. cit. p. 1
(3) Heyck: "The great Tentonic deluge" B. H. VII. p. 3454
Helmolt : "Italy" pp. 3455-6

فأضحى مقرراً على المضيفين الرومان أن يتخلوا مرغمين عن ثلثى ممتلكاتهم للضيوف المتبربرين(١). حقيقة اتخذ بعض الممالك الجرمانية سياسة معادية تماما للامبراطورية الرومانية ، وألحقت بالرومان كثيراً من الأذى، واقتطعت أجزاء من أملاكهم ، وأنزلت بها صنوف العذاب ، مثلما فعل الوندال والإنجليز والسكسون ، لكن باستثناء هؤلاء أعلن جميع ملوك الجرمان ولاءهم للامبراطور الرومانى ، وبذلوا له الطاعة، بل كانوا يحرصون تماما على أن يحصلوا على تشريفات إمبراطورية(٢) وحرص بعض ملوكهم على اضفاء ألقاب الإداريين الرومان على أنفسهم ، وظهرت على قطع نقودهم صور الإمبراطور البيزنطى المتربع على العرش ، كما أنهم أرخوا منشوراتهم ، بأسماء القناصل الرومان ، وتباهوا بخضوعهم الإسمى للامبراطورية (٣) .

ويعتبر من قبيل العبث أيضا تحميل الغزوات الجرمانية نتائج الانحلال الذى تعرضت له الإمبراطورية الغربية والانهيار الذى أصابها وسقوطها فى النهاية فى مستهل الربع الأخير من القرن الخامس (٤) . فمن الثابت أن الإمبراطورية الرومانية كانت تعانى آلام الموت البطىء قبل مجىء الجرمان ، وتنحدر نحو الهاوية قبل غزو المتبربرين لأراضيها ، بل ساءت أحوالها السياسية والعسكرية

---

(١) نعمر . نفس المرجع ص ٢٥

(2) Keens A Hist of Med. Europe. p. 6

(٣) دينزه أوربا فى العصور الوسطى ص ٢٧؛ موس : ميلاد العصور الوسطى ص ٣٨

Osterogersky: op. cit. p. 63

(4) Katz ; op. cit; pp. 78-9

والاقتصادية والاجتماعية على مدى أكثر من مائتى عام (١) ، هذا فضلا عن أن مجىء الجرمان لم يحدث بطريقة فجائية ، بل جرى رويداً رويداً ، واستغرق زمنا طويلا ، أدى إلى تشبع الرومان أنفسهم بالصفة الجرمانية وتأثيرهم أيضا فى الجرمان إلى حد إكسابهم صفات رومانية ، والمعروف أن استخدام الجرمان فى الجيش وفى الحياة العامة جرى قبل تدهور الأحوال الرومانية بزمن طويل ، وهذا يؤكد أن غزوات البرابرة لأوربا لاتتحمل سوى جزء ضئيل من مسئولية الانهيار الذى أصاب العالم الرومانى فى الغرب (٢) .

ولم يجر تغيير كبير فى أسلوب الحياة فى الغرب ، بعد قيام الممالك الجرمانية ، فالحقيقة أن الجرمان لم يكرهوا الحضارة الرومانية ، بل حاولوا الإفادة منها بقدر ما يستطيعون ، وكانوا جميعاً قد اعتنقوا المسيحية الآريوسية باستثناء الفرنجة والسكسون ، قبل أن يجتازوا حدود الإمبراطورية ، وحرص كثير من ملوكهم على الاهتمام بمظاهر الحضارة الرومانية ، ولاسيما الفن والأدب ، وأظهر ثيودوريك ملك القوط الشرقيين فى إيطاليا شغفاً بعمارة روما وآثارها وفنها

(١) انظر: Med. World. by Cantor p. 9–16 "The decline and fall"

Gibbons "General causes and effect of Christianity"

Lot : "The Fundamental Cause"

Bury: "A series of contingencies"

Restovtzeff : "The revolt of the masses"

Toynbee: "The Pattern of Social disintegration"

Biganiol : "Barbarian Assassination"

(2) Salvian : " The consequences of Sin " in Med World by Cantor. pp. 10– 11

وأدبها ، وكان حفيا بالبرزين فيها فى هذه النواحى (١) ، وحل الجرمان محل كبار الإقطاعيين الرومان ، وحرصوا على الحفاظ على النظم الرومانية،وهكذا لم يأت البرابرة من أجل تدمير الإمبراطورية ، وإنما أتوا ليفيدوا منها ، وينعموا بها وأن سلكوا فى ذلك طريقا أودى بالامبراطورية ذاتها وجعلها أثراً بعد عين (٢) .

وإذا كان الأمر كذلك فلم اعتبر المتبربرون مسئولين مسئوليةمباشرة عن هدم الإمبراطورية الرومانية ، واحداث تغيير شامل فى أسلوب الحياة فيها ، وما ترتب على ذلك من عزل الممالك الجرمانية والنظر إليها نظرة ملؤها الكراهية والحنق ، الواقع أن ثمة عوامل كان لها ضلع فى ذلك ، لعل أبرزها : العوامل الدينية المذهبية والعوامل الاجتماعية والحضارية (٣) . ولاشك فى أن اعتناق القوط الغربيين والوندال والبرجنديين والقوط الشرقيين للمذهب الأريوسى جاء حاجزا بينهم وبين بقية المواطنين الرومان ، حائلا دون اندماجهم فى المجتمع الجديد، كما أصبحت أريوسيتهم موضع استنكار الكنيسة الكاثوليكية (٤) فاعتبرتهم كفارا مارقين مناهضين للمسيح مقوضين لدعائم الوحدة الدينية . وهكذا كانت الخلافات المذهبية عاملا هاما فى عزل ملوك الجرمان وجعل شعوبهم بمثابة غرباء دخلاء على المجتمع الجديد ، فضلا عن أن عدد الغزاة الجرمان كان يقل كثيرا عن عدد سكان الولايات المفتوحة ، فجعلهم هذا أكثر تماسكا باعتبارهم أقلية حاكمة تبغى التنعم بخيرات البلاد ، يضاف إلى ذلك ما حرص عليه الجرمان من

---

(١) جيبون : إضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٣٧٣

(2) Cantor: Med. Hist. p. 122 , p. 125

(3) Toynbee: op. cit. p. 15 in Med. Word.

(4) Cantor: Med. Hist. p. 136

الاحتفاظ بقدر كبير من الاستقلال فى أمورهم المدنية ، دون اندماج فى الادارة المدنية الرومانية ، فقد حافظوا على قوانينهم الخاصة (١)، التى بدت غريبة مختلفة وخضعوا لملوكهم ووكلوا الشئون العسكرية لقيادة الإمبراطورية ، وبذلك عزلوا أنفسهم عن بقيـــة الأهالى ، وجعلوا من أنفسهم طبقة متمايزة فى شئونها الدينية والقانونية والاجتماعية ، ولم يحفلوا كثيراً بالقانون الرومانى الذى خضع له بقية المواطنين (٢) . ويتضح كثير من هذه الحقائق فى العرض الذى نقدمه فى فى الصفحات التالية عن ممالك الجرمان بغرب أوربا .

(1) **Pirenne**: op. cit. p. 40 , p. 47

(2) **Oman**: op. cit. p. 227

الفصل الثالث

مملكة القوط الغربيين بأسبانيا وجنوب غالة

تأسيس المملكة (٤١٠ — ٥٣١ م) : أتولف وقيادة القوط الغربيين إلى غـالة — واليا والاستقرار فى أكوتين - تحالف ثيودريك الأول مع الرومان ضد الهون - ثيودريك الثانى وحربه السويفيين - إيورك وإحتلال أسبانيا وإرساء دعائم المملكة - ألاريك الثانى والفرنجة وانحسار القوط الغربيين عن غـالة إلى أسبانيا - أملريك وثيودريك ملك القوط الشرقيين - إنفراد أملريك بحكم المملكة سنة ٥٢٣ م .

عهد القـوة والازدهار فى عمر المملكة (٥٣١ - ٦٠٣) : ثيوديس ومشاكل المملكة فى مقرها الجديد - التنظيمات الداخلية - ثيوديجزل - أجيلا - أثاناجلد - ليوفيجلد المؤسس الثانى لمملكة القوط الغربيين - ريكارد وتحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية .

نهاية المملكة (٦٠٣ - ٧١١) : مدى غموض هذه المرحلة - ويترك ونهاية عهد بيت ليوفيجلد - جندمار - سيسبوت وطرد الحامية البيزنطية من أسبانيا - سوئنتيلا «أبو الفقراء» - الملوك الخاضعين للكنيسة : سيسناد . شنتيلا . تولجا - شنداسونت واسترداد الامتيازات الملكية . قوانين شنداسونت - ركسونت وعهد الرخاء والازدهار (٦٥٢- ٦٧٢ م) - وامبا ومحاولة

استعادة سلطات الملك الضائعة . قوانين وامبا ـ الملوك الأواخر في المملكة : إرويج . إجيكا . ويتزا . رودريك ـ غزو العرب لاسبانيا ـ أسباب سقوط مملكة القوط الغربيين .

---

١ ـ تأسيس المملكة (٤١٠-٥٢١ م):

رأينا كيف غزا القوط الغربيون إيطاليا تحت قيادة آلاريك الجسور سنة ٤١٠ م وكيف رضوا بعد ذلك أن يخدموا مصالح الإمبراطورية الغربية بمضيهم نحو غالة سنة ٤١١ م بعد أن حل ملكهم الجديد أتولف Athaulf الغنائم التي حصل عليها قومه إلى الموطن الجديد المزمع استخلاصه من جموع الوندال والآلانيين Alans والسويفيين Suevi[1] . وكان على أتولف الملك الجديد (٤١٠ - ٤١٥) أن يقود قومه صوب الغرب لاستخلاص المنطقة الممتدة من نهر اللوار حتى جبال البرانس من أيدى تلك الجموع ، والاستحواذ عليها لقومه بعد أن أن غدت شبه مفقودة بالنسبة للامبراطورية[2] ، واستطاع أتولف أن يقيم في جنوب غالة فعلا ، وأن يستولى على ناربون ويتخذها عاصمة له، ويتزوج بلاسيديا Placidia أخت الإمبراطور هونريوس سنة ٤١٤ ليصبح مقربا للامبراطور وداخلا في طاعة الإمبراطورية ، غير أنه ما لبث أن اغتيل في العام التالي (٤١٥ م)[3] ، فقام الإمبراطور هونريوس بالاعتراف بأخيه واليا Wallia (٤١٥-٤٢٠ م) حاكما على القوط الغربيين للاستمرار في تنفيذ سياسة

---

(1) Jordanes : "Visigothic conquests," pp. 89-90 in Med. Worl. by Cantor, p. 73

(2) Harold Livermore: A. Hist. of Spain p. 52

(3) Lot : The end of the ancient World p. 205, p. 277

الإمبراطورية والولاء لروما (١) ، ونجح واليا فى تهدئة غالة وطرد السويفيين إلى شمال غرب أسبانيا وإزاحة الوندال إلى جنوب نهر إبرو ، وترتب على حروب واليا فى أسبانيا أن خضع للقوط الجانب الأعظم منها باستثناء الجزء الشمالى الغربى (٢) ، إلا أن الإمبراطور خشى من ازدياد قوة القوط فى أسبانيا فمنح واليا منطقة أكوتين Aquitaine ، واعترف به حاكماً عليها سنة ٤١٩ م فاتخذ مدينة تولوز عاصمة له ، ولم تمض عدة سنوات حتى كان القوط الغربيون قد استقروا فى جنوب غالة وحول تولوز وابتلعوا كل المنطقة التى بين نهرى اللوار والجارون (٣) .

خلف واليا على عرش القوط ثيودريك ، وهو ثالث ملوك هذه الأسرة (٤٢٠ - ٤٥١ م) فانهمك فى توسيع رقعة أراضيه فى جنوب غالة بالحرب تارة والخداع تارة أخرى ، وبمحاربة الرومان والقضاء على نفوذهم حيناً والتحالف معهم أحياناً أخرى ، كما حدث أثناء حرب الهون فى مستهل النصف الثانى من القرن الخامس (٤) فقد التحقت قوات القوط الغربيين تحت قيادة ثيودريك بقوات الرومان وحلفائهم والتقوا بالهون وأنزلوا بهم الهزيمة فى شالون سنة ٤٥١ ، وأبلى القوط فيها بلاء حسناً حتى أن ملكهم ثيودريك لقى حتفه فى تلك الموقعة (٥) .

---

(1) Pirenne: op. cit. p. 27

(2) Livermore: A Hist. of Spain. pp, 52—53

(3) Lot : op. cit.. p. 205

(4) Camb. Med. Hist. V. I. p. 280

(5) Bury : Later Roman Empire. I. pp. 261–6

وتولى العرش بعد ثيودريك إبنه ثورسمند Thorismend (٤٥١- ٤٥٣م) لكنه لم يهنأ بالعرش طويلا ، إذ ثار ضده إخوته بسبب اختلافهم معه فى السياسة التى يبغى انتهاجها مع الرومان، ووضع أحدهم حدا لمشروعاته وحياته معا واعتلى العرش باسم ثيودريك الثانى . وبدأ هذا عهده (٤٥٣ - ٤٦٦ م) بالتحالف مع الرومان وتهدئة الأمور معهم ، ومن أجل ذلك شن حرباً ضارية على السويفيين حين تجرءوا فعبروا جبال البرانس وهجموا على غـــالة ، فتتبعهم إلى أسبانيا وأحدث كثيراً من الخراب ببلادهم سنة ٤٥٦ م [١] . ويبدو أن الخلاف المذهبى بين القوط الاريوسيين والسويفيين الكاثوليك كان له ضلع فى إثارة الكراهية بينهما واشتداد روح العداء بينهما ، فضلا عن الرغبة الكامنة لدى القوط فى طرد السويفيين من أسبانيا وضمها إلى حظيرة مملكتهم. غير أن ثيودريك الثانى مالبث أن شرب من نفس الكأس التى سقاها لسلفه ، فقد قتل على يد أصغر إخوته إيورك Euric سنة ٤٦٦ قبل أن تتهيأ له الفرصة لفتح أسبانيا [٢] .

شرع إيورك (٤٦٦ - ٤٨٦) بعد ولايته العرش فى انتهاج سياسة جديدة تجـــاه الرومان ، لم يحاول فيها مراعاة الصداقة ومظاهر الود معهم ، بل بدأ فى توسيع رقعة مملكته ومد حدودها ، فدفع السويفيين إلى غاليسيا سنة ٤٦٩ ، واستولى على إقليم بروفانس وبرى سنة ٤٧١ م وجد فى تصفية النفوذ الرومانى فى أجزاء أخرى من غالة بل إنه اتجه إلى تحقيق أطماعه فى أسبانيا فعبر جبال البرانس ، واحتل معظم شبه الجزيرة الأسبانية [٣] ، باستثناء غاليسيا وجزء من

(I) Camb. Med. Hist. v. I. p. 281

(2) Lot ; op. cit. p. 212
Livermore; op. cit. p. 54

(3) Helmolt: "Mediterranean in the middle ages." in B. H. V, V. p. 2388

لوزيتانيا ، التى ظلت تحت حكم السويفيين (١) وذلك سنة ٤٧٦ ، ولم تستطيع الإمبراطورية الغربية أن تحرك ساكنا فقد شهدت نهاية عهدها فى نفس العام على يد أدواكر ، غير أن إيورك نجح فى حمل إمبراطور الشرق زينون على منحه المنطقة الممتدة من نهر الرون حتى جبال الألب جنوب نهر الديرانس Durance (أحد روافد نهــــر الرون) ، فأصبح إيورك أقوى ملك فى غرب أوربا (٢) ، وبلغت مملكة القوط الغربيين أوج اتساعها وقوتها على يديه سنة ٤٧٦ ،فامتدت من نهر الـــلوار شمالا إلى بوغاز جبل طارق جنوبا ، ومن جبال الألب شرقا إلى المحيط الأطلسى غربــا ، وعلى الرغم من أن القوط نجحوا حينـذاك فى ضم كل أسبانيا تقريبا (٣) ، فانهم ظلوا يفضلون الحكم من غـالة ومن مدينة تولوز بصفة خاصة،وتوفى إيورك سنة ٤٨٤ بمدينة آرل ، بعد أن أسس إمبراطورية كبيرة وأرسى دعائم حكم القوط فى تلك الجهات (٤) .

تولى العرش بعد إيورك إبنه ألاريك الثانى (٤٨٥ - ٥٠٧ م) ، ولم يكن له ما كان لوالده من مهـارة فى الشئون السياسية والعسكرية ، بل كان ضعيفا قصير النظر ، ليس على شىء من الحصافة والمرونة وواجه فى بداية عهده غزو الفرنجة لغالة بقيادة كلوفس وإنزال الهزيمة بسياجريوس فى سواسون سنة ٤٨٦ ، (٥) وعلى الرغم مما ترتب على ذلك من خطر فى قلب غالة ، وفرار سياجريوس

(I) Camb. Med. Hist. V. II, p. 159
(2) Camb, Med. Hist. V. I. pp. 283-4
(3) Helmot : op. cit. p. 2388
Altamira: Hist. of spain p. 76-78
(4) Lot : op. cit. p. 315
(5) Oman : op. cit. p. 59

والتجائه إليه ، وهدم الولاية الرومانية التى كانت حاجزا بين الفرنجة والقوط الغربيين ، إلا أن ألاريك أظهر جهلا وقصر نظر حين بادر بتسليم سياجريوس إلى غريمه كلوفس فلم يتوان فى قتله ، فدل ألاريك بذلك على رعونة وسذاجة ، بعد أن أصبحت مملكة الفرنجة وجها لوجه أمام مملكة القوط الغربيين(١)، وترتب على ذلك أن اضطر القوط إلى الانحسار عن غالة ، وأن يقبعوا فى أسبانيا منذ أوائل القرن السادس بعد هزيمتهم القاسية عند فوييه Vouillé سنة ٥٠٧ ، ومقتل ملكهم ألاريك الثانى على يد الفرنجة فقد قذف بهم كلوفس الفرنجى إلى ماوراء جبال البرانس(٢) ، تزلفاً وتقرباً للكنيسة الكاثوليكية ، التى كانت تبدى تبرما من وجود أريوسيين فى ربوع غالة، وتشير الدلائل إلى أن كلوفس انتهز فرصة ضعف ألاريك الشخصى بين قومه ، وعدم شعبيته بين رعاياه الرومان ، ولاسيما فى أكوتين(٣)وجد فى محاولة طرده من غالة إلى أسبانيا فى أوائل القرن السادس، وبرر قيامه بهذا العمل بكرهه للاريوسيين بسبب استمرار ألاريك فى إتباع سياسة والده فى التعصب ضد الكاثوليك(٤).

ولقد هدأ ثيودريك العظيم فى بداية الأمر الخلاف الذى نشب بين الجانبين ابتداء من سنة ٥٠٤ م ، بوصفه والد زوجة الملك القوطى الغربى من ناحية ، وصهرا للملك الفرنجى من ناحية أخرى ، واستطاع أن يكبح جماح المتنافسين

(1) Cantor; Med Hist. pp. 147–8

(2) Hodgkin: "The moulding of the nations" in B. H. VII. pp. 3371–2

Oman: op. cit. pp. 62–3

(3) Livermore: op. cit. p. 55

(4) Ibid. p. 62

فترة ، لكن الزمام مالبث أن انفلت منه فى سنة ٥٠٧، حين أعلن كلوفس الحرب على القوط الغربيين ، وضم إلى جانبه سجيبرت Sigebert ملك كـولون وزعيم الفرنجة الربين ، وضم الى جانبه عدوه القـــديم جندوباد Gundobad ملك برجنديا (١)، وتقدم كلوفس من باريس وعبر نهر اللوار وقابل القوط الغربيين فى سهل فوييه قرب تور ، وعندئذ تقهقر ألاريك الثانى متجنبا القتال ربما لعدم ثقته فى قادته أو بسبب ضعفه وتردده ، غير أن جيشه أجبره على خوض المعركة ، فبادأ الفرنجة بالهجوم ، ولكنه هزم هزيمة ساحقة ، وسقط قتيلا هو وعدد كبير من رجاله (٢) ، واجتاح كلوفس كل الأقاليم الواقعة بين نهرى اللوار والجارون دون أن يلقى أيه مقاومة ، ودخل بوردو ظافرا ، وقضى الشتاء بها ثم سار منها إلى تولوز — عاصمة القوط — فاستولى عليها (٣) ، ووضع يده على كثير من كنوز ملوك القـــوط بها ومن بينها التحف الرومانية التى كان ألاريك الأول وأتولف قد حملاها من إيطاليا قبل ذلك بنحو مائة عام ولم يكتف كلوفس بالاستيلاء على تولوز (٤) بل إنه أحدث بها كثيرا من الخراب والدمار وأشعل فيها النيران.وهكذا اضطرب أمر القوط الغربيين ولاسيما أن أماريك Amalric بن ألاريك وحفيد ثيودريك العظيم كان صغيراً لايتعدى الخامسة من عمره ، فى الوقت الذى قام فيه البرجنديون — حلفاء كلوفس — باجتياح إقليم بروفانس

(1) Cantor: Med. Hist. pp. 147–8
(2) Lot : op. oit, p. 319
Comb. Med. Hist. V. I. p. 286
(3) Oman: op. cit. p. 63
(4) Livermore : op. cit, p. 55

واستولوا على كل مدنه ماعدا مدينة آرل Arles (١). ومما زاد فى ضعف القوط الغربيين واضطراب أحوالهم ماحدث من انقسام داخلى وحروب أهلية بين القوط أنفسهم على أثر مناوأة ابن آخر لألاريك - غير شرعى - يدعى جيزالك Gesalic ، بنفسه ملـــكا انحياز فريق من القوط اليه ، وتحصنه فى ناربون ، وبرشلونه ، لكن الفرنجة والبرجنديين دفعوه فوق جبال البرانس (٢) ، وبدا الامر كأنهم أصبحوا قاب قوسين أو أدنى من وضع نهاية لمملكة القوط الغربيين كلها شمالى تلك الجبال .

أعلن ثيودريك العظيم الحرب على كل من كلوفس الفرنجى وجندوباد البرجندى ، حماية لحفيده أماليك ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتنقذ بقايا المملكة القوطية الغربية فى غالة ، واستطاعت فرقة كبيرة من جيشه أن تنزل فى برجنديا ، فى الوقت الذى دخلت فيه فرقة أخرى إقليم بروفانس (٣) ونجحت قوات ثيودريك فى أن تلحق الهزيمة بجيوش الفرنجة والبرجنديين المتحالفة المحاصرة لمدينة آرل : وقد قيل إنها قتلت نحو ثلاثين ألف رجل وأعادت من جديد فتح ناربون وكل ساحل البحر المتوسط حتى حـــدود أسبانيا ، ونجحت قوات ثيودريك أيضا فى استعادة كل غالة جنوبى نهر الديرانس سنة ٥٠٩ م ، حتى لقد اقتصر غزو كلوفس على إقليم إكوتين (٤) ، وغدا الطريق بعد ذلك مفتوحا أمام الجيوش القوطية الشرقية للتوغل داخل أسبانيا لمعاونة الطفل أماليك ضد أخيه المناوىء جيزالك ، وبعد قتال ضار استمر نحو عامين انتهى الأمر بمقتل

---

(1) Oman: op. cit. p. 26
(2) Lot: op. cit. p. 319
(3) Oman : op. cit. p. 26, p. 63
(4) Cantor: Med. Hist. p. 147

الملك المزعوم سنة ٥١١ ، برغم حصوله على بعض المساعدة من ملك الوندال ثراساموند Thrasamund (١) ، وأقيم أماليك ملكا على القوط الغربيين بوصاية الكونت ثيوديس Theudis ، وهو قوطي شرقي كان من أتباع ثيودريك العظيم. وهكذا أقر ثيودريك ملك القوط الشرقيين الامور في مملكة أقاربه وأضفى حمايته على حفيده ، واستعاد له أجزاء كثيرة من أراضية المفقودة في غالة ، وظل القوط الغربيون سادة أسبانيا مع احتفاظهم بأجزاء من غالة فيما وراء جبال البرانس(٢). ولمدة تقرب من إحدى عشرة سنة (٥١٢ - ٥٢٣) ، وحتى بلوغ أماريك سن الرشد ، كان ثيودريك العظيم يحكم مملكة القوط الغربيين بأسبانيا بالاشتراك مع حفيده ، واعترف بهما ملكين على القوط الغربيين ، وهكذا اتحد قسما القوط مرة أخرى بعد فترة انفصال دامت نحو مائتى عام (٣)، وبعد أن أشتد عود أماليك انفرد بالحكم سنة ٥٢٣ حتى مقتله فى سنة ٥٣١ ، فقد تحرك الفرنجة من جديد ضد مملكة القوط الغربيين ، بعد وفاة ثيودريك سنة ٥٢٦ ، ودامت المناوشات بين الجانبين فترة ، ثم نجح الفرنجــة في إنزال الهزيمة بالملك القوطي الغربي قرب ناربون(٤) وأرغموه على الفرار حتى لقى حتفه على يد بعض جنوده سنة ٥٣١م، وبذلك انتهت فترة هامة فى تاريخ المملكة بأسبانيا خطا فيها القوط الغربيون نحو الاستقرار بأسبانيا ، مع غض الطرف كثيرا عن أملاكهم فى جنوب غالــة ،

---

(1) Oman; op. cit. p. 26

(2) Pirenne : op. cit p. 189
Livermore ; op cit. p. 55

(3) Oman, op. cit. p. 27

(4) Lot: op.cit. p. 264
Livermore: op. cit. p. 55

بسبب تحفز الفرنجة والبرجنديين وعدائهم المستمر ، ولولا جهود ثيودريك العظيم ووقوفه فى صف أقاربه واهتمامه بحفظ العرش لحفيده لأصبح من الصعوبة بمكان التنبؤ بمصير تلك المملكة منذ أوائل القرن السادس الميلادى (١).

٢) عهد القوة والازدهار فى عمر المملكة القوطية الغربية (٥٣١ - ٦٠٣م) :

ترتب على هزيمة القوط الغربيين أمام الفرنجة ، ومقتل أماليك سنة ٥٢١ ، أن حرمت المملكة من أملاكها شمالى جبال البرانس ، ولاسيما إقليم سبتمانيا الشهير بمدنه العظيمة ناربون ونيمز Nismes وقرقشونة Carcassonne ، فضلا عما واجههم من متاعب فى اختيار ملك جديد بعد مقتل كل من ألاريك الثانى سنه ٥٠٧ وابنه أماليك سنة ٥٣١م وانتهاء السلالة الملكية فى البيت الملكى القديم(٢) ، ولهذا اتجهوا إلى اختيار ملك جديد حسب العادة التيوتونية القديمة ، ووقع اختيارهم على الكونت العجوز ثيوديس Theudis ، وهو نبيل من القوط الشرقيين كان نائبا للملك أماليك خلال فترة صباه الطويلة (٣).

وقد أثبت ثيوديس (٥٣١ - ٥٤٨م) بعد اختياره مباشرة أنه لا يقل كفاءة عن الملوك الأصليين ، إذ استعاد للملكة جزءا كبيرا من أملاكها المفقودة فيما وراء البرانس ، ولاسيما إقليم سبتمانيا الغنى ، واجتاز بالمملكة المرحلة الحرجة فى تاريخها أمام الفرنجة ، وحمى دولة القوط الغربيين من الاضمحلال(٤) ، فقد واجه بعد نحو عشر سنين غزوا فرنجيا جديدا ، ونجح مرة أخرى فى صد أعدائه بعد معركة

---

(1) Camb. Med, Hist. V. I. p. 286

(2) Oman; op. cit. pp. 128

(3) Lot: op. cit. p. 264

(4) Livermore ; op cit. pp. 55

دامية بالقرب من سرقطة Saragossa سنة ٥٤٢م(١). والواقع أن عهد ثيوديس يمثل بداية مرحلة هامة فى تاريخ القوط الغربيين إذ شهد انتقالهم من غالة إلى أسبانيا رسميا واستقرارهم فى ممتلكاتهم الأسبانية استقرارا رسميا ، واتخاذهم لبرشلونة عاصمة لمملكتهم ، أى أن ثيوديس كان أول ملك قوطى غربى يتخذ عاصمة فى الجزء الأسبانى من المملكة القوطية الغربية (٢).

وكان على المملكة القوطية الغربية أن تواجه بعد ذلك مشاكلها فى مقرها الجديد ، فقبل ذلك اعتبر القوط الغربيون غالة وطنالهم ، أكثر مما اعتبروا أسبانيا ، كما اعتبروا مدينة تولوز عاصمة لهم ومقرا لملوكهم (٣)، أكثر مما اعتبروا برشلونة وطليطلة ،فلما فقدوا غالة باستثناء إقليم واحد ، واقترن ذلك بانتهاء السلالة الملكية للبيت القديم ، عدت هذه أكبر معضلة واجهت القوط منذ هجرتهم الأولى ، فليس هناك ماهو أسوأ بالنسبة للقبيلة الجرمانية من ضياع الوطن وانتهاء سلالة الملوك ، وخاصة حين يصبح من الضرورة اختيار حاكم جديد من بين النبلاء ، الذين تتباين أهواؤهم وتزداد مطامعهم للوصول إلى العرش ، وتظهر بين حين وحين مؤامراتهم ضد من يواتيه الحظ منهم ويصل إلى العرش(٤). فن بداية عهد ثيوديس سنة ٥٣١ إلى نهاية عهد رودريك سنة ٧١١م ، وعلى امتداد مائة وثمانين عاما شملت عهود ثلاثة وعشرين ملكا طرد مالا يقل عن ثمانية منهم من الحكم ، ومن بين هؤلاء المطرودين قتل سبعة على أيدى من خلفوهم ،

---

(1) Pirenne: op. cit. p. 189
(2) Camb: Med. Hist. V.II. pp.162–3
(3) Cantore : Med. Hist. p. 148
(4) Oman: op. cit. p. 129

ولم يزد متوسط حكم هؤلاء الملوك عن ثمانى سنوات ، ولم يحدث أن خلف ولد أباه أثناء تلك المدة الطويلة ، إلا فى ثمانى حالات ، وفى حالة واحدة انتقل العرش من الجد إلى الوالد ثم إلى الولد(١).

ولقد مثلت صعوبة التقارب مع السكان الأصليين ، والخلاف المذهبى بين الغزاة والأهالى إحدى المشكلات الكبيرة التى واجهت القوط الغربيين فى مقرهم الجديد ، فعلى عكس ماحدث للفرنجة فى غالة ، لم يجر اتحـــاد سهل بين الفاتحين التيوتون والسكان الأصليين فى أسبانيا ، بسبب الخلاف المذهبى بين الجانبين(٢)، ففى حين كان القوط الغربيون أريوسيين تلقوا الأريوسية على أيدى أجدادهم فيما وراء الدانوب فى القرن الرابع ، وحملوا تراثها معهم إلى وطنهم الجديد (٣)، كانت الغالبية العظمى من الأسبانيين من الكاثوليك ، ولهذا كون القوط الغربيون جالية دينية خاصة بهم منفصلة تمـــاما عن السكان لها أساقفتها وقسسها الأريوسيون (٤)، ولم يستطع القوط الغربيون أن ينتفعوا بالأساقفة الوطنيين كما فعل الميروفنجيون فى غالة ، ولم يدركوا محاسن التحالف مع الكنيسة المحلية كما فعل كلوفس (٥)، فكره الوطنيون حكامهم واعتبروهم مهرطقين مثلما اعتبروهم برابرة، ولم يكونوا على استعداد لتقبل دولتهم ، وربمـــا يفسر ذلك ترحيب الوطنيين الأسبان بتقدم الفرنجة وبقدوم فرق الإمبراطورية الشرقية إلى شواطىء البلاد

---

(1) Ibid. p. 129

(2) Lot: op. cit. p. 264
Livermore: op. cit. p. 56

(3) Camb. Med Hist. V. I. p. 291

(4) Cantor: Med. Hist. pp. 137–8

(٥) ديفز : نفس المرجع السابق ص ٤٢، Livermore: op. cit. p. 56.

فى القرن السادس (١)، إذ لم يسمح القوط لأحد من الأسبان بالوصول إلى مكان السلطة ، ولم يعثر على أسماء رومانية بين خدم الملك القوطى ، قبل تحول القوط إلى الكاثوليكية ، قرب نهاية القرن السادس . وهكذا ظل القوط الغربيون نحو سبعين سنة فى بداية عهدهم بأسبانيا (٥١١ - ٥٨٧م) غرباء كلية بالنسبة لرعاياهم ، وبعيدين عنهم دون اتحاد أوتقارب(٢). فلم يكن القوط الغربيون بأسبانيا إذن سوى قبيلة مبعثرة وسط محيط من السكان المضطهدين ، أى أنهم كانوا ساده بقوة السيف ، فى حين أرهقت هذه القوة العسكرية بكثرة انصراف الملوك المنتخبين إلى تأكيد سلطتهم علـى النبلاء والرؤساء المتذمرين والتصدى للمؤامرات الداخلية ضدهم (٣)، حتى تسبب ذلك فى عدم إمكانهم استخدام قوتهم الحربية فى الخارج، فشلت تلك مشكلة أخرى ، وغدت كل حروب القوط الغربيين تقريبا حروب أهلية أو حروب دفاعية ضد الفرنجة المعتدين من خلف جبال البرانس (٤).

وثمة مشكلة أخرى واجهت هذه المملكة ، وهى أن القوط الغربيين لم يكونوا سادة لكل شبه الجزيرة الأيبيرية ، بل كان عليهم أن يتنازعوها مع أعداء ذوى بأس شديد ، كانوا دائما متحفزين للانقضاض عليها من الداخل ، وهم البسقوية Baspues ، ففى منطقة جبال البرانس الغربية، وعلى طول سواحل خليج بسكاى، كان البسقوية يكونون إمارة مستقلة وكانوا ينزلون من معاقلهم ليجتاحوا وادى

---

(1) Schurtz: "Spain and its conquerors" B. H. VII. p. 3511

(2) Oman: op. cit. p. 130
Pirenne : op. cit. p. 49

(3) Camb. Med. Hist. V. II pp. 163–70

(4) Oman : op. cit. p. 130
Lot : op. cit. p. 279

نهر إبرو كلما حانت لهم الفرصة وانشغل عنهم القوط (١)، وأبعد من هـــذه الإمارة وإلى الغرب ، كانت ماتزال فى إقليم غاليسيا ولوزيتانيا القديم مملكة السويفيين الجرمان، قاهرى أسبانيا الأصليين ، وكان القوط الغربيون قد طردوهم إلى جبال الغرب ، ولكن دون أن يتتبعوهم إلى تلك الجهات التى انسحبوا إليها لإجبارهم على تقديم خضوع كامل (٢)، وحكم الملوك السويفيون من براغا Braga ، وامتدت سلطتهم على كل المنطقة شمالى نهـــر تاغوس Tagus وغربى إسلا Esla وتورمز Tormes ، حتى السنوات الأخيرة من القرن السادس الميلادى ،وشاركوا فى الحروب الأهلية القوطية كلما سنحت الفرصة ، فكانوا يقومون بنهب وادى الدورو Dauro الأعلى والجزء الأدنى من نهر التاجوس ، ومدوا نفوذهم على كل الإقليم المعروف الآن بالبرتغال (٣).

أما فيما يختص بالتنظيمات الداخلية ، فقد ميزت المملكة القوطية الغـــربية مركزية مطلقة أى اعتماد كل شىء على شخص الملك ،ولم يشارك السكان فى تسيير دفة الحكم (٤) ، وكان القوط الغربيون قد قسموا مملكتهم إلى أقاليم يحكم كل منها كونت أو دوق متبعين فى تحديد تلك الأقاليم الحدود الرومانية القديمة تقريبا(٥) وتمتع كونتات القوط وأدواقهم بحرية أكثر فى ظل ضعف ملوكهم المختارين،فكان

---

(1) Oman: op. cit. p. 131.

(2) Lot : op. cit. p. 278
Livermore: op. cit. pp. 52–53

(3) Hodgkin: "The moulding of the Nations" in the B. H. VII. p. 3371

(4) Pirenne : op. cit. p. 50

(5) Lot: op.cit. p. 276

كل حاكم إقليم قوطي يحتفظ بحراس خصوصيين يسمون Saiens ، وأحيـــانا بقلارى Bucellari (١) ، وهم الاتباع الذين كان الكونتات والأدواق القوط يضعون فيهم ثقتهم ، ويحصلون منهم على تبعية مطلقـة حتى في التحرك ضـد الملك نفسه ، ولقد مكن وضع هؤلاء الاتبـاع المسلحين بين جموع السكان العـــزل ، الكونتات والأدواق القوط من القيام بالمؤامرات والفتن ضد كبار السادة والملوك الضعفاء بصفة خاصة (٢) ، ويبدو أنه كان بين القوط الغربيين طبقة من المـــلاك الاحرار صغيرة نسبياً ، وأثر ضئيل لطبقة متوسطة من النبلاء ســـواء أكانوا نبلاء رسميين « Palatini » أو نبـلاء بالمولد ، مع أتباعهم للموالين Saiones ، وظلت الضرائب الرومانية تجبى والنظام النقدى الرومانى كما هو لم يتغير (٣) . وعلى هذا فيمكن اعتبار هذه المملكة مملكة إقطاعيـــة في تنظيماتها إذ كانت تتكون من قاعدة عريضة من السكان العبيد من الأسبانيين ـ الرومانـــ ، يحكمهم عدد متفرق من رجال القوط المسلحين ، يرتبط كل منهم بأحد النبلاء الـكبار برباط التبعية والولاء (٤) ، ويعتبر كل من هؤلاء النبلاء الـكبار نفسه مساويا للملك ، ويرتبط معه أيضا بالولاء ، ولهذا لم تـكن هناك فرصة أمام الملك لتـــدعيم نفوذه وسلطته عن طريق طلب مساعدة الكنيسة أو الرعايا الرومانيين ، فقـــد حالت أريوسيته دون لجوئه إلى أى منها لطلب المساعدة والتأييد ، قبـــل أن

(1) Qmans op. cit. p. 131

(2) Lot: op. cit. p: 282

(3) Pirenne: op. cit. p. 51

(4) Schurtz: " Spain and its Conquerors " in S.B. H. VII. p: 3511

لتبدل الظروف ويحدث التقارب بينهما(١) .

والواقع أن التباين بين القوط والرومان كان قويا فى كل الميادين ، ففى مجال القوانين خضع كل طرف منهما لقانونه الخاص (٢) ، فقد خضعت الرعية لقانون على عرف بـ Breviarium Alarici وكان سادتهم القوط يعاملون طبقا لقانون العادات القوطية القديم ، الذى لم يكن حتى ذلك الوقت قد دون أو اتخذ شكله النهائى ، ولقد دون هذا القانون فى أغلب الظن حوالى سنة ٥٨٧م على يد ريكارد Reccard (٣) ، وكان التزاوج بين الجنسين يعتبر أيضا غير قانونى حتى سنة ٥٧٠م حينما كسر الملك ليوفيجلد Leovigild هـذه القـاعدة ، وتزوج ثيودوزيا Theodosia ابنة سفريانوس Severianus ، فوضع بذلك سابقة خطيرة وهامة للامتزاج بين العنصرين (٤)، فاذا كان حظر التزاوج بين الطرفين قد اختفى على يد ليوفيجلد ، كما اختفت الاريوسية على يد ريكارد فان اتحاد القـوانين بين الرومان والقوط قد بدأ على يد ريكسونث Reccswinth (٥) . وهكذا كانت أسبانيا تمضى فى عهد بغيض بالنسبة لها ، وكانت بحق فى حاجة إلى حاكم مثـل ثيودريك العظيم ليمثل دور المصلح ، ويزيل الصعاب بين الأمتين التين التقتا داخل حدودها . (٦)

---

(1) Lot; op cit. pp. 282–3
(2) Pirenne : op. cit. p. 49
(3) Oman: op. cit. p. 132
(4) Lot : op. cit. p. 280
(5) Pirenne: op. cit. p. 49
(6) Oman; op. cit. p. 132

تعرض الملوك الثلاثة الأوائل من القوط الغربيين بأسبانيا ، لنهايات أليمة ، فقد ظل ثيوديس نحو سبع عشرة سنة فى الحكم (٥٣١ - ٥٤٨ م) ، نجح خلالها فى التصدى لمحاولات ثلاث قام بها الفرنجة لغزو شبه الجزيرة[1] ، لكن نهاية هذا الملك كانت بالغة القسوة ، فقد روع المدرعة التى تم بها الجيوش جستنيان سحق الوندال بشمال إفريقية ، والقوط الشرقيين بإيطاليا ، وحاول أن يخفف الضغط على أقاربه فى إيطاليا عن طريق غزو شمال إفريقية ، وضم الإقليم الإمبراطورى الذى كان قد عاد توا إلى حظيرة الامبراطورية[2] ، إلا أن جيشه سحق عن آخره تقريبا بالقرب من قلعة سبتة سنة ٥٤٤ م وارتد هو بصحوبه بالغصة إلى أسبانيا يجر أذيال الخيبة والعار ، ثم لقى حتفه على يد القوط أنفسهم فى إشبيلية بعد نحو أربع سنوات من هذه الحادثة (٥٤٨ م)[3]

وقع اختيار رؤساء القوط بعد ذلك على ثيوديجزل Theudigisel (٥٤٨-٥٥٠م) ليكون ملكا عليهم ، وهو القائد الذى أنزل الهزيمة بالفرنجة عند سرقسطة Sarag a سنة ٥٤٢ م والذى حاز شهرة عظيمة أهلته لتولى الحكم ، غير أن هذا الملك كان بالغ الفظاظة والفجور[4] ، ففجر كوامن الغضب فى قلوب النبلاء ، فاغتيل فجأة بعد أقل من ثمانية عشر شهرا من اختياره ، إذ وضع أصدقاؤه النبلاء نهاية لحياته ، وهو يجلس إلى جوارهم على مائدة العشاء يحتسى معهم الخمر ، فقد أطفئت الأنوار واغتيل فى مكانه ، وكان ذلك فى نفس المدينة (إشبيلية)[5]

(1) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 162-3
(2) Livermore: op. cit. p. 55
(3) Lot : op. cit. p. 264
(4) Omans : op. cit. p. 133
(5) Camb. Med. Hist. V. II. p. 163

اختار أغلب القوط بعد ذلك أجيلا Agila (٥٥٠ – ٥٥٥ م) ملكا عليهم ، وجرى الاعتراف به ملكا فى طليطلة وبرشلونة ، فى حين رفض كونتات الجنوب الاعتراف به ، ربما بسبب ما كان معروفا عنه من تعصب للأريوسية واضطهاد الكاثوليك فضلا عن الإختلاف العنصرى القديم (١) ، وحينما حاول أجيلا غزو الأندلس Andalusia تعرض لهـزيمة ساحقة أمام قرطبة ، ورأى ابنه وولى عهده يقتل أمام عينيه ، غير أنه ظل يحكم كل أسبانيا شمالى جبال سيراموريناً ، وبدا من القوة بدرجة جعلت قائد الثوار فى الجنوب ، وهو الكونت أثاناجلد Athanagild الذى كان يعتنق الكاثوليكية سرا (٢) يصمم على الاستعانة بجيوش الامبراطورية الشرقية لمواجهته . ولقد اهتبل جستنيان الفرصـة لإنزال قواته بأسبانيا ، وسمح لحاكم إفريقية ليبريوس Liberius بعبور المضايق والنزول عند قادس Cadiz فى محاولة جادة لجعل البحـر المتوسط بحيرة رومانية كما كان ، بالاستيلاء على موانى أسبانيا المطلة عليه (٣) ، وعند ذلك سارع كثير من المدن الأسبانية إلى فتح أبوابها للفرق الرومانية ، لاعتقاد الوطنيين المستضعفين بأن ليبريوس سوف يحررهم إلى الأبد من حكم القوط الغربيين ، ويستعيد للامبراطورية سلطانها على كل شبه الجزيرة (٤) ، ونجح قادة جستنيان فى الاستيلاء على كثير من المدن ولاسيما على الساحل الجنوبى الشرقى من شبه الجزيرة سنة ٥٥٢ ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت الحروب بين القوط الغربيين وبين البيزنطيين أمرا

---

(1) Heinrich Schurtz: op. cit. p. 3511
(2) Lot: op. cit. p. 264
(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 65
(4) Oman: op. cit. p. 133

عنيا ومستمراً بالنسبة لملوك أسبانيا (١) ، وأخيراً اضطر أجيلا إلى استدعاء كل قواته ، وعبر بهم جبال سيراموورينا للمرة الثانية ، واشتبك مع جيوش أثانا جلد وليبريوس أمام إشبيلية Seville ، فتعرض أجيلا مرة ثانية لهزيمة ساحقة وكارثة مروعة ، وأجبر على الهرب إلى مريدا Merida (٢) ، وعند ذاك أدرك القوط أنهم يدمرون أنفسهم بأنفسهم بينما يتقدم الرومان فى أسبانيا ويحتلون مدينة بعد أخرى ، ولهذا أوقف القوط الحرب الأهلية وقتلوا ملكهم أجيلا ، وأقاموا قائد الثوار أثانا جلد ملكا على المملكة (٣) .

أصبح أثانا جلد Athanagild (٥٥٥ - ٥٦٨م) بذلك ملكا على أسبانيـا ، وسرعان ما أدرك أنه حين استدعى الرومان إلى شبه الجـزيرة ، إنمـا جلب على نفسه أكبر خطر ، وعلى مملكة القوط الغربيين أشد أعـدائها قوة وصـلابة (٤) ، وصح لديه هذا حين رفض قادة جستنيان الجلاء عن المدن التى احتلوها أثناء حرب القوط الأهلية ، ولاسيما أن وضعهم الجديد قد مكنهم من السيطرة على معظم موانى الساحل الجنوبى على جانبى مضيق جبـل طارق لمحاولة إتمام السيطرة البحـرية على شواطىء البحر المتوسط (٥) ، ولم تعد كل من قادس وماقا Malaga وقرطاجنة Carthagena فى أيديهم فحسب ، بل كثير من المـدن الداخلية فى الأندلس من

---

(1) Schurtz: op. cit. p. 3511
(2) Camb. Med. Hist. V. II, p. 163
(3) Prienae : op. cit p. 68, Livermore: op. cit. p. 55
(4) Oman: op. cit. p. 134
(5) Bury: op. cit. p. 287
Camb. Med. Hist. V. II. pp. 163 - 4

بينها المدينة الكبيرة قرطبة Córdova (١)، وظل نفوذ الأباطرة الشرقيين قائما فى قرطبة وغرناطة Granada عشرين سنة تالية، ولم يتمكن القوط من استعادة مدن الساحل وإعادتها إلى حظيرة المملكة القوطية قبل سبعين سنة (٢)، وهكذا فشل أثانا جلد فى استرجاع المدن التى استولى عليها البيزنطيون، على الرغم من أنه نجح فى إلحاق بعض الهزائم بقادة جستنيان، وإن أفلح هؤلاء فى الانسحاب إلى معاقلهم للاحتماء بأسوارها فاضطر أثانا جلد فى النهاية إلى عقد صلح معهم وتركهم دون إخضاع (٣)، وعلى الرغم من أن أثانا جلد احتفظ بالعرش لمدة ثلاثة عشر عاما، ومات ميتة طبيعية — على عكس أسلافه الخمسة من ملوك القوط الغربيين — فإنه لم يكن على شىء من القوة، ولم يكن للمملكة على عهده شىء من الازدهار (٤)، فلم تحفظ لنا مدونات ذلك العصر عنه سوى القليل، ولا تذكره إلا بصفته والد الأميرتين المنكوبتين برنهلديس Brunhildis وجالسونثا Galswintha، لؤلؤتى أسبانيا، اللتين زوجهما لملكى الفرنجة سيجبرت Sigibert وشلبرك Chilperich، لظروف سياسية خاصة اقتضتها الحاجة (٥)، إذ زوج الأولى لسيجبرت ملك أوستراسيا بهدف الحصول على مساعدته ضد أية محاولة من قبل إخوة هذا الملك فى باريس وسواسون وبرجنديا، ثم قادت شهرة وجمال وثراء هذه الأميرة بعدئذ شلبرك ملك سواسون لطلب يد أختها، فلم يتردد

---

(1) Lot: op. cit p. 265

(2) Ostrogorsky: op. cit p. 72
Livermore: op. cit. p. 55

(3) Oman: op. cit p. 134

(4) Pirenne: op. cit. p. 68

(5) Lot: op. cit. pp. 279-80

أثانا جلد في تزويجها منه بغرض ضمان تحالف آخر ، ولحسن حظ أثاناجلد أنه توفى بعد ذلك بقليل ، قبل أن يسمع مأساة جالسونثا ونهايتها التعسة سنة ٥٦٨ (١) .

غرقت المملكة القوطية الغربية في فوضى واضطراب ، بعد وفاة أثانا جلد لمدة خمسة أشهر ، فشل خلالها نبلاء القوط في اختيار ملك جديد وجرد كل منهم حسامه وجند جنده وهاجم جيرانه وفعل كل ما بدا في نظره سليما وصائبا ، ثم وافق حكام سبتمانيا في النهاية على اختيار ليوفا Leova دوق ناربون حاكما عليهم (٢) ، غير أن كونتات جنوب البرانس رفضوا قبول هذا المرشح من الإقليم الغالي ، واندلعت حرب أهلية جديدة ، ثم أوقفت على أثر اقتراح ليوفا بإشراك أخيه ليوفيجلد Leovigild معه في الحكم ، وكان ليوفيجلد معروفاً لدى الجنوبيين ، ولهذا أقر هذا الاختيار معظم نبلاء أسبانيا ، واحتفظ ليوفا بلقب الملك وحكم سبتمانيا ، بينما حكم ليوفيجلد شبه الجزيرة كملك لأسبانيا ، وظلت المملكة مقسمة على هذا النحو مدة أربع سنوات حتى توفى ليوفا دون عقب سنة ٥٧٢ وعندئذ انفرد أخوه ليوفيجلد بالحكم ووحد من جديد بين سبتمانيا وأسبانيا (٣) .

غدا ليوفيجلد (٥٦٨ - ٥٨٦) أول ملك يحكم مملكة القوط الغربيين كلها منذ نحو مائة عام ، وربما اعتبر المؤسس الثاني لهذه المملكة ، لانتشاله إياها من ظلمات الفوضى والاضطراب ، ولأنه أرسى دعائم نظام جديد فيها ، وضربه

---

(1) Oman: op. cit. pp. 134–5
(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 164
(3) Oman: op. cit. p. 135

بشدة أعداءها فى الشرق وفى الغرب وأعطاها وحدة جنبتها الوقوع فريسة فى أيدى الفرنجة والبيزنطيين(١) . فقد وجه ليوفيجلد جانبا كبيراً من اهتمامه لمحاربة أعداء المملكة ، وتميزت الأعوام الثمانية الأولى من عهده بالحروب فى كل الجبهات بطريقة لم تدع له فرصة لالتقاط الأنفاس ، فقد وجه أولى ضرباته إلى الامبراطوريين الذين قويت شوكتهم واتسع نفوذهم فى قرطبة وقادس، وامتدت سلطتهم على أجزاء واسعة من الأندلس(٢) ، واستطاع أن ينتصر عليهم فى معارك عدة ، فاقتحم بازا Baza وأسيدونيا Assidonia ، ودفع بالرومان إلى داخل أسوار قرطبة وكانت هذه المدينة تحميها حامية قوية ويدافع عنها سكان كاثوليك متعصبون ، أجبروا الملك على الاستمرار فى الحروب لمدة عام كامل ، ثم سلمت قرطبة فى النهاية فى سنة ٥٧١ بمساعدة بعض سكانها من القوط وسقطت بعد نحو عشرين سنة من بقائها فى أيدى الإمبراطوريين (٣) . وهكذا طرد البيزنطيون إلى ما وراء جبال سيرانفادا ولم يعد فى أيديهم أكثر من شريط ساحلى يمتد من لاجوس Lages إلى قرطاجنة . ثم تحول ليوفيجلد بعد ذلك إلى السويفيين ، الذين كانوا قد استولوا على وادى الدورو الأوسط، واندفعوا إلى قلب شبه الجزيرة الايبيرية ، ولأنهم كانوا قد تحولوا مؤخراً إلى الكاثوليكية فقد رحب بهم سكان أواسط أسبانيا ، غير أن ليوفيجلد نجح فى إنزال الهزيمة بملك السويفيين ثيودمير Theodemir واقتحم معقله فى سنابريا Senabrsia

(1) Lot: op. cit. p. 280
(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 165
(3) Ostrogorsky: op. cit. p. 72

وأجبره على الإذعان (١) .

شغل ليوفيجلد بعد ذلك ولأكثر من سنتين بقمع الثوار من الأهالى الرومان فى كل الجهات النائية والجهات الجبلية فى أسبانيا خاصة فى كانتبريا Cantabria ، وعلى شواطىء خليج بسكاى وبين الجبال المراكشية فى الجنوب ، ونجح فى أسر وقتل بعض قادة الثوار ونكل بأتباعهم ، وقضى على عصيانهم ، وبعد ثمانية أعوام من الحروب المتصلة تم إخضاع جميع أراضى المملكة سنة ٥٧٦ م باستثناء مدن ساحل الأندلس ، ورد الفرنجة الذين غزوا مدينة ناربون على أعقابهم (٢)

ولم تكن وطأة ليوفيجلد على النبلاء المناوئين فى مملكته أقل مما كانت على أعداء المملكة الخارجيين ، فقد أخضع هؤلاء النبلاء واحدا بعد الآخر ، أولئك الرجال الذين كانوا دائما فى تحفز لإغتيال ملوكهم ، (٣) كما دمغهم بذلك معاصر فرنجى ، وعين فى أماكنهم كونتات وأدواقاً من بين أعوانه الذين كانوا محل ثقته ، وفى النهاية كانت أوامره تطاع فى كل المملكة من نيمز Nismes إلى إشبيلية Seville ، كما لم تطع من قبل ، وبدا كأن ملكية أوتقراطية قوية سوف تتحقق بين القوط الغربيين (٤) ، كما حدث بين الفرنجة .

وفى نفس الوقت اتخذ من طليطلة مقرا دائما لحكمه ، وثبت بلاطه فيها بصفة

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 168
Livermore: op. cit. p. 57

(2) Lot: op. cit. p. 280

(3) Oman: op. cit p. 137

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p 167
Altamira: op. cit. pp. 79–80

دائمة ، وأحاط نفسه بكل مظاهر الرفاهية والترف ومراسم الملك التى كانت للقياصرة الرومان القدماء [١] ، فاتخذ التاج والصولجان ولبس العباءة القرمزية وجلس على العرش الذهبى ، ولم يكن ملوك القوط الغربيون قبله يتميزون بشىء فى سلوكهم أو لباسهم عن بقية النبلاء من القوط ولم يختلفوا عنهم إلا بحمل اللقب الملكى وبالاحتفاظ بمجموعة كبيرة من الحراس الموالين الذين عرفوا بـ Saiones ، فمضى ليوفيجلد فى تأكيد سلطته واستقلاله [٢] . ولما كانت عملة القوط الغربيين حتى ذلك الوقت ليست إلا تقليدا متبربرا لعملة روما والقسطنطينية الإمبراطورية ، فقد رأى ليوفيجلد ضرورة وضع اسمه على كل العملات الذهبية فى أسبانيا ، فغدا اسم الملك القوطى منذ ذلك الوقت يوضع على العملة ليكون رمزا للاستقلال وتأكيدا للسلطة ، وربما لجأ ليوفيجلد إلى إضافة اسم الإمبراطور جستن الثانى إلى جانب اسمه فى فترة إنتقالية استمرت سنوات قليلة ، ثم ما لبث أن محا اسمه وطمس آخر علامة من علامات التبعية القديمة للامبراطورية ، فانقطعت بذلك آخر رابطة من روابط الصلة بين أسبانيا والقسطنطينية . [٣]

وعلى الرغم من ذلك كله لم تنته متاعب ليوفيجلد نهائيا ، فقد كان ألد أعدائه من بين أفراد أسرته ، وكان ليوفيجلد قد تزوج قبل اعتلائه العرش ، وعلى عكس العادة القوطية ، من سيدة رومانية نبيلة [٤] ، هى ثيودوسيا Theodosia ابنة سفريانوس Severianus ، الذى كان حاكما لبعض الوقت على قرطاجنة ،

---

(1) Lot : op. cit. p. 280

(2) Oman: op. cit. p. 137

(3) Ibid: p. 137

(4) Pirenne: op. cit. p. 51
Livermore: op. cit. p. 57
Altamira: op. cit. p. 80

وأنجب ليوفيجلد منها ولدين هما هرمنجيلد Hermenegild وريكارد Reccared وحين توفيت هذه السيدة سعى ليوفيجلد إلى تقوية مركزه بالزواج من أرملة سلفه أثاناجيلد وتدعى Godiswintha ، وحين بلغ ابنه الأكبر هرمنجيلد سن الرشد عزم على البحث له عن عروس من أسرة أثاناجيلد أيضا ، وطبقا لهذا خطب له حفيدة زوجته وتدعى إنجنثز Ingunthis ، وهى ابنة سيجبرت ملك أوستراسيا (١) ، غير أن هذا الزواج أدى إلى نتائج بالغة السوء بالنسبة للملك ، فقد قدر لهذه العروس أن تكون سببا فيما نزل بأسبانيا من هم وكدر (٢) ، فقد شبت تلك الأميرة فى أوستراسيا على العقيدة الكاثوليكية ، وحين انتقلت إلى أسبانيا زوجة لأمير قوطى أريوسى ، رفضت أن تتخلى عن عقيدتها ومذهبها ، وإذا صحت روايات الكتاب الفرنجة المعاصرين ، فان هذه الأميرة الصغيرة تعرضت لأقسى أنواع العذاب لإجبارها على التحول عن الكاثوليكية دون جدوى برغم حداثة سنها ، فقد جرى ضربها وحرمانها من الطعام وتعريضها فى برك الماء القذر إلا أنها ظلت ترفض فى إباء التخلى عن مذهبها (٣) ، والغريب أن جدتها جود يسونثا (أم والدتها) هى التى أشرفت على تعذيبها ومحاولة إرغامها على ترك مذهبها ، وفى النهاية حين تعب ليوفيجلد من الصراع الدائم بين زوجته وحفيدتها ، قرر إرسال ابنه هرمنجلد زوج هذه الأميرة إلى مدينة إشبيلية ليحكم نيابة عنه جزءا من الأندلس (٤). غير أن الأحداث أثبتت أن هذه الخطوة لم

---

(1) Lot; op. cit. p. 280
(2) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 168
(3) Oman ; op. cit p. 138
'(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 168

تكن موقتة ، فقد وقع الأمير القوطى كلية تحت تأثير زوجته الكاثوليكية [١]، وتحت تأثير خاله ليندر Leander أسقف مدينة إشبيلية ، وبمعاونة ليندر ومؤازرته أعلن الأمير القوطى الخروج عن طاعة والده ، وأعلن اعتناقه الكاثوليكية ، وجرى تعميده من جديد وفق مذهب الكنيسة الكاثوليكية [٢]، ولأنه كان يعلم أن هذه الخطوة سوف تجلب عليه المتاعب من قبل والده وتحرمه من إرثه فى عرش مملكة القوط الغربيين ، فقد بادر من جانبه بإعلان نفسه ملكا وتحالف مع السويفيين ومع الإمبراطورية الشرقية ، ورحب بالكاثوليك فى جيشه من كل أنحاء أسبانيا [٣]. والواقع أن ليوفيجلد لم يواجه فى حياته خطرا أكبر من هذا الخطر ، إذ حركت هذه الثورة ضده كل عناصر الشعب فى شبه الجزيرة ، فقد نزل البسقاوية من مرتفعاتهم ليشاركوا فى الصراع ، واحتشد السويفيون جنوب الدورو ، واحتل الإمبراطوريون من جديد قرطبة ومريدا Merida وإشبيلية ، ونادت إيفورا Evora بالأمير الثائر هرمنجلد ملكا ، وبدأ الأهالى المتذمرون تحت قيادة أساقفتهم يثورون فى كل أنحاء المملكة ، غير أن قدرات ليوفيجلد ومواهبه الفطرية كفلت له السلامة من هذه الأخطار ، فقد استدار بادىء ذى بدء ليحارب الثائر ، واستطاع أن يهيض حركته ويقبض على كثير من أعوانه وزج باثنى عشر أسقفا فى السجن [٤]. ثم تحول إلى

(1) Schurtz: "Spain and its Conquerors" B. H. V. VII. p. 3511

Livermore; op. cit. p. 57

(2) Lot : op. cit. p. 280

(3) Oman : op. cit. p. 138

(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 169

Altamira: op. cit. p. 80

البسقاوية فأنزل بهم الهزيمة وأجبرهم على الارتداد إلى حدودهم ، وأقام على تلك الحدود مدينة فيتوريا Vittoria رمزا لذلك الانتصار (١).

تحرك ليوفيجلد بعد ذلك ليضع نهاية لعصيان ابنه، وكان هرمنجلد قد تملك لنحو عامين الوادى الكبير ، فانساب ليوفيجلد فى سنة ٥٠٢م فجأة لينقض عليه هناك ، ويزيحه إلى أسوار إشبيلية وعندئذ تحرك السوفيون لمعاضدة حليفهم الثائر وليرفعوا عنه الحصار (٢) ، ولكن ليوفيجلد أنزل الهزيمة بملكهم مرو Miro ، وعاد فاسترد مواقع حصاره لمدينة إشبيلية . وبعد شهور طويلة من الحصار استطاع الملك أن يقتحم المدينة ، غير أن الإبن الثائر وزوجته كانا قد تمكنا من الهرب، ولاذا بالرومان فى قلعة أوسيت Osset ، فتتبعهما الملك ،وأفلح فى استمالة الإمبراطوريين بدفع مبلغ كبير من المال فسلموا له المدينة كلها (٣) ، وعندئذ جرى سحب هرمنجلد مكبلا بالأغلال ليمثل أمام والده ، وعلى الرغم من كل ما فعله فقد عفا عنه الملك ، غير أنه جرده من أوسمته الأميرية وبعث به مكرما ليعيش محددا إقامته فى بلنسية Valencia كشخص عادى (٤).

وبعد ذلك التفت ليوفيجلد إلى السويفيين على طول وعرض بلادهم ، ونجح فى إنزال الهزيمة بهم وأسر آخر ملوكهم أنديكا Andica ، وأجبره على الدخول إلى أحد الأديرة ليقضى بقية حياته . وهكذا فشلت ثورة هرمنجلد فى إلحاق الأذى

(1) Lot: op. cit. p. 280
(2) Oman: op. cit. p. 139
(3) Prienne; op. cit. p. 60
(4) Camb. Med Hist. V. II. p. 170
Livermore: op. cit. p. 57

بالمملكة ، بل إنها فى الواقع أفادت الملك فقد قضت على أعدائه فى الشمال الغربى ، وأنهت متاعب القوط الغربيين من هــــذه الناحية (١). أما عن الابن الثائر هرمنجلد ، فقد كانت خاتمته تعسة ، إذ كان والده قد وعده بإعادته إلى مركزه فى المملكة إذا هو أنكر المذهب الكاثوليكى غير أن هــذا الأمير الثائر ظــل على عناده ، فانتهى به الأمر إلى السجن ثم القتل (٢) ، إذ لم تفلح القيود والأغــلال فى حمله على التحــول عن عقيدته ، ولما زاد عناده ، استبد الغضب بوالده ، فأنذره بأسوأ العواقب ، وفى يوم عيد القيــامة سنة ٥٨٥ بعث والده بأسقف أريوسى ليمنح السر المقدس للأمير السجين ، غير أن هذا دفع الأسقف الأريوسى خارج زنزانته مع صيحات اللعنة ، ولما نقلت هذه الأنباء إلى والده غضب غضبا شديدا وفى لحظة من لحظات الهياج ، أمر بقطع رقبة ابنه العنيد ، فوضــع بذلك نهــاية تعسة لحياة هذا الابن الثائر (٣) وبعد أجيال سمى الناس ثورة هذا الأمير . ولم يذكروا ســــوى إصراره على الاستمرار فى «العقيدة الحقة» . ولهذا رفعوه إلى مصاف القديسين ، أما زوجتــه وابنه فقد جرى إرسالهما إلى القسطنطينية على يد حــاكم ملقا Malaga الرومانى ، وماتت زوجته أثناء الرحلة ونجا الطفل غــير أنه عاش ومات مغمورا فى بلاط الإمبراطور موريس (٤) .

وكان على ليوفيجلد حينذاك أن يواجه غضب الفرنجة ، فقد حشــد كل من

---

(1) Lot: op. cit. p. 280

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 168

(3) Altamira: op. cit p. 80
Schurtz: op. cit. p. 3511

(4) Oman: op. cit. pp. 139—40

شلدبيرت أخي إنجنثر ، وجنترام guntram عمها قواتهما للانتقام لمصرع زوجها والنهاية التعسة التي انتهت إليها (١) وأرسلا أسطولا بحريا لإنزال قوة عسكرية في غاليسيا ، وأهاجا من جديد السويفيين المقهورين ، بينما دخل جيش برجندي إلى سبتمانيا ، وهاجم نيمز Nismes وقرقشونه ، إلا أن خبرة ليوفيجلد العسكرية وحظه المواتي دائما لم يخذلاه ، فبينما قام بنفسه لسحق الجيش الذي نزل في غاليسيا ، كان ابنه ريكارد يطرد البرجنديين من سبتمانيا بعد أن قتل قائدهم ، وأفنى نحو نصف جيشهم (٢) وتقابل الوالد والابن المنتصران في طليطلة ، لكن يبدو أن متاعب هذه الحملة ، ما لبثت أن أحدثت الكثير في ليوفيجلد ، لأنه ما لبث أن توفي بعد عودته مباشرة إلى العاصمة في ١٣ أبريل ٥٨٦ ، وبعد سنة واحدة وفي نفس اليوم الذي أعدم فيه ابنه الأكبر ، وهي مصادفة نجح الكاثوليك في انتهازها لتصوير ذلك على أنه كان جزاء عادلا له من السماء (٣) .

ريكارد Riccared وتحول القوط الغربيين الى الكاثوليكية :

وكان ليوفيجلد قد أقنع نبلاء القوط قبل وفاته باختيار ابنه الثاني ريكارد شريكا له في الحكم ، وتحيته بتحية الملك ، ولذا لم يحدث أي إضطراب أو نزاع داخلي عند وفاة ليوفيجلد ، فانتقل الحكم إلى وريثه ريكارد في هدوء ، وقدر لهذا الملك الجديد أن يترك بصماته على تاريخ مملكة القوط الغربيين ، بما إشتهر عنه من حزم واصرار ، حتى إن أعماله لا تقل أبدا عن أعمال والده (٤) ، فإذا كان

---

(1) Camb. Med. Hist.V. II. pp. 170—1
(2) Ibid. p. 171
(3) Oman; op. cit. p. 140
(4) Lot: op. cit. p. 280

ليوفيجلد قد أنقذ المملكة من الفوضى والاضطراب بضرباته القوية وجيشه المتحفز فإن ريــــكارد قد وضعها على طريق جديد فى الحياة وهيأ لها وضعا جـديدا فى حياتها السـياسية والدينية بالتحول الكبير الذى ارتبط باسمه ، وهو تحول القوط الغربيين إلى الكاثوليكية(١)

وكان ريكارد (٥٨٠ - ٦٠١ م) ابنـا لأم رومانية ، ولكنه على عكس أخيه هرمنجلد - لم يظهر أى تمرد على الآريوسية فى حياة والده ، فلما توفى والده خطا خطوات جعلت الآريوسيين يتوجسون خيفة منه ، فقد استدعى اليـه الأساقفـة الكاثوليك والآريوسيين وجعلهم يدخلون مرات فى جـدل أمامه حـول أسـرار الثالوث Trinity ويتناظرون فى الأمور التى تمس صلب العقيدة ويبدو أنه اتخذ هذه الخطوة لتهيئة العقول والأذهان للتحول المنتظر فى حياة القوط ، ولم تكن علاجا لأى شك لديه هو فى المذهب الذى أزمع اعتناقه (٢)

ويبدو أن ريكارد أدرك أن مملكة القوط الغربيين لن تقوم على أسس قوية ما دامت الفجوة قائمة والانفصال حادثا بين الطائفة الحاكمة وبين جموع الرعايا بسبب الحاجز الدينى والنزاع المذهبى (٣) فى الوقت الذى كان فيه القوط الغربيون أقل عددا بالنسبة لمجموع السكان لدرجة لا تكفى للامتزاج بالأهالى أو الإندماج معهم ، فضلا عن أن القوط لم يظهروا أى رغبـة لذلك ، وأدرك أيضا أنه إذا لم يحدث ذلك الاندماج والتزاوج ، فإن مملكة القوط محكوم عليها بالزوال(٤) ، فى

---

(1) Pirenne: op. cit. p 51
Altamira: op. cit. p. 81

(2) Oman: op. cit. p. 140

(3) Schurtz: op. cit. p. 3511

(4) Lot: op. cit. p. 280

أي وقت وبأي انتفاضة سياسية حينما يخلو العرش من ملك قوي حازم ، فقد تكفلت شجاعة ليوفيجلد البالغة بدرء مثل هذه الأخطار عن المملكة ، ولكن لا سبيل إلى ضمان وصول ملوك لهم نفس هذه المقدرة الإعجازية (١) ، عند ذاك أعمل ريكارد فكره وأدرك أن أريوسية القوط الغربيين لم تكن أكثر من مسألة انكماش وتقاليد لدى الأسلاف ، تحمل في طياتها مظاهر كبرياء الجنس وخيال العظمة العنصرية ، أكثر مما كانت عقيدة حقيقية أو اقتناعاً حقيقياً . (٢) وآمن ريكارد أنه إذا أمكن له اتخاذ خطوات حذرة بطريقة تدريجية ، دون إحداث طفرة أو عمل فجائي أو اللجوء إلى الإجبار ، فربما أمكن له قيادة رعاياه بهدوء إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، وقد أثبتت الأحداث بعد ذلك أنه كان على صواب ، إذ حدث التحول إلى الكاثوليكية في هدوء ، وبإحكام وجرى بشيء من الحذر ، ولم يظهر ريكارد أية انفعالات أو يتورط في تعصب أهوج . وهكذا تحول ريكارد إلى الكاثوليكية وأخذ رعاياه يحتذون حذوه (٣) ، واستغرقت خطة ريكارد الفترة بين سنتي ٥٨٦ و ٥٨٨ ، مهد خلالها التحول الكبير في حياة المملكة القوطية ، ثم ما لبث أن أعلن إعتناقه الكاثوليكية ، وجرى تعميده على يد خاله مطران إشبيلية وفق شعائر المذهب الكاثوليكي ، وعندئذ تبعه الجانب الأعظم من شعبه ، وكثير من كونتات القوط وعدد كبير من الأساقفة الأريوسيين ،(٤) وساهمت الكنيسة في تبسيط إجراءات التحول إلى الكاثوليكية ، ولم تحاول أن

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

(2) Oman: op. cit. pp. I41

(3) Hodgkin: " The moulding of the Nations " B. H. VII. p. 3372

(4) Livermore: op. cit. p. 58

تجرى عمليات تعميد جديدة ، بل أعلنت أنه يكفى أن يحضر الشخص إلى أى مكان العبادة ، حيث يتلقى بعض التباريك المقدسة على يد قسيس كاثوليكى . (١)

وكان من المتوقع ألا يمر مثل هذا الحادث دون متاعب ، فكثير من القوط من العلمانيين ورجال الدين ، اعتنقوا الأريوسية ، وتمسكوا بها بصفتها العقيدة المقدسة لأسلافهم والسمة المميزة لعنصرهم القاهر ، ويعنى ضياعها هدم ركن ركين فى بناء الكيان القوطى(٢) ، ولهذا سرعان ما أعلن ثلاثة من الثوار تذمرهم ورفعوا راية العصيان فى أقاليم نائية مثل سبتمانيا ولوزيتانيا ، فى الوقت الذى كانت فيه زوجة والد الملك « جودزونثا » ، والأسقف أثالوك Athaloc رئيس الأساقفة الأريوسيين على رأس المناوئين والمتذمرين ، غير أن الجانب الأعظم من القوط الغربيين لم يكترثوا لذلك ، وتم للملك الانتصار على الأريوسيين ، برغم ضآلة قواته ، وانتهت متاعب المملكة من هذه الناحية ، وأصبح القوط الغربيون منذ ذلك الوقت يتيهون فخرا بكاثوليكيتهم ، كما فعلوا ذلك من قبل بعقيدتهم المهرطقة (٣)

وفى الوقت الذى كان ريكارد مشغولا فيه بإخضاع الثوار الأريوسيين اعتقد ملك برجنديا الفرنجى جنترام Gantram ، أن الفرصة سانحة لغزو سبتمانيا فأرسل جيشا كبيرا إلى وادى نهر الرون الأدنى ، ولكن هذا الجيش تعرض لهزيمة ساحقة قرب ناربون على يد الدوق كلاوديوس Claudius أحد قادة ريكارد ، وقد كان أول رجل تجرى فى عروقه دماء رومانية ، ويرفع إلى أعلى الرتب على

---

(1) Oman: op. cit, p. 142

(2) Camb. Med. Hist. V. II. p. 172

(3) Oman: op. op. cit. p. 142

يد ملك القوط الغربيين (١) ، وكانت هـذه المحاولة (٥٨٩م) آخر محاولة للبيروفنجيين لغزو سبتمانيا ولم تتكرر بعـد ذلك مطلقا . وهكذا حالف الحظ ريكارد ، فقضى على الأخطار المحدقة بالمملكة وأخضع البسقاوية ، وحصر الإمبراطوريين فى خط موانيهم الساحلية فى الجنوب ، وقمع بشدة ثورات صغيرة أشعلها بعض النبلاء القوط المتذمرين (٢) ، ووجد معاونة صادقة - إبان هـذه الظروف الحرجة - من الأساقفة الكاثوليك ، ونال احتراما وتبجيلا كلما تغلب على عدو من أعدائه . غير أنه فى اعتماده كثيرا على الكنيسة جلب على مملكته خطرا جديدا ، إذ غدا رجال هـذه الكنيسة أثر بمجلس الأمـة (الوتان) (٣) ، وتسلطوا على شئون البلاد ، ففى حين بلغ عدد أساقفة أسبانيا فى ذلك المجلس أكثر من ستين أسقفا ، كان عدد الأدواق والكونتات أقل من ذلك بكثير ، ومارس الأساقفة - وقد كانوا أكثر نشاطا وحكمة وتنظيما من زملائهم العلمانيين - تأثيرا متسلطا على المجلس ، فضلا عن أغلبيتهم المطلقة ، يضاف إلى ذلك ما تمتعوا به من تأثير روحى كبير على الملك ولعل ذلك يفسر ما حدث قبيل وفاة ريكارد ، برغم حبه التسامح والسلام ، من حركة إضطهاد عنيفة لا للأريوسيين وحدهم ، وإنما لليهود أيضا (٤) ، ولهذا حاول اليهود أن يغروا ريكارد بالأموال فعرضوا عليه مبلغا كبيرا من المال حتى يخفف عنهم وطأة الاضطهاد ولكنه رفض ، وكانت هذه الفئة قد نجحت فى التغلغل فى أسبانيا وجمع جانب كبير مـن ثرواتها والتحكم فى

(1) Lot: op. cit. p. 280
(2) Camb.Med. Hist. V. II. p. 172
(3) Oman: op. cit. p. 143
(4) Lot: op. cit. p. 282

اقتصادها وتجارتها ، وتمتعت بكثير من التسامح فى ظل ملوك القوط (١) ، لاسيما ثيودريك العظيم فى إيطاليا ، فقد بلغ من تسامحه معهم حد استخدامهم فى الوظائف المالية والإدارية ، وجمع الضرائب ، فضلا عن وظائف أخرى هامة ومراكز متقدمة فى المملكه ، ويبدو أن هذا العهد من التسامح ، قد انتهى بتحول ريكارد إلى الكاثوليكية (٢) ، على الرغم من أن تلك الاقليات من اليهود ومن الآريوسيين لم تكن تطمع حينذاك فى أكثر من الحصول لنفسها على حق الوظائف فى الدولة، والتمتع بالحرية الدينية وإقامة الشعائر الدينية الخاصة .(٣)

وبعد حكم امتد نحو خمسة عشر عاما ، توفى ريكارد سنة ٦٠١ م ، تاركا العرش لابنه ليوفا الثانى Leova II فكان المثل الوحيد فى تاريخ القوط بأسبانيا على تتابع ثلاثة أجيال من بيت واحد على العرش (٤)، وكان الملك الجديد قد بلغ العشرين من عمره حينذاك ، وأظهر إخلاصا كبيرا وتبعية كبيرة للأساقفة الكاثوليك ، ولهذا فقد أظهر كثيرا من الحنان والعطف والطيبة أكثر مما أظهر مقدرة وكفاية فى شئون الحكم (٥) ، ولعل اعتلاء مثل هذا الشاب الضعيف كان الفرصة التى ينتظرها النبلاء المتذمرون ، الذين ظلوا مدة تقرب من ثلاثين عاما مكممين تحت وطأة ضربات ليوفيجلد القويه وقبضة ابنه ريكارد الثقيلة ، فلما سنحت الفرصة بولاية هذا الشاب الضعيف انتهزوها بفارغ الصبر (٦) ،وأشعلوا

---

(1) Scurtz: op. cit. p. 3512
(2) Camb. : Med. Hist. V. II. p. 174
(3) Schurtz: op. cit. p. 3512
(4) Oman: op. cit. p. 143
(5) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173
(6) Oman: op. cit. p. 143

الثورة والعصيان وروعوا المملكة باغتيال ملكها الجديد فى السنة الثانية لولايته وأشرف على تلك المؤامرة الكونت ويترك Witterich ، الذى كان قد تزعم تمردا أريوسيا سنة ٥٨٨م على عهد ريكارد ، وعفا عنه ريكارد حين أعلن التحول إلى الكاثوليكية ، غير أن هذا الكونت قابل جميل ريكارد باغتيال ولده فى سنة ٦٠٣م(١) . وهكذا غرقت أسبانيا من جديد فى خضم الفوضى والاضطراب والحروب الأهلية ، بعد فترة من الاستقرار والقوة امتدت أكثر من ثلاثة وثلاثين عاما ، بدأها ليوفيجلد ، وإن اختلفت طبيعة الصراع فى الفترة الجديدة عن الفترة السابقة ، فغدا الصراع يدور حول المنافسة بين سلطة الكهنوت الكاثوليكى ، وبين سلطة النبلاء من القوط الغربيين ، وهو الصراع الذى حدد كثيرا سلطات الملك فى مملكة القوط بأسبانيا (٢) .

٣ - نهاية مملكة القوط الغربيين بأسبانيا (٦٠٣ — ٧١١ م) .

إذا كان بوسع الباحث أن يقدم صورة مفصلة لتاريخ مملكة القوط الغربيين بأسبانيا منذ قيامها حتى مطلع القرن السابع ، فليس بوسعه أن يدعى المقدرة على إكمال هذه الصورة فى القرن الأخير من عمر تلك المملكة ، إذ يلف الغموض بعض فترات التاريخ الأوربى ومن بينها الأعوام المائة الأخيرة من حكم القوط بأسبانيا(٣) ، وتصبح المصادر الأصلية قليلة من ناحية ، وتافهة من ناحية أخرى ، ولا يمكن الاستفادة إلا بقليل منها لإلقاء الضوء على تاريخ تلك الحقبة ، ويبدو أن الغزو الإسلامى للأندلس فى سنة ٧١١ قد تسبب فى ضياع الكتب والكتاب

---

(1) Camb. Med. Hist V: II. p. 173

(2) Lot: op. cit. p. 283

(3) Oman: op. cit. p. 221

معاً ، وعلى هذا فعهود القوط الغربيين الأواخر غامضة أو ضـائعة والمعلومات عنها قليلة ، مثل بدايات الملكيات الإنجليزية تماما ، فضلا عن أن أسبانيا افتقرت إلى مثل بيدى Bede والحوليات الأنجلو - سكسونية المعاصرة ، لإلقاء الضوء على أحداثها وإزاحة الغموض عن تاريخها حينذاك (١) ، ولهذا فنحن لا نعرف عن كثير من ملوك تلك الحقبة فى أسبانيا إلا أسماءهم ، أما أعمالهم وسياستهم فغير معروفة ، وتزداد حيرة الكاتب كلما قارب القرن السابع على الانتهاء حتى لا يصبح أمام الباحث فى بداية القرن الثامن إلا أساطـير وقصص غامضة لا يمكن الاطمئنان إليها (٢) .

انتهى بيت ليوفيجلد إذن بعد نحو أربعين سنة من النجاح ، نهاية تعسة بعد اغتيال الملك الشاب ليوفا الثانى سنة ٦٠٣ م ، وكان قاتله الكونت ويترك Witterich النبيل المتمرد الذى كان قد أعلن حركة عصيان أريوسية من قبل وعفا عنه ريكارد بتسامح لا ينطوى على حكمة أو بعد نظر ، لأن هذا الثائر عاد من جديد فكلف بيت ريكارد حق استمراره فى الحكم (٣) ، ويعتبر اعتلاء ويترك العرش ثورة ضد السلطة الملكية النامية ، التى أرسى دعائمها ليوفيجلد وابنه ريكارد ومن المحتمل أن ذلك التمرد كان احتجاجا على السياسة الدينية التى اتبعها ريكارد وابنه ليوفا الثانى ، إذ منح التحول إلى المذهب الجديد الأساقفة الكاثوليك سلطة قوية فى المملكة (٤) . ولقد حكم ويترك مدة سبع سنوات (٦٠٣-٦١٠م)،

(1) Ibid. p. 221

(3) Ibid. p. 221

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

(4) Lot , op. cit. pp. 281-2
Livermerv: op. cit. p. 59

ولم يكن بوسعه أن يحمى العرش الذى اغتصبه مدة أطول ، على الرغم من أنه دخل فى صراعات خارجية مع الفرنجة فى إكوتين ، ومع الحامية البيزنطية فى الأندلس ، ولكنه لم يحظ بأية شهرة أو مجد فى الجبهتين ، لأن الكنيسة اتخذت موقفا معاديا منه ، فى حين أهمله الكونتات والأدواق . ولم يعيروه التفاتا،ولم يأسف أحد أو يدهش حين اغتيل ويترك فجأة سنة ٦١٠ فى إحدى المناسبات، على يد بعض المتآمرين ، كما حدث لأحد أسلافه من قبل وهو الطاغية ثيوديجيزل (١) .

أختير الكونت جندمار Gundimar (٦١٠ - ٦١٢) ، بدلا من ويترك، وظهر أنه كان على رأس الجماعة المتعصبة للكنيسة الكاثوليكية ، كما وصفه بذلك أحد المعاصرين من رجال الدين ، غير أن جندمار صمم على محاولة الضرب فى الميدان الخارجى بسهم ، ومحاولة القيام بعمل خارجى يكسبه الشهرة والمجد ، فشارك فى الحرب الأهلية الفرنجية التى اندلعت فى ذلك الوقت (٢) ، حين قام ملك برجنديا بمهاجمة ملك أستراسيا ، وكان طبيعيا أن ينحاز جندمار إلى جانب ملك أستراسيا البعيد ، ضد أخيه ملك برجنديا الذى يشترك معه فى حدود سبتمانيا فى بعض مشاكل الحدود ، ولكن جندمار مالبث أن توفى فى نفس العام، الذى اندلعت فيه الحرب ، بعد نحو واحد وعشرين شهرا فقط من تتويجه سنة (٦١٢) (٣) .

---

(1) Oman: op. cit p. 222

(2) Lot: op. cit. p. 331

Heyck: "Rise of the Frankish dominion" B. H. VII. p. 3478

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 173

اعتلى الملك سيسبوت Sisbut (٦١٢ - ٦٢٠) العرش بعد جندمار ؛ وكان أميراً مرموقاً وعلى خلق ، ومثل سلفه صديقاً حميماً للكنيسة وعدواً لدوداً للنبلاء المتذمرين (١) ؛ ولم يكن محارباً كبيراً فحسب ، بل أيضاً أميراً قوطياً مثقفاً وكاتباً قديراً ، وقد بذل المؤرخون المحدثون جهداً مضنياً للعثور على كتابه المفقود ، تاريخ ملوك القوط ، دون جدوى ؛ وشاء القدر أن يحفظ من كتبه سيرة دينية بعنوان «حياة وآلام القديس دزدريوس Desiderius» وبعض الأشعار الركيكة التي مازالت متداولة ، ونعلم من بعض أصدقائه المقربين والمعجبين به أنه كان ماهراً في قواعد اللغة والبيان والبلاغة واللهجة المحلية ، وأنه شيد كتدرائية جميلة في طليطلة (٢) . ولم يكن سيسبوت مجرد عالم أو حكيم متوج فحسب ، وإنما كان محارباً فذاً ، فقد استأنف العمل الذي كان قد توقف وأهمل منذ وفاة ريكارد ، وهو طرد الحامية الرومانية الشرقية خارج الأندلس ، ونجح نجاحاً تاماً في ذلك ، فقد عجز الإمبراطور هرقل إبان محنة حربه مع الفرس عن إرسال أية مساعدة إلى أسبانيا (٣) ؛ وانتهز سيسبوت الفرصة وراح يعمل على إنجاز مشروعه ، فأخذت الموانى - على طول الساحل الجنوبي الشرقي لأسبانيا من مصب الوادي الكبير إلى مصب السوكر Suere - تسقط واحدة تلو أخرى في يد سيسبوت (٤) ، ولم يبق للامبراطورية الشرقية سوى الأملاك الواقعة إلى أقصى الغرب ، وفي أقصى زاوية الجنوب الغربي للبرتغال بما فيها قلعة لاجوس

---

(1) Lot. op. cit. p. 282
(2) Oman: op. cit. pp.222–3
(3) Ostregrosky : op, cit. pp. 83–6
(4) Camb. Med, Hist. V, II. p. 173

Lagos والقمم المرتفعة سانت فينست Cape st. Vincent [1]، وبعد الانتهاء من تأمين ساحل الأندلس شيد سيسبوت أسطولا صغيراً عبر به بوغاز الجبل (طارق) ليستخلص سبته Ceuta وطنجة Tangier من نائب أفريقيا، وفي سنة ٦١٥م عقد هرقل معه صلحاً على أساس استعادة نفوذه الشكلي في المناطق التي غزاها سيسبوت، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى نجح سيسبوت أيضاً في ترويض البسقاوية شديدي المراس فقد تقبعهم في مرتفعاتهم وجبالهم، وأجبرهم على دفع الجزية[٢].

هذا بالنسبة للميدان الخارجي، أما عن الميدان الداخلي، فقد كان سيسبوت أقل توفيقا فيه، فلكي يقدم ما يليق بالمعاونة الصادقة التي قدمتها الكنيسة، ويصبح مرضياً عنه من رجالها، استسلم كلية لرغبات الأساقفة، وبدأ في حركة اضطهاد وحشية لليهود، حتى لتعد تلك الحركة، أول محنة قاسوها على أيدى القوط الأواخر، ولا سيما أن سيسبوت كان يرغمهم على التحول إلى المسيحية بالقوة وقد تعرض من أجل ذلك للوم إيسيدور[٣]. وقد حكم سيسبوت ثمانية أعوام فقط، وكان قد احتاط للأمر قبل وفاته، فجعل مجلس الأمة يختار ابنه ريكارد الثانى ملكا، فلما توفى سيسبوت خلفه ابنه على العرش دون مضايقة، ولكن قبل أن تمضى سنة واحدة على وفاة سيسبوت لحقه ابنه ريكارد الثانى، وانتقل التاج إلى بيت جديد[٤].

---

(1) Oman: op. cit. p. 223

(2) Lot: op. cit. p. 279

(3) Ziegler : Church and state in Visigothic Spain. p. 189
Pirenne : op. cit. p. 85

(4) Lot : op cit, p. 282

كان الكونت سوانثيلا Swinthila (٦٢٠-٦٣١) الذى اختاره القوط ملكا، قائدا حربياً ماهراً ، استطاع أن يظهر فى الحرب ضد البشقاوية ، وحاز شهرة عظيمة فى تلك الحرب ، غير أنه — على عكس سيسبوت — لم يكن منحازاً إلى حزب الكنيسة ورجالها ، ولهذا كان عليه أن يواجه دسائسها ومكايدها ، طوال الأعوام العشرة التى حكمها[١] ، وكان أيضاً غير محبوب من قبل النبلاء بسبب ما أقدم عليه من تأكيد حقوق صغار الملاك الأحرار من القوط، وما يعنيه ذلك من كبح جماح النبلاء ووضع حد لغلوائهم وثوراتهم ، فقد أخذ هؤلاء يتناقصون رويداً رويداً فى خضم اعتمادهم على جيرانهم وأتباعهم ،حسب النظم الإقطاعية السارية[٢] . وكان حرصه على مصالح صغار الملاك الأحرار هو الذى منحه اسم « أبو الفقراء » وكان ولاء هذه الفئة له هو الدعامة الوحيدة التى مكنته من الاحتفاظ بعرشه تلك السنوات ، على الرغم من اتخاذ الكنيسة وكبار النبلاء جانب المعارضة له .

ولم يخل عهده من بعض النشاط العسكرى أو النجاح الحربى ، فقد استطاع أن يستولى على لاجوس Lagos وقلعة سانت فنسنت St. Vincent ، وكانا آخر معاقل البيزنطيين فى أسبانيا ، لتصبح شبه الجزيرة الأسبانية أخيراً فى يد حاكم واحد[٣] . وحقق نجاحا ثانياً أيضاً أمام البشقاوية حيث اجتاح أوديتهم الجبلية فى نافار Navarre وبسكاى وشيد قلعة أوليت Olite فيما وراء نهر الإبرو وقريباً من بامبليونا Pampeluna ليتمكن من السيطرة عليهم[٤]. غير أن

---

(1) Oman : op. cit. pp. 223—4
(2) Schartz : op. cit. pp. 3512—13
(٣) Ostrogorsky ; op. cit. p. 72
(4) Camb. Med. Hist. V. II p.175

سوانتيلا واجه أعداء كثيرين ـ لم يمكنوه من الاحتفاظ بعرشه طويلا ، فقد ثار ضده أحد الكونتات ويدعى سيسناد Sisinad ، وكان حاكما على سبتمانيا ، واستدعى ملك الفرنجة داجوبرت لمساعدته ، وعرض عليه مبلغ عشرين ألف دينار من الذهب نظير هذه المساعدة (١) ، وكانت غالة قد غدت فى ذلك الوقت متحدة تحت حكم ملك واحد وانتهت حروبها الأهلية وصار بوسع ملوك الفرنجة بعد فترة طويلة الدخول فى مطامع التوسع والغزو الخارجى (٢) ، وما أن حصل سيسناد على بعض الفرق من الفرنجة لمعاونته ، حتى عبر جبال البرانس ، وسار نحو سرقسطة Saragossa ، حيث كان الملك قد تقدم لقائه ، غير أنه لم تجر معركة أو يحتدم قتال بين الجانبين ، لأن الخيانة سرعان مالعبت دورها فى إنهاء عهد سوانتيلا ، فقد تقدم كبار النبلاء والأساقفة وقبضوا على سوانتيلا فى معسكره وقيدوه بالأغلال وسلموه إلى سيسناد (٣) ، وكان مغتصب السلطة فى هذه المرة أكثر رقة وعطفا من كثير من ثوار القوط السابقين ، لإنه اكتفى بقذف سوانتيلا فى أحد الأديرة دون أن يأمر بقتله ؛ وكان سيسناد قد وعد صديقه وحليفه الفرنجى داجوبرت أن يسلمه ، أكثر كنوز القوط فخامة وأعظمها قيمة فى الثروة الملكية ، وهو وعاء ذهبى كبير كان يعد من مفاخر الصنعة الرومانية ، ويزن نحو خمسمائة رطل، وكان تذكاراً قديماً يرجع إلى القرن الخامس الميلادى (٤) — وبر سيسناد بوعده لحليفه وسلم سفراء داجوبرت الوعاء ، غير أنه حين بدأ

---

(1) Pirenne: op. cit. p. 60
(2) Camb. Med Hist. V. II. p. 175
(3) Pirenne; op. cit. p. 60
(4) Oman: op. cit. pp. 224 – 5

الفرنجة فى حمله من أسبانيا ، أقسم كونتات القوط على أن مثل هذا الأثر العظيم والإرث المبجل لملوكهم القدماء لن يخرج من البلاد وهكذا تقدموا فأخذوه بالقوة وبعثوا بدلا منه مبلغاً كبيرا من المال قدر بنحو مائتى ألف دينار من الذهب(١)

والواقع أن سيسناد كان حاكما ضعيفا ، ما لبث أن أصبح ألعوبة فى أيدى الأساقفة ، وقنع برسوم السلطة الشكلية ، وذابت فى ظل ضعفه قوة وبريق الاسم الملكى ، وتبخرت سلطة الملوك بأسبانيا ، وضاعت أعمال كل من سيسبوت وسوانثيلا ، وأصبحت الكنيسة هى التى تحكم أسبانيا وليس الملك (٢) ، وكلما اجتمع المجمع المقدس كان سيسناد يرى راكعاً ودمعه ينهمر على وجنتيه ، يبكى خطاياه ويتوسل إلى مجمع الآباء المقدسين ويسأل الرحمة والغفران . حكم سيسناد خمس سنين فقط (٦٣١-٦٣٦) وخلفه على العرش شينتلا Chinthila (Khintila خنتلا)(٣) فكان ألعوبة جديدة فى يد السلطات الكهنوتية ولا نعرف عنه أكثر من أنه « عقد مجامع مقدسة كثيرة مع أساقفته ودعم نفوذه بمعاونة العقيدة الحقة » ، وحكم مدة ثلاث سنين فقط ، ولكن أشياعه الكنسيين سمحوا له قبل وفاته أن يتوج ابنه تولجا Tulga خليفة له . وانتهى حكم سيسناد ، على الرغم من أننا لا نعرف شيئا عن نهاية الملك نفسه (٤) . وكان تولجا أداة طيعة جديدة فى أيدى الكنسيين وحكم لمدة سنتين فقط ثم نحى عن العرش على يد بعض المتذمرين من كبار النبلاء ، الذين كرهوا تدخل الكنيسة فى الحكم وازدياد نفوذ رجال الدين فى

---

(1) Ibid. p. 225
(2) Lot: op. cit. p. 282
(3) Livermore: op. cit. p. 60
(4) Camb. Med, Hist. V. II. p. 175

المملكة ، على مدى اثنى عشرة سنة ، شملت عهود ثلاثة من الملوك الضعفاء الخاضعين الكنيسة[1] ثم أرسل تولجا إلى أحد الأديرة ،ودعا الثوار الجمعية القومية للاجتماع وجرى اختيار الكونت شنداسونث Shindaswinth بأن أجمع الكل على إختياره[2] وكان تقدمه فى السن - إذ لم يكن يقل عن تسعة وسبعين عاما - عاملا هاما فى إغراء الثوار والمتذمرين باختياره ، لما يؤملون فى ظل ضعفه من انطلاق الأيدى وحرية الحركة .

غير أنه سرعان ما أدرك النبلاء أنهم جانبوا الحقيقة فى حكمهم على شنداسونث (٦٤١ — ٦٥٢) ، إذ يبدو أن لمسة التاج على جبهة الملك قد أعادت إلى هذا الكهل شبابه وحماسته ليجد القوط أنفسهم أمام ملك من طراز ليوفيجلد وسونثيلا ، وسلطة إقطاعية بالغة القسوة فى القمع ، لا تقيم للقانون وزنا ولا ترعى حرمة فى ذلك[3] . فقد نصب شنداسونث نفسه فجأة مطالبا باسترداد الامتيازات الملكية من كبار النبلاء من جهة ، ومن المجامع المقدسة من جهة أخرى ، وهوت قبضته الحديدية على رؤوس المتآمرين بقوة ،ولاسيما أولئك الذين اغتالوا سونثيلا قبل اثنى عشرة سنة ، فجد فى البحث عنهم وأمر بإعدامهم[4] ، وفجأة أعلن معظم نبلاء أسبانيا العصيان وهرب كثير منهم إلى إفريقيا طالبين معونة النائب البيزنطى فيها ، وهرب آخرون إلى ملوك الفرنجة مستنجدين ، غير أن شنداسونث سحق

---

(1) Ziegler : Church and State in Visigothic Spain p. 101
Pirenne: op. cit. p. 52
(2) Lot : op. cit. p. 282
Livermore: op. cit. p. 60
(3) Pirenne: op. cit. p.52
(4) Omans : op. cit. p. 225

كل حركاتهم وقضى على تمردهم بقتل نحو مائتين من كبار النبلاء وأنزل خمسمائة منهم إلى الطبقة التالية ، وكان يأمر السياف بقطع رءوسهم وإراقة دمائهم وأنزل الكثيرين منهم إلى طبقة العبيد(١) ، وعندما قضى على تلك الثورات أجبر المجمع الدينى المنعقد فى طليطلة على إعلان اللعنة الكبرى على كل النبلاء الثائرين وتوقيع عقوبة الحرمان والقطع من رحمة الكنيسة على كل من يتعاون مع الثوار أو يقبل التمرد والعصيان وبذلك حقق شنداسونث أهدافه(٢) ونجح فى إقرار الأمور فى أسبانيا ، وأنزل صارم ضرباته بالمناوئين والمتآمرين وبدا وكأن البلاد قد دانت له بعد فترة طويلة من الضعف والاضمحلال(٣) ، ولهذا استتب السلام فى ربوع أسبانيا على مدى السنين السبع الأخيرة من حكمه والدليل على ذلك أنه استطاع أن يشرك معه فى الحكم ابنه ركسونث Recceswinth ، دون أن يجرؤ القوط على معارضته أو أظهار أية علامة على التململ(٤) ، وحكم الملك وابنه معا مدة ثلاث سنوات شغل ركسونث خلالها منصب الملك ووظائفه فى حين تفرغ شنداسونث لأعمال البر والتقوى ، وتميز حكمهما المشترك بواحد من أهم الأحداث فى تاريخ المملكة القوطية بأسبانيا ، وهو إتمام عملية الامتزاج والوحـــدة بين الغزاة والأهالى ، وهى العملية التى كانت قد بدأت بالتحول إلى الكاثوليكية على عهد ريكارد سنة ٥٨٧م (٥) .

---

(1) Lot ; op. cit. p. 282
(2) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 176-7
(3) Oman ; op. cit p. 226
Livermore: op. cit. p. 60
(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 177
(5) Oman; op. cit. p. 226

قوانين شنداسونث :

وقد نتج عن ذلك أن أخذ القوط والأسبان يتقاربون فى كل شىء ، ويشابه كل منها الآخر ، وقد جعل ذلك ملوك القوط يفكرون فى إخضاع الرعايا جميعا لقانون واحد (١) ، ولاسيما أن العناصر كلها أخذت تمتزج امتزاجا كاملا والأجناس يذوب بعضها فى بعض، والكونتات والأدواق من الأسبان يتكاثرون ويتعاظمون عاما بعد عام ، حتى غدوا قرب نهاية العصر القوطى يناهزون الأساقفة ورؤساء الأديرة من القوط(٢)، ولم يعد جنس واحد يستطيع احتكار السلطة الزمنية ويختص جنس آخر بشرف احتكار الوظائف الدينية والسلطة الكهنوتية(٣) ، ولهذا أزمع شنداسونث إيقاف استخدام القانون الرومانى القديم فى كل أنحاء المملكة ، وجعل جميع الرعايا يستخدمون القانون القوطى ، على الرغم من أنه أدخل كثيراً من عناصر القانون الرومانى فى قانونه ، وهكذا نشأ قانون شنداسونث(٤) . وترجع قيمة القانون الجديد إلى أنه صار الكونتات والممثلين الشخصيين للملك منذ ذلك الوقت نظاماً تشريعياً كاملا يخضع له كل السكان من الأسبان الوطنيين وفيهم رجال الكنيسة (٥) ، وقد كان الأسبان محرومين من قبل من قانونهم الرومانى ، ومن محاكمهم الخاصة . ومن قضاتهم ، وكانوا لايقلون فى خضوعهم للقانون عن خضوعهم فى النواحى الإدارية والعسكرية

(1) Pirenne: op. cit. p. 49
Altamira: op. cit. p. 81
(2) Oman ; op. cit. p. 226
(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 178
(4) Schurtz: op. cit. p. 3512
(5) Lot: op. cit. pp. 280

الكونت القوطى، وفى نفس الوقت رفع الحظر عن الزواج بين القوط والأهالى، وكان مازال ساريا ، على الرغم من الخروج عليه وكسره منذ عهد ليوفيجلد[١]. وهكذا أصبح كل رعايا الملوك متساوين أمام القانون .

توفى شنداسونث سنة ٦٥٢ ، وقد بلغ من العمر أرذله ، ونيف على التسعين عاما ، ولم يكن له نظير بين ملوك الجرمان فى عصره ، وانفرد ابنه وشريكه ركسونث بالعرش ، وكان هو أيضا متقدما فى العمر ، وحظى بأطول وأهدأ عهد حكمه ملك قوطى (٦٥٢ — ٦٧٢م) ، وعد عهده من أزهى عهود القوط وأكثرها رخاء وعظمة[٢] ، وكان ركسونث على عكس والده سنداً قوياً ومخلصاً للكنيسة ، واستطاع أن يحتفظ بعرشه إلى آخر يوم فى حياته بمساعدة الأساقفة ، لكنه سمح بتسرب السلطات الملكية من بين يديه شيئا فشيئاً ،وهى التى جهد والده فى سبيل استعادتها (٣) ، وكلما تقدم به العمر كانت سلطات الحكم تنساب إلى أيدى الأساقفة والمجامع الدينية ، بينما شغل ركسونث طوال عهده ببناء الكنائس وبذبح الذبائح ، وتقديم القرابين للقديسين ، والخضوع لرجال الدين(٤) . ولقد حفظت لنا المصادفة وحدها تاجا ذهبيا كبيراً ، مع وصف خاص له قدمه ركسونث للعذراء ، وهذا التاج يعتبر الآن درة متحف كلونى بباريس ، ويعد أحسن أثر من آثار الفن التيوتونى فى ذلك الوقت (٥) ، وتتحدث الروايات

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 51
(2) Lot; op cit. pp. 282
(3) Pirenne : op. cit. p. 85
(4) Camb. Med. Hist. V. II p. 179
(5) Oman: op. cit. p. 227

المعاصرة عن المواهب والسجايا الروحية التي منحت لركسونث ، فقيل إنه ورئيس الأساقفة هيلدفن Hildefuns كانا يتميزان وحدهما بالقدرة على رؤية طيف القديس ليوكاديا Leocadia بالعين المجردة في كتدرائية طليطلة ، ويبدو أن ذلك كله كان انعكاسا لما أظهره هـذا الملك من تقوى وورع وعطف على الكنسيين [١] . وعلى الرغم من تلاشي السلطة الملكية على عهـد ركسونث ، فإنه فيما يبدو كان قانعا بما تمتع به من سلام وتفرغ للعبادة وإظهار التقوى والورع، كما أنه لم يبد أي اهتمام بمستقبل العرش ومن يخلفه في الحكم ، ولاسيما أنه لم يعقب ، واكتفى بمـا حازه من شهرة لخلقه وورعه وبساطته إذ كان « لطيفا وبسيطا لايجد أحـد من رعاياه صعوبة في الوصول إليه ومحادثته » [٢] . حقيقة لم تظهر نتائج مابذره ركونث من بـذور الضعف والاضمحلال في السلطة الملكية إبان حياته ، ولم يقطع حبـل السلام الطويل الذي امتـد نحو عشرين عاما سوى ثائر واحـد مغمور ، إلا أن عناصر الانحلال والضعف كانت تقـوى وتشتد في كيان المملكة [٣] ، وكان النبلاء يجدون في محاولة تأكيد وتثبيت مطالبهم القديمة في الحرية الإقطاعية ، في حين كانت سلطة رجال الدين تزداد شيئا فشيئا في المملكة [٤] ، وأخيرا توفي ركسونث سنة ٦٧٢ دون أن يعقب، فتفجر من جديد صراع كبير بين النبلاء للوصول إلى العرش وانتهى الأمر باختيار وامبـا لتولي الحكم .

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

(2) Oman: op. cit p. 228

(3) Lot: op. cit p. 283

(4) Schurtz : op. cit. pp. 3512–13

ثم اختيار وامبا Wamba (٦٧٢ - ٦٨٠) ، ملكا على القوط سنة ٦٧٢ ، بعد أن أبدى تمنعا ورفض أن يحمل العبء ، لولا أن جرد أحد الأدواق سيفه عليه ، وهدده بالقتل واعتباره خائنــاً لبلاده وأمته وواجبه إذا هو تردد في قبـول المنصب ، ورفض إجابة الجمعية العمومية ، فقبل وامبا التاج وانحنى أمام قوة الإلزام وكان وامبا في مقتبل العمر ناضجاً له سمعة طيبة وسجايا حميـدة تبشر بعهد جديد في حياة المملكة القوطية (١) . والواقع أن لدينا معلومات ضافية عن عهد وامبا ، أكثر مما لدينا عن عهود أسلافه وخلفائه ، وذلك بسبب ما وصلنا من ترجمة حياته التي كتبها الأسقف جوليان Julian أسقف طليطلة ، وما تزال محفوظة حتى اليوم فنحن نعلم أنه كان قاسيا وعنيفا مع القوط ، نهج في ذلك نهج الملك شنداسونث ، وأن عهـده شهد أكثر من محاولة لاستعادة سلطات الملك الضائعة التي تهاون ركسونث في التفريط فيها ، ولهذا فقد بدأ الثوار والمارقون يتكاثرون حين بدأ الملك في تأكيـد قبضته القوية في الحكم (٢) ، كما انتهز البسقاوية الفرصة لتجريد سلاحهم ، وشغل وامبا باخضاعهم وتقبهم في جبالهم وأوديتهم الجبلية في الوقت الذي اندلعت فيه ثورة أخرى في سبتمانيا تزعمها الكونت هيلدريك Hilderic (٣) . أرسل الملك لقمع تلك الثورة جيشاً كبيراً بقيادة الدوق بولس Paulus ، وكان ضابطا تجري في عروقه دماء رومانية ، غير أنه بدلا من أن يهاجم معاقل الثوار في سبتمانيا أخذ يجري مفاضات معهم ، واستطاع أن يستميل قادته وكبار ضباطه بالرشوة والأموال وما لبث أن أعلن نفسه ملكا وسمى نفسه ملك الشرق (٤) ،

(1) Camb: Med. Hist. V. II. p. 179
(2) Oman: op. cit. p. 228
Livermore: op. cit. p. 61
(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179
(4) Oman : op. cit. p. 229

ثم بعث إلى وامبا رسالة قال فيها : « باسم الإله ... يقدم فلافيوس بولس ملك الشرق العظيم تحياته إلى وامبا ملك الغرب .. » ، وعندئذ أسرع وامبا بالانحدار من جبال البسقاوية ليلاق جيش الثوار قبل أن ينقضى أسبوع واحد على إعلان هذا التحدى ، وبدأ وامبـــا بسد منافذ البرانس فى وجه بولس ، وساق أمامه الفرق العسكرية لهذا الثائر ، ثم أسرع إلى مهاجمة ناربون عاصمة سبتمانيا ، وبعد ثلاثة أيام فقط من حصاره لها ، نجح فى اقتحام المدينة بالقوة والاستيلاء عليها ، ثم أمكن لوامبـا استعادة معظم المدن الواقعة بين البرانس ونهر الرون ، وهرب بولس للاحتماء بالأسوار القوية لمدينة نيمز (١) ، وأرسل يستنجد بالفرنجة ، غير أن الملك وامبا كان قد أسرع إليه ، وكان القوط قد اكتسبوا مهارة فائقة فى اقتحام المـدن خلال صراعهم الطويل ولاسيما إبان محاولاتهم لطـرد البيزنطيين من شبه الجزيرة (٢) ، فاستطاع وامبا بواسطة آلات الحصار المستحدثة أن يدخل نيمز فى اليوم التالى مباشرة لحصارها ، وعند ذاك لجأ بولس ولفيف من كبار أعوانه إلى مدرج رومانى وأغلقوه على أنفسهم وحولوه إلى قلعة محصنة ، ولكنهم اضطروا بعد أيام قليلة إلى الاستسلام (٣) وطلبوا الصفح والغفران من الملك ، تحت وطأة الجوع ، ووعد الملك بالحفاظ على حياتهم ، وحين سلم بولس وستة وعشرون كونتا من رفاقه أنفسهم للملك أمر بأن تنزع شعورهم ولحاهم من الجذور ويقتادوا فى موكب نصر إلى مدينة طليطلة ، حيث طيف بهم عبر شوارعها مكبلين بالأغلال حفـاة الأقدام يلبسون قمصانا من الخيش ، وفى مقدمتهم بولس

---

(1) Lot : op. cit. p. 283

(2) Omans op. cit. p. 230

(3) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

مرتديا تاجا من جلد ثبت إلى جلد رأسه العارى بطبقة لاصقة من القطران[1] ، وكان من بين رفاق بولس واحد من الأساقفة القوط وقسيس آخر من أصل رومانى ، وأربعة وعشرون من الكونتات والرؤساء من بينهم سبعة عشر من القوط وثمانية لهم أسماء رومانية . ومن الأحداث التى وقعت فى عهد وامبا أيضا قيام المسلمين فى سنة ٦٧٥ ، بمحاولة الهجوم على أسبانيا وارتدادهم أمام هجمات الأسطول القوطى وعنف المقاومة [٢] .

قوانين وامبا :

والواقع أن تلك الضربة القاسية التى أنزلها وامبا بالنبلاء ، قد ضمنت حكما هادئا لهذا الملك ، ومنحته فرصة الجلوس على العرش نحو سبع سنين (٦٧٣ — ٦٨٠ م) ، قضاها فى سلام ورخاء محاولا جهده أن يسكن آلام دولة القوط الغربيين ويؤخر انهيارها ، فقد حاولت قوانينه أن تعالج المخاطر وتسد أوجه النقص فى المملكة [٣]، وكانت طبقة صغار الملاك ، وهم الذين كان ينبغى أن يشكلوا دعامة الجيش ودرعه المتينة ، قد قاربت على الاختفاء ، ولهذا لجأ وامبا إلى إصدار مرسوم حتم فيه على العبيد والرجال الأحرار أن يلبوا النداء الحربى وأن يكونوا على أهبة الاستعداد دائماً لأداء واجبهم [٤]، وأمر أيضا أن يرأس الأساقفة أقنانهم إلى ساحة القتال ، وهى القيادة التى كان رجال الدين يكرهونها

---

(1) Oman: op. cit p. 230
Livermore: op. cit. p. 61

(2) Pirenne : op. cit. p. 155

(3) Schurtz : op. cit. pp. 351I–12

(4) Lot: op. cit. p. 283

كثيرا ، برغم أن هذه التجربة شاعت فى غضون أجيال قليلة فى أنحاء كثيرة فى أوربا ولاسيما إنجلترا وغالة وألمانيا (١) .

وعلى الرغم من كل ما أداه وامبا للمملكة القوطية فى أسبانيا ، فإنه فقد عرشه فى حادث غريب أو ربما بمؤامرة أكثر غرابة ، فقد وقع مريضا سنة ٦٨٠ م وقطع الأطباء الأمل فى شفائه ، وسقط فى غيبوبة طويلة ، وطبقا لعادة من عادات العصر ووفقاً لبعض الطقوس الدينية ، قام خدمه بإلباسه ملابس ديرية ، وقصوا شعره حتى قمة رأسه (٢) ، حتى يلتى ربه وهو « على الدين الحق » لكن قدر له قبل وفاته أن يشهد أكثر المؤمرات غرابة ، فقبل أن يلفظ أنفاسه كان إرويج أقرب الضباط إليه وموضع ثقته قد استولى على النفائس الملكية ، وأعلن نفسه ملكا . وكان إرويج ابنا لبنت أخت الملك الراحل شنداسونث ، وكان يعتبر نفسه الوارث الشرعى لخال أمه ، على الرغم من أنه لم يكن قوطيا نقياً ، فقد كان والده لاجئا بيزنطيا قربه شنداسونث وشرفه بمنحه يد إبنة أخته (٣) . ولشد ما كان فزع القصر أن وامبا العجوز لم يمت ، فقد أفاق من غيبوبته الطويلة وراح يتحسن شيئا فشيئا ، وأنه اعتقد أن بوسعه مباشرة سلطاته من جديد ، إلا أن الملك الجديد إرويج ورجال الدين فى القصر إشتركوا فى محاولة إقناعه بأنه قد أصبح راهبا ولم يعد ملكا متوجا ، وأنه لذلك لا يستطيع أن يستعيد زيه العلمانى أو سلطته الملكيه ، وتم إزال وامبا عن عرشه وانتزاع كل سلطاته (٤) ،

(I) Oman: op. cit. p. 230.
(2) Camb. Med. Hist. V. II. p 179
(3) Oman: op. cit. p. 231
(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 179

ولم يكن وامبا أكبر من خرافات عصـــره أو أوسع أفقا من معاصريه ، فقـد استسلم للفكرة وانسحب إلى أحد الأديرة حيث عاش بقية حياته حتى شاخ ، وقد شاع بعد ذلك ، أن غيبوبته الطويلة لم تكن طبيعية ، وإنما هى بفعل فاعل ، وأن إرويج أعطـاه ـ وهو على فراش المرض ـ جـــرعة منومة قوية ذهبت بوعيه ليتمكن من إكمال بقية المؤامرة ، إذ عمـد إلى إلباسه ثوب الرهبنة ، حتى يتمكن من الاستيلاء على التـاج وتم له ما أراد (١) . وكان وامبا آخـر الملوك القوط الغربيين الحقيقيين ، فقد كان للملوك الأربعة الذين جاءوا بعده مجرد ظلال وأطياف متوجة ، ولا نعرف عنهم سوى القليـل وربما لا نعرف عنهم شيئا ، لأنه بموت وامبا غاص التاريخ الأسبانى فى أكثر الفترات غموضا وابهاما (٢) .

الملوك الأواخر فى مملكة القوط الغربيين:

تولى بعد وامبا أربعة ملوك هم : أرويج Erwig (٦٨٠ - ٦٨٧ م)، وإيجيكا Egica (٦٨٧ - ٧٠١م) ، وويتزا Witiza (٧٠١ - ٧١٠ م) ، ثم رودريك Roderic (٧١٠ - ٧١١م). وليس لدينا سـوى حقائق قليلة يمكن التثبت منهـا عن الأول والثانى ، فى حين أننا لا نعرف عن الملكين الأخيرين سوى اسميهما(٣)

ففيما يختص بإرويج، فعلى الرغم من أنه بدا قويا لدرجة مكنته من الاستيلاء على العرش فإنه إفتقد الشجاعة للدفاع عن الحقوق الملكية ، وترك التاج يعود من جديد إلى الاعتماد الكلى على الكنيسة (٤) ، وهى نفس الظروف التى مر بها التاج

(1) Oman: op. cit. p. 231
(2) Lot: op. cit. pp. 283-4
(3) Oman: op. cit. p. 231
(4) Schurtz: op. cit. pp. 3512-13

على عهد كل من سيسناد وركسونث ، وكان يسيطر عليه ويحجبه جوليان أسقف طليطلة ، ولهذا بدا إرويج أبعد ما يكون عن ملك متوج ، وأقرب إلى مطران أو أسقف كنسى ،فبإيعاز من جوليان ألغى إرويج القوانين العسكرية التى سنها وامبا ، لأنها كانت تضايق الكنيسة كثيرا ، ولا تحظى برضاء رجال الدين ، كما استأنف إرويج الاضطهاد الشديد لليهود ، وهى السياسة التى صاحبت دائما اعتلاء الملوك الضعاف الخاضعين للكنيسة (١) ويبدو أن الجريمة التى ارتكبها إرويج ضد وامبا ظلت تؤرقه وتعذب ضميره ، لأنه عهد إلى ابن أخت وامبا ووريثه فى الحكم ، ويدعى إيجيكا فاختاره خليفة له فى الحكم (٢) ، وزوجه من ابنته وجعله يقسم على أن يكون رقيقا عطوفا على زوجته وأخواتها ، وحين اطمأن إرويج على مستقبل إبنتـــه وأولاده ، خلع تاجه ونحى نفسه عن الحكم وتبع وامبا إلى الدير .

غير أن إيجيكا ما لبث أن حنث بعهده بمجرد أن أقرته الجمعية العمومية ملكا، وجعـــل الأساقفة يحلونه من قسمه، وقام بتطليق زوجته ، واستولى على أملاك إخوتها أبناء إرويج وراح يتمادى فى غيه(٣) وتميز عصر إيجيـــكا بآخر وأقسى درجة من درجات الاضطهاد التى نزلت باليهود فى ذلك الوقت ، حدث فيها عنف لم تشهده عهـــود ملوك القوط الغربيين أو الكنسيين من قبل ، ووفقا لما ارتآه المجمع السادس عشر الذى عقد بطليطلة سنة ٦٩٥ م ، فقد كان يجرى القبض على كل شاب أو صبى يهودى ويباعون مع العبيد ، بينما يجرى نزع الأطفال اليهود

(1) Pirenne: op. cit. p. 85

(2) Camb. Med. Hist. V. II, p. 180
Livermore: op. cit. p. 62

(3) Oman: op. cit. p. 232

من أسرهم ويسلبون لأسر مسيحية تقوم بتنشئتهم على العقيدة المسيحية الكاثوليكية كما حرم عليهم إيجيكا التعامل التجارى مع المسيحيين (١) ، ومن الغريب أن كثيرا من اليهود تقبلوا هـذا الإجراء ، ووافقوا عليه ، فى حين لجأ الأغلبية منهم إلى الهرب إلى إفريقيـــا ، ويبدو أن السلطات الأسبانية لجأت إلى هذه الإجراءات انتقاما من اليهـــود الذين ثبت أنهم كانوا يتآمرون لتسليم أسبانيا إلى أعدائها ، ولا يلتزمون بالولاء للبلاد التى عاشوا فى كنفها (٢).

وكانت قوة فتية قد وصلت إلى قرب مملكة القوط الغربيين ، وغدت تتطلع إلى هدفها وهى قوة المسلمين الذين تغلبوا ، بعـــد نحو خمسين سنة من الحروب الضارية ، على الحكام البيزنطيين فى إفريقيا واقتحموا قرطاجنة سنة ٦٩٨ م آخر معقل من معاقل الإمبراطورية الشرقية (٣) واتهمت السلطات القوطية اليهود بأنهم الذين راسلوا المسلمين يستعطفونهم لعبور المضيق ووضع حد لحكم الأساقفة الأسبان المتعصبين ، وإنهاء شقاء اليهود ومذلتهم فى تلك البلاد (٤) وليس هناك ما يؤكد هذه الدعوة ، لأنه يمكن فهم الأسباب التى أدت إلى سقوط المملكة القوطية ، فإذا كان القوط فى أسبانيا قد عاشوا أكثر من ثلاثة أجيال بين جيران ضعاف ، حيث فرنجة غالة الضعفـــاء ونواب أفريقيا المتهالكون ، فإن الأمر قد اختلف ببروز قوة المسلمين الفتية التى كانت فى أوج حماستها وقمة اندفاعها ، ولهذا تحفزت تلك القـــوة الفتية لكتابة الفصل الأخير فى عمر مملكة القوط الغربيين بأسبانيا ،

(1) Priense : op. cit p. 85
(2) Schurtz: op. cit. p. 3512
(3) Oman: op. cit. p. 232
(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 181

دون انتظار دعوات توجه اليها القيام بهذا العمل (١).

وقدر لإيجيكا ألا يرى يوم النهـــاية ، ولا ابنه ويتزا ، الذى سماه العرب «غيطشه» وقد تولى العرش بعد والده ، وأحاط عهده غموض شديد ، حتى إننا لا نعرف عنه شيئاً بالمرة أكثر من أنه «كان معروفاً بين الناس مكروهاً من رجال الدين» (٢) أما تفصيلات أعماله «الشريرة» الأخرى فليست سوى أوهام، تمخض عنها خيال الكتاب الديريين فى القرن العاشر الميلادى ، ويبدو أن من بينها أنه أراد ان يورث ابنه أخيلا Achila العرش ، كذلك كان يعارض قرارات البابوية ويحابى اليهود . والواقع أنه لم تكتب فى عهده كتابات يمكن أن تلقى الضوء على تلك الحقبة ، وبعد سنتين من وفاته وقعت أسبانيا فى يد المسلمين ، ولم يكن ثمة مؤرخ وطنى يجرؤ على كتابة السـاعات الأخيرة لمملكة القوط الغربيين (٣) غير أنه يبدو أن هذا الملك اندفع - فى غمرة حماسه لاسترداد سلطات الملك الضائعة - فى موجة عنف شديدة كتلك التى صاحبت عهود الملوك الضعاف فقام بسمل عينى دوق قرطبة ثيودفريد Theodefred ، فحرك بذلك الحنـــق والحقد فى قلب ابن هذا الدوق «رودريك» ، الذى هرب إلى الشمال والتجأ إلى سكان الجبال هنـــاك ونجح فى جمع أشياع له هناك، تمكن بواسطتهم من الوصول إلى العرش(٤) .

وحين توفى ويتزا صغيرا تاركا اثنين من الأبناء ، لم يكن أحدهما أهلا ليلى الحكم،

(1) Schurtz : op. cit p. 3513
(2) Oman: op. cit. p. 233
(3) Oman: op. cit. p. 233
(4) Schurtz ; op. cit. p. 3513

اختار القوط الكونت رودريك ملكا عليهم (١) غير أن هذا الاسم اصبح بالنسبة لنا اسما مجردا عاريا عن كل الحقائق ، على الرغم مما ذهب إليه المؤرخون المتأخرون من أنه كان يمت بصلة نسب لكل من شندا سونت وإرويج ، وحتى إذا صح قولهم فهو بذلك يصبح خصما لدودا لبيت وامبا وإيجيكا، وسرعان ما أنزل رودريك الهزيمة بجيش أخيلا وأجبره على الفرار مع رفاقه إلى شمال إفريقية واعتلى رودريك العرش (٢) . وقد حكم رودريك لمدة ثمانية عشر شهرا فقط وحدث فى عهده أكبر حدث شهدته أسبانيا فى تاريخها، وغير مجرى ذلك التاريخ حين استولى العرب عليها ووضعوا حدا لعهد المملكة القوطية فيها ، بعد أن قضوا نحو عشرين سنة فى ترويض المغاربة والبربر ، وبعد أن دانت لهم شمال إفريقية وأذعنت القبائل الجافية لحكمهم ، اندفع الجميع فى حماسة بالغة ليفتحوا أسبانيا وينهوا عهد ملوكها من القوط الغربيين (٣).

وتحكى روايات مختلطة بعناصر أسطورية تنتمى إلى عصر متأخر، قصة غامضة تتعلق بأسباب فتح العرب لأسبانيا ، وتنحى باللائمة على رودريك ،وتجعل من سلوكه الوقح وأخلاقه السيئة سببا لما نزل بأسبانيا من محن ، إذ تذهب الرواية إلى أن رودريك كان قد اغتصب ابنة الكونت جوليان حاكم سبتة ،وتدعى فلورندا Florinda، ولهذا فقد استبد الغضب بوالدها وحقد على رودريك بسبب هذا العمل ، وقام بتسليم قلعته سبته التى كانت مفتاح المضايق ، إلى المسلمين وقام بإرشادهم عبر سواحل الأندلس وتقديم المعونة لهم ، وأدى ذلك إلى اقتحام

(I) Lot: op. cit. p. 283

(2) Camb. Med Hist. V. II. p. 183
Altamira: op. cit. p. 82

(3) Lot: op. cit. p. 284

المسلمين لغبه الجزيرة وتقويض المملكة القوطية فيها (١) ، ويبدو أن كل هـذه الأخبار لا تمت بصلة للتاريخ ، لأنه ليس هناك سبب يجعلنا نعتقد أن رودريك كان أحسن أو أسوأ من أسلافه . حقيقة نحن لا نعرف من أخلاقه شيئا بسبب ندرة أخبار هذه الفترة بالذات (٢) ، إلا أننا لا نستطيع أن نجزم أن مثل هذه الحادثة يمكن أن تؤدى إلى ما أدت اليه من نتائج، إلا إذا أخذنا فى اعتبارنا ما كان جاريا من استعداد فى شمال إفريقية منذ فترة لغزو شبه الجزيرة ، فضلا عما كانت تعانيه دولة القوط الغربيين بأسبانيا من ضعف واضمحلال ، بسبب المجاعات والأوبئة والاضطرابات الداخلية والنزاعات السياسية بين الأحزاب فيها (٣) ، وأقرب إلى الحقيقة ما حدث من نفور بين كبار النبلاء وأعوان وأقارب الملك ويتزا ، فقد هرب عدد من هؤلاء إلى معسكر موسى بن نصير بشمال إفريقية ودعوه لمحاربة رودريك(٤).

هـذا كل ما وصلنا عن الثمانية عشر شهرا التى قضاها رودريك فى الحكم وانتهت بنزول المسلمين إلى سواحل شبه الجزيرة فى Calpe ، وقد عرفت فيما بعد باسم «جبل طارق» نسبة إلى قائد الجيش الإسلامى (٥)،وحين علم رودريك بانسياب المسلمين فى الأندلس ، جمع جيشه وكان بغير شك يتكون من قليل من الكونتات الأغنياء وبعض الأساقفة ، على رأس حشد من أتباعهم الانطاعيين

(1) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 183–4
(2) Oman : op. cit. p. 233
(3) Altamira: op. cit. pp. 82
(4) Schurtz: op. cit. p. 3513
(5) Ibid; p. 3514

وأقنانهم حسب ما جاءت به قوانين واميا. ولم يكن جيش القوط حينذاك بقادر على مقاومة المسلمين أكثر مما قاومت الفرق البيزنطية بشمال إفريقية(١) ، ولهذا حين التقى الجانبان على ضفاف نهر Guadalete قرب مدينة سيدونيا Sidonia ، أحرز طارق بن زياد نصرا حاسما على قوات رودريك ، وانتهى أمر هذا إلى القتل أو الغرق فى مياه النهر ، على ما ذهبت إليه بعض الروايات ، وتشتت الجيش القوطى ، وأصبح المسلمون سادة أسبانيا(٢) وفى أقل من سنتين (٧١١-٧١٣) نجح طارق وموسى بن نصير فى إخضاع كل المنطقة ، وسقط فى أيدى المسلمين كثير من المدن مثل قرطبة ومريدا Merida وسرقسطة ، وهذه الأخيرة أبدت بعض المقاومة ، ثم استسلمت فى النهاية (٣) ، وإبان ذلك كله لم يحاول القوط تنصيب ملك جديد أو التجمع بغية إحداث مقاومة جديدة ، ولم يبق فى سنة ٧١٣م بأسبانيا سوى ركن واحد لم يسلم ولم يذعن للغزاة ، وهو الساحل الجبلى لخليج بسكاى ، حيث كان البسقاوية يربضون (٤) وكذلك السكان من الأشترياس ، الذين كانوا يحاولون الحفاظ على حريتهم ويحميهم غموضهم وتطرفهم من ناحية ، ووعورة المسالك إلى بلادهم من ناحية أخرى ، أكثر مما كان يحميهم عجز المسلمين عن إتمام غزوهم(٥)

وفى النهاية ليس من الصعوبة بمكان معرفة الأسباب التى أدت إلى انهيار المملكة القوطية بأسبانيا فلم يكن الملوك يختارون من أرومة ملكية واحدة ، وإنما

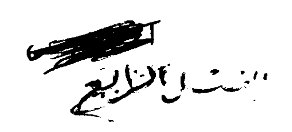
---

(1) Oman: op. cit. p. 234
(2) Lot: op. cit. p. 284
(3) Pirenne: op. cit. pp. 155-6
(4) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 186-7
(5) Oman: op. cit. p. 234

خضع ذلك فى أغلب الأحيان للمصادفة البحتة، وقد أدى ذلك إلى اعتلاء ملوك ضعاف لا يرجى إصلاح على أيديهم ، بل خضع بعضهم خضوعا تاما لرجال الدين وأصبحوا ألعوبة فى أيدى الكنسيين (١) فضلا عن أن كبار النبلاء كانوا غير أهل الثقة، إذ واصلوا الشغب ورفعوا راية العصيان وسببوا إزعاجا شديدا للسلطات الحاكمة فى كثير من الأحيان ، وزادوا فى ضعف المملكة واضمحلالها (٢) ، فى حين اختفت طبقات صغار الملاك الأحرار ، وأصاب الخلل البناء الاجتماعى فى مملكة القوط الغربيين، ولم يعد هنالك ما يدعو جموع الأقنان إلى التعلق بسادتهم الطغاة أو الإخلاص لتلك المملكة الإقطاعية الطبقية ، كما ضمت المملكة مساحات شاسعة من الأراضى كانت تحت حكم رجال الدين فغدت بمرور الوقت مصدرا لكثير من الشغب والتمرد (٣) وإذا أضفنا إلى ذلك أن الفترة الأخيرة من عهد مملكة القوط الغربيين بأسبانيا شهدت نزاعا مستحكما بين النبلاء على العرش وواجهت مشكلة إدماج العناصر الخاضعة لها والتأليف بينها ، علمنا أن أمر هذه المملكة كان حتما إلى زوال . وهكذا سقطت المملكة قبل أن يطأ الغزاة الأقوياء أرض أسبانيا فعلا ، وانهارت سلطتها قبل أن يضع المسلمون أقدامهم فى شبه الجزيرة ، حتى يمكن القول أنه لو لم يعبر المسلمون المضايق إلى أسبانيا لكان من من المحتمل أن تصبح أسبانيا إقطاعا لمملكة الفرنجة تحت حكم رؤساء البلاط الأقوياء ، أو تحت حكم شارل العظيم (شارلمان)(٤) .

---

(1) Ibid : p. 234
(2) Lot : op. cit. pp. 281-2
(3) Schurtz : op. cit. pp. 3512-13
(4) Oman : op. cit p. 234
Schurtz : op. cit. p. 3512



مملكة الوندال بشمال إفريقية

جيزريك وفتح شمال إفريقية — مواهب جيزريك وسجاياه — سياسته المالية والدينية تجاه السكان — ثورات الأهالي ضده — السنوات الأخيرة فى عهده — إعتلاء هونريك العرش — طغيانه واضطهاده الكاثوليك — جونثاموند — ثراساموند — هلدريك وإنهاء عهـــد الاضطهاد الكاثوليك — جليمار وتداعى المملكة حملة جستنيان لاسترداد الولاية — انتصار بلزاريوس — سقوط قرطاجة — استسلام جليمار — نهاية مملكة الوندال بشمال افريقية

كان قيام مملكة الوندال بشمال إفريقية يتصل بالإمبراطورية الشرقيـة ، أكـثر مما يتصل بغيرها ، فإذا كان قيام ممالك جرمانية أخرى له صلة بأحـداث الغرب، فإن ظهور مملكة الوندال بشمال إفريقية، كان يتصل اتصالا مباشرا بالإمبراطورية البيزنطية (١) ، نظرا لما كان لهذه الولاية من أهمية خاصة فى سياسة أباطرة الشرق ولما أبدته بيزنطة من اهـتمام خاص بتلك المنطقة بالذات.

جيزريك وتأسيس المملكة (٤٣٩-٤٧٧م):

وكان جيزريك Gaiseric أو جنزريك Genseric - كما سماه الرومان أحيانا أول ملوك الوندال بشمال إفريقية ، وظل يباشر حكمه من قرطاجـــه ، مدة ثمانية

(I) Oman; op. cit p. 6

وثلاثين عاما(١) ويعتبر جيزريك من أوائل ملوك الجرمان الذين أظهروا اهتماما خاصا بالبحرية والأسطول ، فقد نجح في فرض سلطانه وحماية سواحل مملكته، وحاز قوة بحرية فعالة في الجزء الأوسط من البحر المتوسط (٢) ، بعد أن عمد إلى تجنيد جماعات كثيرة من الأهـــالي وسكان المناطق المجاورة واستخدم أهل جبال أطلس في أسطوله البحري (٣) . فعلى الرغم من أن قبيلته كانت أقل القبائل الجرمانية عددا ، إذ لم تتعد الثمانين ألف نفس من الرجال والنساء والأطفال حين بدأت تغزو إفريقية لأول مرة (٤) فإن الوندال نجحوا في تأسيس مملكة بشمال إفريقية ، وفرضوا استقرارهم بذلك الإقليم الهام ، حتى يعد هذا العمل من أهم الأعمال التي أنجزتها الهجرات الجرمانية الكبرى وأكثرها براعة ، ويجب أن يعزى الفضل الأكبر في ذلك للملك الوندالي جيزريك (٥) . إذ كان على مثل هذا الجيش الصغير أن يغطي رقعة كبيرة من الأرض ، ويعمر إقليما طوله نحو ألف ميل، ويؤمن سواحل المملكة الطويلة المقابلة لسواحل الإمبراطورية الغربية فليس ثمة شك في أن هذا العمل كان من الإنجازات العظيمة والقدرات الجبارة للملك جيزريك(٦) .

ومن الغريب أن هذا الملك لم يكن كبقية زعماء القبائل الجرمانية من ناحية

(I) Camb. Med. Hist. V. I. p. 307
(2) Oman: op. cit, p. 7
(3) Lot: op. cit. pp. 257–8
(4) Gautiet : Genseric p. 97
Pirenne: op. cit. p 36
(5) Ostrogrosky : op, cit. p. 57
(6) Oman; op. cit. p. 7

مقاييس البطولة الجسمانية ، أو التميز بشدة المراس فى الحرب ، لأنه كان معتدل القوام ، لا يتسم بمقدرة جسمانية خاصة ، فضلا عن عاهته التى عاش بها بقية حياته ، وهى العرج الذى أصيب به فى شبابه على أثر سقوطه من فوق جواد جامح (١) ، غير أن هذا الملك الأعرج استمد مقومات نجاحه من قدراته العقلية الهائلة ، وحازمكاته وهيبته من نضج عقله وصفاء ذهنه ، فلم يكن مجرد قائد حربى شهير ، بل كان كذلك سياسيا ماهرا ومخططا عظيما (٢) ، حقيقة كان وثنيا لا يتورع عن ارتكاب أكثر الأعمال وحشية وهمجية ، ولكنه كان يقرن ذلك دائما بشىء من الحزم ، مع تبصر بالعواقب ، واتباع لأفضل الطرق للوصول إلى أهدافه ، ولو التوت تلك الطرق ، وتميزت بأكثر الأعمال غدرا وخبثا وخيانة (٣) ، ونحت نحو تدبير المؤامرات ونسج الأحابيل ، ولهذا كان جيزريك أحد النماذج الفريدة فى العنصر التيوتونى ، وتركت أعماله الوحشية أثرها فى تاريخ اللغة ذاتها ، حتى أن كلمة الوندالية Vandalism تعنى فى اللغة الحديثة الوحشية (٤) فقد عانت إيطاليا وإفريقية على يديه معاناة تركت فيهما آثارا عميقة — أكثر مما تركته أى مصائب نزلت بهما ، على يد غيره من الغزاة لما تميزت به أعماله فيهما بالغدر والخيانة والوحشية (٥) . وإذا قارنا جيزريك بغيره من العتاة ، فإن آلاريك القوطى يبدو بجانبه نموذجا معتدلا فى الرحمة والتلطف ، كما يبدو أتيلا الهونى قويا سويا دون إسراف فى الهمجية ، مع ما عرف عنهما من شدة البأس

(1) Camb. Med. Hist. p. 135
(2) Pirenne; op. cit. pp. 47–8
(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 306
(4) Oman; op. op. cit. p. 7
(5) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 309–8

ومبالغة في القسوة والتدبر (١) ، وتتضح نقائص جيزريك وسوء أعماله في المعاهدات والهدنات الحربية التي كان يبرمها وليس في عزمه الإلتزام بها أو المحافظة على شروطها ، فضلا عن أعمال القرصنة الوحشية التي مارسها (٢) ، وما أظهره من عدم اكتراث في تبرير هجماته وإغاراته الوحشية ، اللهم إلا أن تكون المدينة أو العمارة البحرية التي يهاجمها ليست في وضع يمكنها من الدفاع عن نفسها ، لهذا أصبح الوندال في ظل جيزريك قوة بحرية هائلة واستولوا على صقلية وسردينيا وكورسيكا وجزائر البليار ، وهاجموا سواحل إيطاليا وأغاروا على روما سنه ٤٥٥ م (٣).

واقد سلك جيزريك في سياسته تجاه الأهالي أكثر النماذج كرها ومقتا لديهم ولا سيما فيما يتعلق بجمع الضرائب، وفي السياسة الدينية ، فقد اتخذ أكثر النظم تعسفا وجورا في الأمور المالية، وأشد مظاهر السياسة تعصبا في الأمور الدينيه (٤) ولم يلجأ جيزريك إلى نظام تقسيم الأراضي إلى ثلاثة أقسام ، وهو النظام العادل الذي اتبعه أدواكر في إيطاليا، بل أباح كل الأراضي الشاسعة لكبار الملاك الإفريقيين ، وحولها إلى أملاك ملكية يحتويها نبلاؤه والمقربون اليه . أما الجزء الصغير الباقي الذي يمتلكه الأهالي ويقومون بزراعته ، فقد امتلك جيزريك أجود جزء منه وجعله ضمن إقطاعات عسكرية منحها لأتباعه الجرمان (٥) ، غدت أملاكا

---

(1) Oman: op. cit. p. 8

(2) Pirenne: op. cit. p. 29

(3) Helmolt : "Mediterranean in the middle ages" in B. H. V. V. p. 2388

(4) Lot: op. cit. p. 248

(5) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 316—17

وراثية معفاة من كل الضرائب وسميت Sortes Vandalorum ، فى حين ترك الجزء الآخر بيد الأهالى ، وفرض عليه ضرائب باهظة جباها فى قسوة بالغة ، حتى إن الدخل الملكى كان يأتى كله تقريبا من الضرائب المفروضة على الفقراء وبما يدفعه الملاك الصغار الذين لم تنزع منهم أملاكهم(١).

وعلى الرغم من هذه السياسة المالية الجائرة ، وما أظهره جيزريك من فظاظة فى جباية الضرائب فقد كان أكبر أسباب كراهيته تعصبه الدينى ، إذ كان الوندال مثل بقية عناصر الجرمان ، يعتنقون الآريوسية حين دانوا بالمسيحية (٢) ، فقرر جيزريك أن يرغم رعاياه على اعتناق الآريوسية ولهذا بدأ موجة اضطهاد عاتية ضد الكاثوليك ، استباح فيها الكنائس الكاثوليكية ،وسلم بعضها للآريوسيين ودمر بعضها الآخر ، وحرم رسامة أساقفة كاثوليك جدد(٣)، ونكل بفريق منهم وزج بالفريق الآخر فى السجن ، وعمد إلى قتل بعض أقطاب المذهب الكاثوليكى ودعاماته البارزة،وسجن البعض الآخر ، وسطر هو وشعبه بتعصبهم الأعمى صفحة قاتمة فى تاريخ تلك البلاد .

ولقد تسبب هذا التعصب الدينى الممقوت ، فى جعل الحكم الوندالى غير مستقر فى إفريقية ولا سيما أن الوندال كانوا قليلى العدد بالنسبة للأراضى الشاسعة التى احتلوها والشعب الكبير الذى أخضعوه ، حتى بعد أن جذب جيزريك كثيرا من المغامرين إليه وضم بعض المغاربة والبربر العمل فى بحريته(٤) ، ولهذا لم تستقر

---

(1) Pirenne; op. cit. p. 48
(2) Oman: op. cit. p. 8
(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 311
(4) Oman: op. cit. p. 9

الأمور لهم هناك ، وكان طبيعيا ألا يستسلم الإفريقيون ، لتاج التزاوج بين الدوناتيين المشاغبين وغيرهم من السكان،أمام جور سادتهم الجدد ، فاذا كانوا قد سكنوا فترة ، فإن ذلك لم يكن دليل استكانة أو استسلام ، لأنه حين لاحت لهم الفرصة انتهزوها ورفعوا راية العصيان ، حدث ذلك مرتين خلال حكم جيزريك نفسه،وفى كلتا المرتين انتصر الوندال على الثوار بدهاء جيزريك وسرعة بديهية(١) ، حينما كانت الظروف كلها فى غير جانبه ، ففى سنة ٤٦٠ م،ففى حشد الإمبراطور ما جوريان Majorian أسطولا قويا فى قرطاجنة وبدأ فى جمع جيش كبير لإرساله عبر البحر إلى شمال إفريقية فى الوقت الذى تحفز فيه الأهالى للقيام بالثورة ، غير أن جيزريك علم بهذه الاستعدادات من بعض جواسيسه من الخونة الرومان ، فأسرع بمهاجمة السفن قبل أن تشحن بالمقاتلين أو تتهيأ لها الفرصة لخوض الحرب ، ونجح فى أسر بعضها وحرق البعض الآخر وفى نفس الوقت التفت إلى إخضاع الأهالى بالقوة ، ثم مالبث الإمبراطور ماجوريان أن اغتيل فجأة فى أسبانيا سنة ٤٦١(٢) ، فتخلص جيزريك من خطر داهم هدد مملكته قبل أن يطل برأسه . وفى سنة ٤٦٨م وحد إمبراطور الشرق ليو الأول (٣) وإمبراطور الغرب أنثيميوس Anthemius قواتهما ليقتحما وكر القراصنة فى قرطاجة ، وأرسلا جيشا إلى إفريقية قيل إنه بلغ نحو مائة ألف رجل ، ونجح هذا الجيش فى اجتياح كل الإقليم مابين طرابلس الغرب وأبواب قرطاجة،وتلقاه الأهالى بالفرح والحبور وبدا ان المملكة الوندالية أشرفت على الزوال وقاربت نهايتها فى تلك البلاد ، إلا أن شجاعة جيزريك تجلت عند ذلك وبرز دهاؤه

(1) Camb. Med. Hist. V I. pp. 309–10
(2) Pirenne: op. cit. p. 30
(3) Ostregorsky: op. cit. p. 64

ساعة الخطر ، فقد أغوى القائد الرومانى وخدعه ، وتقدم إليه يطلب مهلة خمسة أيام لتوقيع شروط التسليم ، ووافق القائد الرومانى الساذج ، ومنحه الهدنة التى طلبها (١) ، فأرسل جيزريك سفنه الحربية ليلا لتهاجم السفن المعادية ، وبينما شغلت السفن الرومانية بحماية نفسها وحاولت النجاة من الدمار ، إذا بجيزريك نفسه يهاجم المعسكر الرومانى ، وقد خلا من الحراسة ، فأنزل به هزيمة قاسية وانتزع نصرا عزيزا من قوات تفوقه عددا وعدة ، وأجبر القائد الرومانى على سحب فلول جيشه ، وأنقذت مملكة الوندال بهذه الخدعة (٢).

وقد حفلت السنوات العشر الأخيرة من حكم جيزريك بإغارات قرصانية متعددة ضد إيطاليا وصقلية دون أية مقاومة من الأباطرة الصغار، الذين حكموا روما ورافنا فى ذلك الوقت ، وكانوا مجرد أطياف ملكية واهية ومجرد أسماء جوفاء لا سلطة لها ولا قوة (٣) ، وشهد جيزريك نهاية الإمبراطور الصغير رومولس أغسطلوس سنة ٤٧٦ ، وعاش بعدها فترة استطاع فيها ان يعقد اتفاقية مع أدواكر سيد إيطاليا الجديد ظهر الوندال من خلال بنودها أكثر شراهة للمال من شراهتهم للأرض ، لأن جيزريك قبل بمقتضى تلك المعاهدة أن يوقف فتوحاته فى صقلية مقابل إتاوة سنوية يدفعها الملك الجديد (٤) ، كما اضطر الإمبراطور الشرقى زينون إلى الاعتراف بمملكة الوندال فى نفس العام الذى شهد نهاية حكم الإمبراطورية الغربية ، وجرى ابرام صلح مع ملكها استمر أكثر

(I) Oman: op. cit. p. 9

(١) موس: ميلاد العصور الوسطى ص ٣٧ ؛

Lot: op. cit. p. 258

(3) Camb. Med. Hist. V: I. p. 308

(4) Oman: op. cit. p. 10

من نصف قرن من الزمان(١).

توفى جيزريك سنة ٤٧٧م فاضمحلت بموته مملكة الوندال، على الرغم من أنها عاشت بعد ذلك أكثر من خمسين عاما، وترك جيزريك خلفه أسطولا عظيما وكنوزا هائلة وقصرا غاصا بالمنهوبات كان قد سلبها أثناء إغارته الكبرى على مدينة روما سنة ٤٥٥م(٢)، غير أن مملكة الوندال ظلت غير مستقرة على عهد خلفاء جيزريك، فقد حفظ لها هذا العاهل العظيم وحدتها وتماسكها، وكفل لها الحماية بحكمته السياسية ومكره ودهائه، وحين اختفى من مسرح الأحداث لم يعد ثمة ما يحول بينها وبين نهايتها(٣)؛ فقد كان جيزريك بحكم خوفه من ثورات الأهالى قد جرد كل مدينة من أسوارها وبواباتها باستثناء قرطاجة، فأصبح الأمر خطيرا عند خسارة أية معركة إذ تصبح المدن كلها مهددة عند أى هجوم، ولم يكن الهجوم بعيدا، فقد تحفزت الأخطار من حول المملكة لتنتقم لمعاناة ثلاثة أجيال منكوبة تعرضت للظلم والجور على يد الوندال، ولا سيما بعد أن ضعفت المملكة بوفاة ملكها القدير جيزريك(٤).

اعتلى هونريك Hunneric (٤٧٧ — ٤٨٤م) العرش بعد والده، وكان رجلا متقدما فى العمر، وكان مثل والده أريوسيا متعصبا، بل شديد التعصب وكان متزوجا من ايدوكيا Eudocia ابنة الإمبراطور فالنتيان الثالث(٥) التى

---

(1) Lot: op. cit. p. 211

(2) Pirenne: op. cit. p. 30
Gautier : Genseric. pp. 233—5

(٣) Ostregorsky ; op. cit. p. 64

(4) Diehl ; L' Afrique byzantine. p. 3

(5) Lot: op. cit. p. 257

أسرت أثناء الإغارة على روما سنة ٤٥٥ ، وعلى الرغم من السنوات الطويلة التى عاشها مع تلك الأميرة الكاثوليكية ، فإنه لم يتأثر بها أو يأخذ عنها أى لون من ألوان الحضارة الرومانية ، كما أنها بدورها لم تستطع أن تؤثر فيه أو تحوله عن عقيدته الاريوسية إلى العقيدة الكاثوليكية ، وبعد حياة زوجية غير سعيدة امتدت إلى ستة عشر عاما ، أنجبت خلالها ولدين ، لم تستطع الاستمرار معه ، فدبرت الهرب سرا من قرطاجة إلى بيت المقدس ، ثم توفيت فى المدينة المقدسة ناجية بعقيدتها ، التى لم تتخل عنها طوال تلك السنوات التعسة (١).

وكان هونريك طاغية من الدرجـــة الأولى ، ولم يكن طغيانه قاصراً على شعبه ورعاياه ، بل تعدى ذلك إلى أفراد أسرته (٢) ، وكان جنزريك قد لجأ إلى طريقة جديدة فى ولاية العهد أراد بها أن يجنب المملكة التجزئة والتفتت ، فقرر ألا يخلف الملك الوالدالى أقرب الاقارب إليه ، ولكن يخلفه أكبر هؤلاء الاقارب سنا ، وكان مثل هذا النظام شائعاً بين القبائل التيوتونية ، غير أنه كان لهونريك فى ذلك الوقت ولد بالغ يدعى هلديكات Hildecat ، عزم على عقد الولاية له وجعله يخلفه فى الحكم ، ولكن هذا الأمير كان على ما يبدو أصغر سنا من إخوة الملك ، فبدلا أن يلجأ إلى تعطيل قانون والده ، خطط هونريك لإفناء إخوته وقتلهم مع كل أبنائهم ، باستثناء اثنين من الشبان هما ابنـــا أخيه الثانى جينزو Genzo ، فقد أنقذا أنفسهما بالهرب فى الوقت المناسب (٣) .

ولم يخاطر هونريك – خـلال فترة حكمه التى امتدت نحو سبع سنين – بشن

(1) Oman: op. cit. p. 11

(2) Camb.Med. Hist. V. I. p. 312

(3) Oman : op. cit. p. 11

حرب أول إرسال أسطول للقيام بإغارات سلب أو نهب ضد ممالك الغرب ، ولهذا لم تتعرض مملكة ، إيورك القوطى الغربى ، أو مملكة أدوا كر فى إيطاليا للتدمير أو التخريب على يديه ، لأنه فيما يبدو تركها وشأنها وصرف جهوده للقيام بحركة اضطهاد شديدة للكاثوليك فى مملكته(١) ، حتى لقد أعلن الكاثوليك أن هونريك تسبب - منذ بداية عهده إلى نهايته - فى موت نحو أربعين ألف شخص، وهو رقم يبدو مبالغاً فيه كثيراً لدرجة تجعلنا نشك فى حقيقة هذا الاضطهاد نفسه ، إذ يقال إن هونريك كان مغرماً ببتر الأيدى وفقء الأعين وقطع الألسن، أكثر من غرامه بالقتل بالسيف أو الشنق ، ولكن ليس هناك شك فى أنه عاقب الكاثوليك فى حالات كثيرة بأقصى العقوبات (٢) .

وبينما شغل هونريك بهذه الأمور ، اندلعت الثورات ضده فى كل مكان ، فثار عليه مغاربة جبل أطلس ، والأهالى المتحدثون باللاتينية ، يدفعهم يأسهم ويحدوهم الأمل فى إنهاء ذلك الشقاء ، فتخطوا الحدود الجنوبية للمملكة ، واندفعوا داخل نيوميديا ، وحينما أخذ الملك يعد العدة لمهاجمتهم داهمته المنية ، ثم توفى مريضاً مبتلى على ما ذهبت إليه بعض الروايات الكاثوليكية المعاصرة التى ذكرت أنه ابتلى بمرض شنيع تسبب فى وفاته فى ذلك الوقت الحرج (٣) . ومن الغريب أن ابنه الوحيد هلديكاف ، الذى ارتكب من أجله كل تلك الجرائم وسفك فى سبيل تسليمه الحكم كثيراً من الدماء ، كان قد توفى قبل وفاته هو ، فرفع الوزراء إلى العرش ابن أخيه جونثاموند وكان ما يزال على قيد الحياة بعد

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 312

(2) Oman: op. cit. p. 11

(3) Ibid. p. 12

مذابح هونريك الرهيبة ، فأظهر هذا الملك الجديد كثيراً من العطف على الكاثوليك وبدأ فترة جديدة فى حياة المملكة الوندالية (١) .

بدأ جونثاموند Gunthamund عهده بإظهار شيء من الرحمة والعطف على أبناء عمه هونريك الصغار ، فألقى بهم فى السجن بدلا من قتلهم ، فضلا عما أظهره من مودة تجاه الكاثوليك ، وفى نفس الوقت لم يستطع أن يخاطر بنزاع مع الممالك المجاورة والقريبة ولاسيما مملكة ثيودريك العظيم بإيطاليا ، لأن مملكة الوندال كانت حينذاك تعانى آلام الموت البطيء وتمضى فى طريق الزوال (٢) . وأخذت تفقد فى كل يوم بعض أراضيها وأملا كها لتئول إلى أيدى المغاربة وثوار جبل أطلس، بينما انهمك جونثاموند فى كسب رضاء الكاثوليك والسماح لهم بإعادة أساقفتهم المنفيين ، وفتح كنائسهم من جديد (٣) ، ولكن هذه السياسة لم تحل دون استمرار رعاياه فى ثوراتهم ، ففى عهده غزا المغاربة كل منطقة الساحل فيما بين طنجة Tangiers وقيصرية ، واستولوا على تلك المنطقة وزادوا ضعف المملكة واضمحلالها (٤) . وتوفى جونثاموند سنة ٤٩٦م ، وهو يجاهد فى محاولة حفظ كيان المملكة والاستمرار فى السياسة الدينية الجديدة التى خالف بها سياسة ملوك الوندال من قبل .

تولى ثراساموند Thrasamund العرش بعد أخيه جونثاموند (٤٩٦ ٥٢٣م) ، وكان ثراساموند متقدما فى العمر ، ويختلف عن أخيه الراحل فى

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 312
(2) Diehl: L'Afrique byzantine p. 3
Lot : op. cit. p. 257
(3) Oman: op. cit. p. 28
(4) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 312 – 13

كثير من الأوجه ، فقد حاول تجربة السياسة المضادة بالعودة إلى الاضطهاد والتنكيل بالكاثوليك ، ونفى نحو مائتين من الأساقفة الكاثوليك إلى سردينيا ، وجدد أيام الرعب التى شهدتها البلاد على عهد هونريك (١) . ومن البديهى ألا يكون هذا الملك الجديد أكثر حظا فى تعامله مع الثوار من سلفه ، ولعل فى ذلك يكمن السبب فى امتناعه من الدخول فى أى صراع أو حروب خارجية ، لأن نزاعا كبيراً أو حربا مع ملوك الغرب ولاسيما ثيودريك العظيم تعنى تدمير مملكة الوندال وخرابها ، وكان ثيودريك العظيم قد زوج أخته أمالا فريدا Amalafrida - وهى أرملة فى مقتبل العمر - من ملك الوندال ثراساموند الذى كان يكبرها فى السن ، ومع هذا فقد حاول ثيودريك أن يزيد من فاعلية هذه المصاهرة ، فعامل ثراساموند على أنه أخ أصغر له ، إن لم يكن تابعا إقطاعيا له (٢) ، وحين جرؤ الوندال على تقديم بعض المساعدة لثائر فى غاليسيا ضد قوط أسبانيا ، غضب ثيودريك وفرض على ثراساموند الجزية ،وأمره ألا يفعل شيئاً فى المستقبل بدون أن يستشير زوجته أمالا فريدا ولم يظهر ثراساموند أى امتعاض لهذه الأوامر ،بل إنه أخذ بعد ذلك يفعل كل ما فى وسعه ليسترضى صهره (٣) . وتوفى ثراساموند سنة ٥٢٣م وهو فى أرذل العمر ، وقيل انه توفى حزنا على أثر سماعه الأنباء السيئة بالهزيمة التى تعرض لها جيشه على يد المغاربة ، وخلفه ابن عمه هلدريك (٥٢٣ - ٥٣٠م) .

تولى هلدريك Hilderic العرش سنة ٥٢٣ ، وهو ابن هونريك من

---

(1) Ibid. p. 313

(2) Oman; op. cit. p. 28

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 313

زوجته الرومانية أيودوكيا ، فكان آخر وريث أو سليل من أبيت ثيودسيوس العظيم(١) ، وكان هلدريك أول ملك كاثوليكى من ملوك الوندال ، وهو الذى أنهى الاضطهاد الطويل الكاثوليك فى إفريقية وذلك لأنه كان قد تربى وتعلم على يد أمه الكاثوليكية . غير أن فترة حكمه لم تكن أسعد من فترات حكم أبناء عمومته، إذ تسببت حماسته الطاغية الكاثوليكية ، فى صدامه مع أكبر أحزاب الوندال حجما ، وهاجمه الحزب الثائر الذى رأسته أمالافريدا ، أخت ثيودريك العظيم . والتى كانت تطمع فى أن يلى العرش أحد أبناء إخوة زوجها الراحل ، غير أن هلدريك نجح فى إلحاق الهزيمة بالثوار وأسر أمالافريدا وسارع بايداعها أحد السجون المظلمة غير عابىء بغضب وحنق ثيودريك فى إيطاليا ، وذلك سنة ٥٢٣ م (٢)، ولقد اقتصر الأمر طوال السنوات الباقية من حياة ثيودريك على مجرد حبسها ، لكن فى اللحظة التى علم فيها هلدريك بوفاة ثيودريك العجوز سنة ٥٢٦م، أظهر قسوة متناهية مع هـــذه السيدة المسنة ، حين أمر بقتلها ، فارتكب بذلك عملا مشينا وجـــريمة بشعة لطخت تاريخ الوندال وزادت من مساوئهم بشمال إفريقيـة (٣) .

ومع أن هلدريك كان مسنا فإنـه لم يكن محنكا أو بارعـا فى شئون الدولة . حقيقة كان كاثوليكيا مخلصا ، ورث عن أمه الرومانية « العقيدة الحقـة » ، إلا أن هذه العقيدة قوبلت من رعاياه الآريوسيين بكره شديد ، وكانت سببا فى كثـير من المصاعب التى لاقاها خـلال فترة حكمه ، ولاسيا أنه أقدم على جريمته البشعة

(1) Lot: op. cit. p. 247
(2) Oman : op. cit. p. 29
(3) Camb. Med. Hist. V. I, p. 314

المشار إليها . وعلى الرغم من قصر مدة حكمه إذ لم تزد على سبعة أعوام فقد ترك أثراً بعيداً في مملكة الوندال في كل الأوجه (١) ، ولم يصادفه النجاح المطرد في حروبه ، فقد أجهز مغاربة أطلس على جيش كامل أرسله لمحاربتهم ، وقطعوه إرباً إرباً ومدوا غزوهم إلى أبواب قرطاجة (٢) ، ويبدو أن اعترافه الصريح بالكاثوليكية ورفعه الكاثوليك إلى أعلى المناصب ، كان المصدر الأكبر للقلاقل والفتن في عهـــده ، ففي سنة ٥٢٠م نظم ابن أخيه جليمار مؤامرة ضده ونجح بسهولة في القبض عليه وإيداعه أحد السجون المظلمة ، واستولى على الحكم في مملكة الوندال في مايو سنة ٥٣٠ م (٣) .

جليمار ونهاية مملكة الوندال بشمال إفريقية :

اغتصب جليمار Geilimer السلطة في المملكة الوندالية (٥٣٠ - ٥٣٤ م) ، على الرغم من أنه لم يكن رجل دولة أو صاحب مواهب تؤهله لتسيير دفة الحكم في تلك الظروف ، وما لبث الإمبراطور جستنيان أن أعلن حنقه الشديد على تلك المؤامرة ، التي أطاحت بملك كاثوليكي ، وحاكم صديق ، وعـــزم على الاستفادة من هذه الحادثة إلى أبعد حد ، لينتقم من ملك الوندال الجديد (٤) ، وقبل اندلاع ثورة نيقا Nika بقليل كان جستنيان قد أرسل سفارة إلى قرطاجة يعرض فيها على جليمار أن يتنحى عن العرش ، ويقنع بمركز نائب الملك ويقيم ابن أخيه في الحكم . غير أن هذا الثائر رد على جستنيان بصلف قائلاً في رسالته : « إن الملك جليمار يرغب في توجيه نظـــر الملك جستنيان إلى أنه من الأوفق

---

(1) Oman : op. cit. p. 75
(2) Camb : Med. Hist. V. I. p. 314
(3) Lot : op. cit. p. 258
(4) Camb: Med. Hist: V. I. p. 315

بالنسبة للحكام أن يلتفتوا لشئونهم الخاصة، ويعلق مؤرخ محدث على هذه الرسالة بقوله إن جليار أراد بذلك أن يجعل مملكته مساوية للامبراطورية الشرقية فى المنزلة والمكانة، ولها نفس الاسم (١). ويبدو أن جليار لجأ إلى هـذا الصلف اعتمادا على بعد موقع مملكته عن الإمبراطورية الشرقية من ناحية واندلاع الثورات والمتاعب الداخلية لدى جستنيان من ناحية أخرى (٢)، إلا أن جستنيان عزم على بدء هجوم فى الغرب باخضاع الوندال واتسمت حماسته فى حملاته ضد الوندال والقوط بشىء من روح الحروب الصليبية (٣)، وكانت الظروف مهيأة لتدخله فى شمال إفريقية ولاسيا بعد أن طغى الشعور بأن ملكاً أريوسياً قد جعل فجأة الحياة بائسة بالنسبة للكاثوليك فى افريقية، فضـلا عما حدث من نفور وتباعد بين الوندال والقوط الشرقيين بسبب مقتل أمالا فريدا قبل تسعة أعوام، بل إن أمالاسوينثا ابنة ثيودريك العظيم شجعت الإمبراطور على الهجوم على جيرانها بشمال إفريقية، أكثرها عما حرصت على تثبيط همته(٤) رعاية للعصبية التيوتونية، غير أن أهم من ذلك كله ـ وهو ما اعتبر فعلا من حسن حظ جستنيان ـ أن جليار كان قد بعث بأهم فرقه فى حملة ضد سردينيا.

وعلى الرغم من تحذيرات الوزراء وكبار رجال الدولة لجستنيان من القيام بالهجوم على تلك المملكة النائية الواقعة فى «أدنى الأرض»، فقد مضى فى إعداد جيش لغزو إفريقية فى صيف سنة ٥٣٣م، ولم يكن ذلك الجيش كبيرا بدرجة

(1) Oman : op. cit. p. 76

(2) Ibid. p. 76

(3) Lot: op. cit. p. 256

(4) Camb . Med· Hist. V. I,p. 315

كافية لإتمام المشروع ، إذ تكون من عشرة آلاف راجل وخمسة آلاف فارس، لم يكونوا نظاميين تماماً ، وكانوا ينتمون إلى الأقاليم الآسيوية من إمبراطوريته، غير أن قائدهم بلزاريوس كان من أكفأ قادة جستنيان وأكثرهم ولاء وإخلاصا للامبراطور(١). ولقد طالت الرحلة بسبب ما صادفها من رياح عكسية ، ولكن بعد نحو ثمانية أيام رست فى النهاية القوة البحرية على الشاطىء الإفريقى فى راس كاموديا بين سوس وسفاقس فى الخليج المواجه لجزيرة صقلية فى سبتمبر سنة ٥٣٣ م فى سلام وأمان بسبب غياب أسطول الوندال فى سردينيا (٢) ، ولقد اخذ الوندال على غرة ، فلم يتمكنوا من الاستعداد لأن مليكهم كان غائبا فى نيوميديا وأحسن فرقهم فى سردينيا وأسطولهم لم يكن فى الماء ، وكانت ثقتهم العمياء فى بعد موقعهم عن القسطنطينية قد قادتهم إلى الإستهانة بتهديدات جستنيان(٣) ، وقد أسرع جليمار بالانحدار إلى الساحل ، واستدعاء جنوده من كل حدب وصوب واستغرق منه ذلك نحو أحد عشر يوما، وكان بلزاريوس قد تقدم إلى قرب عشرة أميال من أبواب قرطاجة معلنا أنه ما جاء إلا ليخلص الأهالى من عسف الوندال ويضفى حمايته على الكاثوليك المضطهدين وينصر الملك المخلوع ويعيده إلى السلطة ، ولهذا لقى بلزاريوس ترحيبا شديداً من الأهالى فى كل مكان ولاسيما أنه استطاع أن يكبح جماح جنده عن نهب الحقول والقرى أو إيقاع الأذى بالسكان(٤).

---

(1) Lot: op. cit. p. 258
Grant: op. cit. pp. 131—3
(2) Oman: op. cit. p. 76
(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 314-15
(4) Oman: op. cit. p. 77

تقدم بلزاريوس صوب قرطاجة بحذر شديد تسبقه كتيبة ملاحظة قوية ، وفجأة وجد نفسه يتعرض للهجوم فى Decimum [١] على يد الجيش الوندالى كله ،وكان يفوق جيشه عدداً بما لايقل عن الضعف، فما لبث الوندال أن حاصروا الجيش الرومانى من ثلاث جهات دفعة واحدة، فتقدمت فرقة وندالية تحت قيادة أماتس Ammatus أخى الملك من قرطاجة لتصطدم بقوة الجيش من الامام، بينما كانت فرقة أخرى تحاصر جناحه الايسر ، وكان الجيش الرئيسى بقيادة جليمار نفسه يهاجم مؤخرة الجيش الرومانى الطويل [٢] ، وعلى الرغم من ذلك فقد فشل الوندال فى إدارة عملياتهم وفى ربط هجماتهم من الجهات الثلاثة بعضها ببعض ، فقد برزت الفرقة الاولى من قرطاجة ، وأخذت تهاجم الرومان لكنها ما لبثت أن تراجعت عندما فقدت قائدها فى معمعة التصادم ، ثم ردت الفرق التى هاجمت من الجانب وأجبرت على التقهقر على يدالفرسان الهون،وكان بلزاريوس قدوضعهم على حافة جناحه الايسر[٣] ، وحينما وصل الجيش الرئيسى وبدأ هجومه فى الخلف اندلع قتـــال مرير مع قلب الجيش الرومانى ومؤخرته ، وشق جليمار طريقه بشراسة وسط جموع الجيش الرومانى وشطره إلى شطرين ، غـــير أنه فشل فى الاستفادة من هذا العمل ، فبدلا من أن يعمل على تأكيد انتصاره ، أوقف قواته وسمح لبلزاريوس أن يلم شعث جيشه ويستجمع قوته ويعمل على تحسين موقفه ، ويقال أن جليمار شاهد جثة أخيه أماتس ، الذى قتل فى الاشتباك المبكر ، فتأثر تأثراً شديداً لدرجة أنه ارتمى على الأرض جاثيا أمامها باكيا منتحبا[٤]، فى حين

---

(1) Ostorogorsky: op. cit. p.64

(2) Omon: op. cit. p.77

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 315

(4) Oman: op. cit. pp. 77-8

أصبح موقف الجيش الرومانى أحسن كثيراً ، بعد أن استدارت طلائع الجيش المنتصر إلى الوراء لتساعد القلب والمؤخرة . وهكذا لم يأت المساء حتى كانت جموع الرومان تصطف فى مواجهة الجيش الوندالى . ويبدو ان غزاة إفريقية الونداليين كانوا قد نسوا حماستهم القديمة ،وفترت همتهم كثيرا فاستداروا هاربين بعد مقاومة هينة متجهين صوب الغرب تحت جنح الظلام(١) .

وفتحت قرطاجة أبوابها فجأة لبلزاريوس(٢) وتناول فى اليوم التالى غذاءه فى القصر الملكى الوندالى ، وهى الوجبة التى كانت قد أعدت لملك الوندال من قبل ، وحصد جليمار حينئذ ثمرة قرن طويل من الاضطهاد ، كان أجداده قد أذاقوه رعاياهم الأفارقة ، وهرعت كل مدينة ليس بها حامية وندالية إلى فتح أبوابها للرومان، وسارع الأهالى بوضع كل ما يملكونه تحت تصرف بلزاريوس ودخل بلزاريوس قرطاجة كأنه ملك منتصر يعود إلى مقر ملكه وحاضرته فى فى موكب نصر بهيج (٣) وتمكن من ضبط فرقه والتحكم فيها تحكما دقيقا لدرجة تدعو إلى الإعجاب ، فلم يتعرض أى مواطن أربوسى أو وندالى لأى متاعب ، ولم تتعرض أملاك الناس لأى سلب أو نهب وأعيدت الأراضى إلى أصحابها . وجرى إضفاء الحماية على الكنيسة ، ورجال الدين الكاثوليك(٤) .

وكان جليمار قد تراجع إلى تلال نيوميديا بجيش كان قد خسر من معنوياته أكثر مما خسر من أعداده البشرية ، وسرعان ما انضوت إليه الفرق التى كانت

---

(1) Ibid: p. 78
(2) Lot; op. cit. p. 258
(3) Omans : op. cit. p. 78
(4) Camb. Med. Hist. V. II. p. 12–13

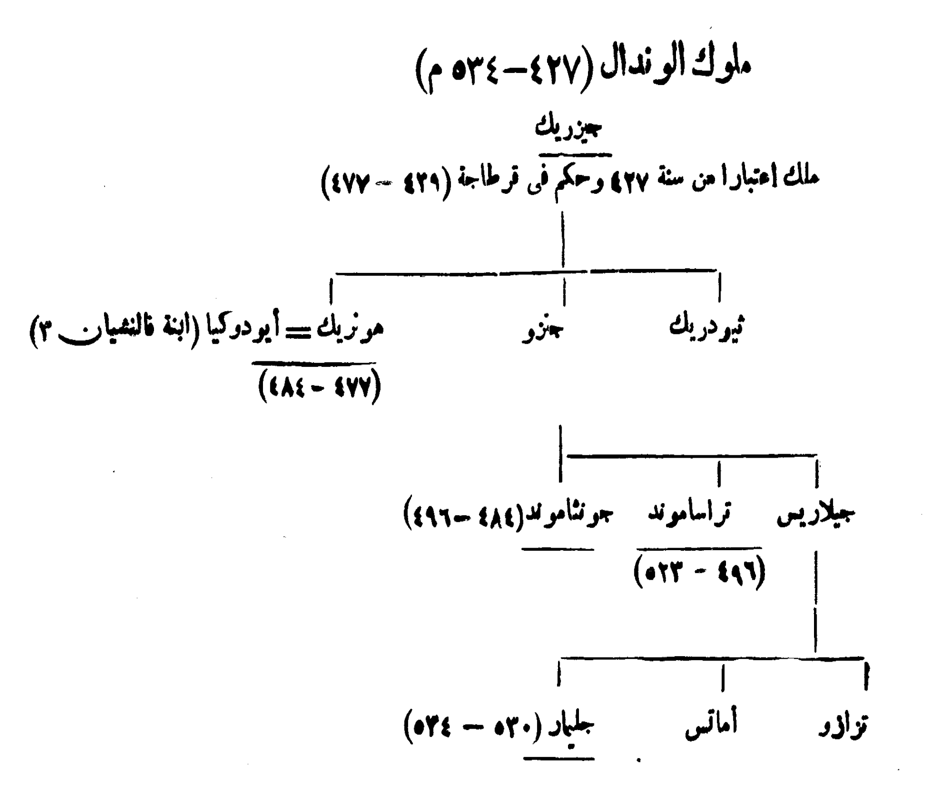
قد أرسلت إلى سردينيا بعد أن أخضعت تلك الجزيرة ، فأصبح جيشه يقرب من خمسين ألف رجل، وحينما أحس جليمار أن بلزاريوس قد شرع فى إصلاح أسوار قرطاجة قبل أن يمضى فى إتمام حملته، قرر جليمار أن يبدأ الهجوم بنفسه ، وانحدر بسرعة من التلال متجها نحو قرطاجة تحت جنح الظلام ليلاقى الجيش الرومانى ، وعلى بعد نحو عشرين ميلا غربى المدينة وفى Tricamarum (١) تم القتال ونجح بلزاريوس فى إنزال الهزيمة بالوندال مرة ثانية ، وكسب معركة فاصلة معهم بعد قتال مرير اتسم بالقسوة أكثر مما حدث فى المرة الاولى(٢) ، على الرغم من أن الرومان قد تقهقروا حينئذ ثلاث مرات وفى كل مرة كان بلزاريوس يلم شعثهم ويجمعهم ويحفز هممهم فاندفعت قواته الثقيلة فى النهاية خلال صفوف الوندال ، وقتلت أخا آخــر للملك يدعى زازو Tzazo وعندئذ استدار جليمار موليا الادبار ،على الرغم من أن رجاله صمدوا واستمروا يقاتلون حتى اضطـروا إلى الإنسحاب ، وهلك أغلب العنصر الوندالى فى تلك المعركة وفيما تلاها من متابعة ولاذ جليمار نفسه بمرتفعات جبـال أطلس بين المغاربة ، وعـاش بينهم بفـلول جيشه عيشة تعسة بضعة أشهر (٣) وعندما اكتشف أنه لن يستطيع تكوين جيش ثالث يقاوم به ، وأن الحياة غدت غير مأمونة بـين البربر، قرر أن يستسلم هـو وأسرته لبلزاريوس (٤) بعد حصـوله على وعد بأن يعامل معاملة طيـبة ، برغم أنه كان قد قتل هلدريك صديق الامبراطور.

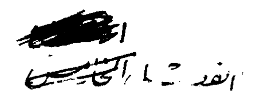
(1) Ostrogorsky : op. cit, p. 64
(2) Oman; op. cit. p. 78
(3) Oman ; op. cit p. 79
(4) Ostrogorsky : op. cit p. 64

وفى ربيع سنة ٥٣٤ غدا بلزاريوس قادرا على العودة إلى القسطنطينية، بعد أن أتم مشروعه الكبير، فحمل معه الملك والأحياء من الوندال أسرى(١) وشحن سفنه بكل منهوبات قصر قرطاجة وكل التحف التذكارية التى كانت حصاد قرن طويل من القرصنة الناجحة والإغارات الوحشية، متضمنة التحف والوحات والزينات التى كان جنزريك قد حملها من روما سنة ٤٥٥م. ويقال أن الإمبراطور قد تعرف من بين ذلك الحشد الكبير من التحف على شمعدان ذى سبعة أفرع وأوان ذهبية خاصة بمعبد بيت المقدس كان القيصر تيتوس Titus Caesar قد أخذها إلى روما قبل أربعمائة من السنين (٢)، وقد بعث بها الإمبراطور لتوضع فى كنيسة القيامة بالمدينة المقدسة، حيث كانت قد أقيمت لاول مرة من قبل وأضفى الامبراطور على بلزاريوس القاب الشرف التى أضفيت من قبل على المنتصرين الرومان القدماء والتى حرم إطلاقها على أى شخص من الرعايا لمدة تقرب من أربعمائة سنة (٣) ودخل بلزاريوس الهيبودروم فى أبهة وعظمة ووضع أسراه وغنائمه عند قدمى جستنيان، وحياه الناس والسناتو بوصفه قاهر إفريقيه الجديد، ورفع فى العام التالى إلى مصاف القنصلية، وأضفى عليه كل احترام وشرف. اما أسيره الملك جليمار فقد عومل معاملة كريمة وحمل هو وحاشيته إلى فرجيا Phrgia، حيث عاش هو وأسرته فى سلام لمدة طويله. وهكذا انتهت مملكة الوندال بإفريقية بعد أن عاشت نحو قرن من الزمان وعادت البلاد الى حظيرة الإمبراطوريه الرومانية الشرقيه(٤).

(1). Let : op. cit. p. 259
(2) Oman: op. cit. p. 79
(3) Oman : op. cit. p. 79
(4) Pirenne: op. cit. pp. 65

ملوك الوندال (٤٢٧–٥٣٤ م)





مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة

تأسيس المملكة البرجندية بجنوب شرق غـــالة - جندوباد وارساء دعائم الحكم البرجندى - جندوباد والفرنجة - اعتناق جندوباد الكاثوليكية - علاقاته بالامبراطورية الشرقية - سياسته الداخلية - اعتلاء سجسموند العرش - سجسموند والإمبراطورية البيزنطية - سجسموند والفرنجة - نهاية سجسموند - جندومار - حروبه ضد الفرنجة ونهـاية المملكة البرجندية - بعض النظم الداخلية فى المملكة: الادارة المالية والضريبية، الادارة المحلية - نظام القضاء.

كان البيت البرجندى الحاكم قد أزيل ، فى أثر هزيمة البرجنديين القاسية على أيدى الهون سنة ٤٣٦ ، وتولى الحكم بيت آخر جديد، لعب أفراده دورا بارزا فى تاريخ المملكة البرجندية قرب منتصف القرن الخامس الميلادى (١)، وكان البرجنديون قـــد استقروا فى سابوديا Sapaudia فى سنة ٤٤٣ بموافقة القائد إيتيوس(٢)، وقووا مركزهم بقيادة ملكهم جونجوك gunjok وكان أحد أفراد القبيلة الملكية القديمة ، وأخذوا فى التوسع فيما حولهم فى ذلك الوقت ، وسلكوا فى سبيل الحفاظ على مملكتهم طريق القوة حينا والدهاء أحيانا أخرى فقد شارك البرجنديون القائد إيتيوس جهوده فى صد الهون ، حينما تطرقوا إلى غالة سنة

---

(1) Lot: op. cit p. 213

(2) Heyck : "Rise of Frankish dominon" B. H. VII. p. 3474

٤٥٤(١) , وأفادوا من هذه المشاركة فحصلوا على سلام امتد سنوات حتى وفاة القائد إيتيوس والإمبراطور فالنشيان الثالث سنة٤٥٥م (٢)، وفى سنة ٤٥٦ دخلوا فى خدمة الإمبراطوريه فى غالة ، وقاموا بحملة عسكرية فى أسبانيا ضد السويفين ، بقيادة ملوكهم من الأسرة الجديدة وقد كانوا محالفين للامبراطورية داخلين فى طاعتها (٣).

ويبدو أن البرجنديين انتهزوا فرصة ذلك التحالف لمد نفوذهم فى الجهات المجاورة ، فأخذوا فى التوسع فيا وراء مضاربهم بجنوب شرق غالة ، إلى أن وصل الإمبراطور ماجوريان إلى غالة لمحاولة إعادة السلطة الرومانية فيها ، فعاد البرجنديون من جديد إلى حدود الطاعة (٤)، وبعد وفاة هذا الإمبراطور سنة ٤٦١م زالت العقبات من طريق توسعهم فاستولوا على ليون lyons ، ثم على فيين Vienne ثم داى Die ثم فيفارى Vivarais ،فيا بين سنتى ٤٦١ ، ٤٧٠م ، لكنهم لم يستطيعوا الانتشار فى بروفنس Provence وفيا وراء جبال الألب ، بسبب وجود الاريك القوطى الغربى ، فقد كان يتحكم حينذاك فى مداخل نهر الرون والساحل البروفنسالى ، وفى السنة الأخيرة من حياة جوندجوك عين ابنه جندوباد gundobad حاكما فى إيطاليا عقب وفاة ريسمير Ricimer (٥). وعند وفاة جوندجوك سنة ٤٧٣ احتل أبناؤه الثلاثة : جندوباد وجودجزل وشلبريك

---

(1) Bury : op. cit. p. p. 291—94
(2) Lot: op. cit. p. 213
(3) Pirenne : op. cit. p. 52
(4) Lot; op cit. p. 246
(5) Julius Jung : "The coming of the Goths" B. H V. p. 2743

مكان الصدارة وقيادة الأسرة المالكة الجديدة (١) .

كان جندوباد (٤٨٠ – ٥١٦م) قد عين حاكما رومانيا على يد الإمبراطور الغربى أوليبريوس Olybrius ، وذلك قبل أن يصبح جندوباد ملكا على البرجنديين، ويحكم المنطقة الممتدة من سهول شمبانيا Champagne إلى الديورنس Durance، ويبدو أنه باعتلاء الإمبراطور جليكريوس Glycerius ثم جوليوس نيوس Nepos عرش الإمبراطورية الغربية ، فضل هذا البرجندى العودة إلى غالة ، فعاد إلى وادى نهر الرون ، حيث أرسى البرجنديون دعائم ملكتهم فى تلك الجهات (٢) ، واحتل جندوباد وادى نهر الساءون الأوسط والأعلى حتى منابعها (٣). وتشير بعض الروايات إلى أن جندوباد لجأ إلى قتل أخيه شلبريك لينفرد بالسلطة فى المملكة ، ويمد نفوذه إلى ساحل البحر المتوسط ، غير أن الصراع بينه وبين أخيه الآخر جود جزل Godegisel قد تأجل لفترة أخرى (٤). وحكم جندوباد من أفينون حتى بيسانسون Besancon ولانجر Langre ، وحاول أن يثبت أقدام البرجنديين فى مواقعهم الجديدة ، ويؤكد استقلال مملكتهم الناشئة ، ولاسيما بعد أن غزا الفرنجة غالة ، لكن يبدو أن البرجنديين كانوا أكثر توفيقا فى امتدادهم جهة الشرق والشمال ، فقد نجحوا فى

(1) Heyck ; op. cit. p. 3474

(2) Hodgkin : " The moulding of the Nations " B. H. VII. p. 3371

(3) Oman: op. cit. p. 25

(4) Heyck : op. cit. p. 3474

إزاحة الألمان عن تلك الجهات والحلول محلهم (١)، وفي سنة ٤٩١ حاول جندوباد أن يدلى بدلوه فى الأحداث الجارية بإيطاليا ويمد يد المساعدة لأدواكر ضد ثيودريك ملك القوط الشرقيين، وعبر فعلا جبال الألب إلى إيطاليا، لكنه مالبث أن سحب قواته وعاد إلى بلاده مسرعا (٢)، وربما خوفا من هجوم القوط الغربيين على مملكته وتأكده من ضعف وحرج موقف أدواكر فى إيطاليا، ثم تلا ذلك مصاهرة سياسية بين البيت الحاكم البرجندى وثيودريك العظيم بإيطاليا، فقد تزوج سجسموند Sigismund - ابن جندوباد ووارثه - إحدى ابنتى ثيودريك العظيم غير الشرعيتين، وتزوج ألاريك القوطى الغربى الابنة الثانية (٣)، وفى نهاية القرن الخامس كانت مملكة البرجنديين تمتد من ديورانس فى الجنوب إلى مشارف شمبانيا فى الشمال، ومن سفينى Cevennes إلى ريوس Reusse وأقام ملوكهم فى ليون وفيين Vienne وجنيفا Jeneva وبسانسون وبصفة خاصة فى جنيفا وليون (٤).

ولقد عانت الكنيسة الكاثوليكية كثيرا على أيدى البرجنديين الأريوسيين، ولهذا أظهرت الفرح حين اندلع التنافس والصراع بين أفراد البيت البرجندى، فى حين كان الفرنجة يرقبون مايجرى فى برجنديا بحذر وترقب (٥)، ولاسيما بعد اعتناق كلوفس الكاثوليكية وتحفزه للعمل ضد الأريوسيين فى غالة، فضلا عما أبداه رعايا البرجنديين من تجاوب مع ما كان يجرى فى بقية غالة على أيدى

(1) Lot; op. cit. p. 315
(2) Oman ; op. cit. p. 17
(3) Cantor. Med. Hist. p. 141
(4) Camb, Med. Hist. V. II. pp. 109-10
(5) Heyck : op. cit. p. 3474

الفرنجة ، وكانت زوجة كلوفس ابنة شلبريك البرجندى ، تحقد على جندوباد (عمها) لما فعله بوالدها وإخوتها ، فحفزت زوجها على العمل ضد ملك برجنديا الطاغية ، وإذا أضفنا إلى ذلك قيام الأخ الآخر لجندوباد (جود جزل) بطلب معونة كلوفس ، أدركنا خطورة الأوضاع داخل مملكة البرجنديين (١).

فلقد واجه جندوباد مصاعب جمة من قبل كلوفس ، الذى أحزنه أن يجد ممالك أريوسية فى غالة (٢)، فشرع فى محاولة تصفية المملكة البرجندية وذلك فى السنة الأخيرة من القرن الخامس الميلادى (٥٠٠م) ، وهيأ له النزاع الذى اندلع بين جندوباد وأخيه الأصغر جود جزل فرصة مواتية للتدخل (٣)، فعقد اتفاقا سريا مع الأخ الثائر ، لمده بالمساعدة ، على أن يتم تقسيم المملكة بينهما بعد ذلك، وجرى الاتفاق على أن يقوم الأخ المتآمر باشعال نار الفتنة فى هلفتيا Helvetia حيث يوجد إقطاعه وأعوانه الاقطاعيين ، فى حين يقوم ملك الفرنجة بمهاجمة جندوباد فى وادى نهر الساءون (٤). ولقد نجح كلوفس فعلا فى إلحاق الهزيمة بجندوباد فى ديجون Dijon وطرده منها ومن ليون وفالنس Valence ، فلجأ جندوباد فى النهاية إلى أفينون وهى قلعة فى أقصى الجنوب من مملكته، بينما نصب أخوه الثائر ملكا بمساعدة كلوفس ، ليصبح فصلا Vassal من أفصال هذا الملك، ثم زحف كلوفس ليحاصر جندوباد فى أفينون ، ولكنه فشل فى اقتحام المدينة واضطر إلى الارتداد عنها ، وفى العام التالى (٥٠١م) ، نجح جندوباد فى استعادة

---

(1) Ibid. p. 3474
(2) Hodgkin: op. cit, p. 3371
(3) Lot: op. cit. p. 318
(4) Oman: op. cit. p. 61–2

كل مافقده من أملاك ، وقبض على أخيه الثائر وأعدمه وطرد بقايـــا الفرنجة خارج برجنديا دون تدخل من كلوفس (١). ويبدو أن كـلوفس اضطر إزاء هـذه الأحداث ، ونظرا لانشغاله بمحاولة تحقيق حلمه الآخـــر بقذف القوط الغربيين خارج غالة ، إلى إقامة سلام مع جندوباد ، ثم أتى جندوباد عملا كبيراً بإعلان اعتناقه الكاثوليكية ، فساعد على تدعيم السلام مع كـلوفس من ناحية ، واكتساب مرضاة الأهالى والكنيسة الغربية من ناحية أخـرى (٢) ، ولعل هـذه الخطوة هى التى مهدت السبيل لإقامة تحالف بينه وبين كلوفس للقضاء على مملكة القوط الغربيين الاريوسية ، ونجح كلوفس فى إنزال هزيمـــة كبيرة بالقوط الغربيين فى فوييه سنة ٥٠٧ م - كاسبقت الاشارة - وقتل ملكهم ألاريك الثانى (٣)، وتدفقت جيوش الحلفاء من الفرنجة والبرجنديين لمحاصرة مدينة آرل واستولى جندوباد على ناربون ، وعلى أثر مقتل ألاريك نصب الطفل أماريك ملـكا على القوط الغربيين ،وكان هذا الطفل حفيدا لثيودريك العظيم ، فتحرك هذا للحفاظ على مملكة حفيده ، وأعلن الحرب على كل من جندوباد وكـلوفس ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتدافع عن المملكة القوطية الغربية (٤) ، وعبر أحـد جيوشه جبال الألب وانقض على برجنديا ، ودخل جيش آخر بروفنس ،وضرب الحلفاء المحاصرين لمدينة آرل (٥) ، ونجح ثيودريك العظيم فى استعادة كل مناطق غالة

---

(1) Lot: op. cit. p. 318
Heyck: op. cit. p. 3474

(2) Cantor. Med. Hist. p. 147

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 206

(4) Oman: op. cit. p. 26.

(5) Camb. Med. Hist. V. I. p 282

الواقعة جنوب الديوراس والسفينى Cevennes سنة ٥٠٩م ، حتى إن غـزو كلوفس اقتصر بذلك على إقليم إكوتين . وبعد ذلك توفى كلوفس سنة ٥١١م وساد السلام فى تلك المنطقة فترة قبل أن تتبدل الظروف من جديد وتسنح الفرصة لثيودريك التدخل فى غالة (١).

أما عن علاقة جندوباد بالإمبراطورية الشرقية ، فيبدو أنهـا كانت علاقة طيبة تميزت بولاء هـذا الملك للامبراطورية ، وحرصه على الفوز بألقاب التشريف التى كانت تخلعها الامبراطورية على ملوك الجرمان المحالفين فى ذلك الوقت . أما بالنسبة لأعمال جندوباد الداخلية ، فقد أصدر بعض القوانين الهامة ، وأظهر حماسا شديدا لإصلاح النظم الحكومية فى مملكته وتنظيم العلاقـات مع الكاثوليك ونجح فى ذلك إلى حد بعيد(٢) . وامتلأ بلاط البرجنديين بالشعراء والأدباء والمبرزين فى الناحية الفكرية والثقافية ، وأظهر الملوك البرجنديون حرصا على رعاية العلوم والفنون والآداب وتقريب النابهين فى الحياة العلمية والأدبية(٣).

اعتلى سجسموند Sigismund عرش المملكة البرجندية بعد والده جندوباد (٥١٦ - ٥٢٣) ، وكان سجسموند زوجا لابنة ثيودريك العظيم ، ويبدو أنـه لذلك اطمأن من جهة صهره ، واتجـه إلى الاستمرار فى سياسة والده تجاه الإمبراطورية الشرقية ، فكتب إلى الامبراطور أنستاسيوس يقول له : « لقد حافظ أسلافى على ولائهم للامبراطورية ، ولم يكن أشرف عندهم من الألقاب التى

(1) Ibid : p. 282
(2) Heyek : op. cit. p, 3474
(3) Pirenne : op. cit p. 53

خلعتموها عليهم ، ولقد التمس أفراد عائلتى دائماً ألقاب التشريف من الأباطرة ، لأنها أضفت عليهم مجداً أعظم مما ورثوه من آبائهم وأجدادهم »(١) ، ثم أضاف هذا الملك ، عند وفاة والده الذى كان كثير الولاء للامبراطور، أرسلت لكم أحد مستشارى ليعرض عليكم ، وتحت رعايتكم عروضى فى الولاء والخدمة .. فشعبى حوزتكم فى، وانى لأقوم بحكمه فى طاعتكم ، وإننى لأجد فى تلك الطاعة من الحبور والسعادة ، أكثر مما أجد فى القيام بحكم هذا الشعب ، وربما أظهر بمظهر الملك بين هذا الشعب ، ولكننى لست إلا جنديا من جنودكم ، وإننى لأنتظر منكم الأوامر التى تتفضلون باصدارها إلى »(٢). والواقع أن الإمبراطورية الشرقية نظرت لمملكة البرجنديين باعتبارها حليفة للشعب الرومانى ، لما أظهره كل من جندوباد وابنه سجسموند من آيات الطاعة والولاء، كما قرر ذلك جوردان Jordanes (٣) .

وعلى الرغم مما يبدو فى هذا الكلام من تعقل ، فقد كان سجسموند طاغية من الدرجة الأولى ، وكان متشككا وكئيبا ، وكان قد تزوج إبنة ثيودريك العظيم ـ كما سبقت الإشارة ـ لكنه مالبث أن أقدم على ارتكاب جريمة جلبت عليه غضب ملك القوط الشرقيين ، وأحنقت عليه كثيرا من المعاصرين ، وذلك أنه قام بقتل ولده وولى عهده سجريك Sigeric الذى كان حفيدا لثيودريك (٤) ، فاستبد

(1) Lot : op. cit. p. 247
(2) Pirenne : op. cit. p. 53
(3) Lot : op. cit. p. 247
(4) Cantor, Med. Hist, I p. 141

الغضب بهذا وشرع فى معاقبة هذا الطاغية الأحمق ، فعقد محالفة مع الفرنجة . وقام بمهاجمة برجنديا واستولى على بعض أراضيها فيما بين الديورانس والدروم Drome ، بما فيها من مدن أفينيون، وأورانج Orange وفيفير Viviers ، حتى بلغ المد القوطى الشرقى أقصى مداه فى الناحية الشمالية الغربية .(١) وتعرض سجسموند أيضا للهجوم من جانب ملوك الفرنجة ، فأذاقوه الهزيمة والردى ، فقد هاجمه كل من شلدبرت Childebert وكلودومير Chlodomer سنة ٥٢٣م ، وأنزلا به هزيمة قاسية وأخذاه أسيرا وقذفا به وبزوجته وابنه فى بئر (٢) ، وبدا وكأن مملكة البرجنديين على وشك الضياع والاختفاء من خالة ، ولقى سجسموند جزاء ما اقترفه من جرم فى حق ابنه وولى عهده ومرح الفرنجة فى برجنديا فى محاولة لمحو المملكة البرجندية نهائيا (٣).

تسلم جندومار Gundomer الحكم البرجندى (٥٢٣ - ٥٣٢م) ، تركة مثقلة بالهموم والمتاعب ، بعد أن هزم الفرنجة أخاه سيجسموند وقتلوه سنة ٥٢٣م ، وكان على هذا الملك الجديد أن يتصدى لهم ويحاول منعهم من تصفية مملكته ، ومن حسن حظه أنه نجح فى هذا إلى حد بعيد وأسعده الحظ سنة ٥٢٤م بإلحاق الهزيمة بالفرنجة فى موقعة فيزرونس Vésérence فى معركة قتل فيها أحد ملوك الفرنجة وهو كلودومير ملك أورليان (٤) . وساعد جندومار على التقاط أنفاسه شيئا ما ، أن إخوة الملك المقتول توقفوا عن متابعة الحروب فترة ، ربما

(1) Camb. Med. Hist. V. II, p. 110 – 111

(2) Oman: op. cit. p. 114

(3) Ibid. pp. 115–16

(4) Lot: op. cit. p. 324

يتمكنون من تقسيم ونهب مملكة الأخ الراحل ، ولاسيما أن هذا الأخ لم يترك سوى بعض الأبناء الصغار (١)، ولهذا اجتاح كل من شلدبيرت وكلوثير أراضيه على نهر اللوار، غير أن جندومار عاد ليواجه المتاعب من جديد من قبل الفرنجة بعد ذلك بسنوات قليلة ، إذ استأنف شلدبيرت محاولة غزو برجنديا وتصفية أملاك جندومار بها ، مستعينا فى ذلك بأخيه كلوثير الذى قاد جيشه والتحق به سنة ٥٣٢م (٢) . وهكذا اتحدت قوات ملكى باريس وسواسون لتحقيق هـــذا المشروع . وسارا معا صاعدين فى وادى اليون yonne ، حيث ألقيا الحصار على أتون Autun ، وحينما تصدى لهم جندومار محاولا تخليص أوتون ، تعرض لهزيمة ساحقة فر على أثرها إلى إيطاليا متخليا عن مملكته (٣) . وما لبث الفرنجة أن أخذوا يستولون على مدينة تلو مدينة فى برجنديا ، ليصلوا بفتوحاتهم إلى حدود المملكة البرجندية مع القوط الشرقيين على جبال الألب والدروم ، وليصبحوا بذلك سادة غالة كلهـــا تقريبا ومن بينها برجنديا، ويعدوا العدة لإرسال حملة جديدة ضد جيرانهم ولاسيما القوط الغربيين (٤) .

وهكذا انتهت مملكة البرجنديين بجنوب شرق غالة فى نهاية الثلث الأول من القرن السادس الميلادى ، ولا شك أنها كانت مملكة ضعيفة لم تستطع الثبات أمام أخطار العصر ، أو التصدى لأطماع جيرانها (٥) ، فإذا كان جندوباد قد كفل لها

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 117

(2) Lot , op. cit. pp. 324-5

(3) Camb. Med. Hist. V. II. pp. 117-18

(4) Cantor. Med. Hist. p. 135, p. 147

(5) Lot ; op. cit. p. 315

الاستمرار فترة بتحوله إلى الكاثوليكية وتحالفه مع كلوفس وولائه للامبراطورية الشرقية ، فإن خلفاءه لم يستطيعوا تنفيذ هــذه السياسة المرنة فى ظل اختلاف المصالح وتضارب الأهواء فى غالة ، وبين جيران اشتد طمعهم فى تلك المملـكة الصغيرة الضعيفة (١) ، ولا سيما أن ولاء هذه المملـكة للامبراطورية الشرقية لم يفدها فى شىء لبعد الشقة بينهما من ناحية ، ولانشغال أباطرة الشرق بما هو أهم من ناحية أخرى (٢) ، ولو لم تكن مملـكة البرجنديين قد انهارت أمام ضربات الفرنجة فمن المحتمل أنها كانت سوف تنهار على أيدى القوط الغربيين الذين تطلعوا إليها فى وقت من الأوقات قبل أن ينغمسوا فى مشاكلهم الداخلية بأسبانيا وتضعف هممهم(٣) . حقيقة كانت سلطة الملك فى برجنديا سلطة تامة ومطلقة على شعبه ، لاينازعه فيها أحد ، فإذا كان له أكثر من ولد جعلهم جميعا نوابا للملك دون أن يقسم المملـكة بينهم ، إلا أن ملوك البرجنديين اعتـــبروا أنفسهم منتمين إلى الامبراطورية الشرقية ، ومنفذين لسياستها (٤) ، وكان بلاطهم آهلا بالموظفين الرومان ، وإداراتهم المالية ، ونظام ضرائبهم كلها رومانية ، وليس ثمة ماينبىء عن وجود جماعات المحاربين ، وإن وجد ماعرف بالباجى Pagi أو Civitates ويرأسهم الـ Come وبجانبهم كان يوجد مجلس القضاء « Judex deputatus » لتنظيم القضاء ، يعين أفراده الملك ، وكان الملك البرجندى يدفع الرواتب لنوابه وممثليه ، ولقد تأثرت المملكة البرجندية بالنظم الرومانيـــة كثيراً ، حتى عاش

(1) Pirenne: op. cit. p. 52
(2) Oman: op. cit. p. 116
(3) Lot: op. cit. pp. 315-16
(4) Pirenne: op. cit. p. 53

البرجنديون والرومان فى ظل قوانين متشابهة (١) ، ولم تكن بين الجانبين هوة ولا سيما بعد أن انتشرت الكاثوليكية بين البرجنديين ، ومع كل ذلك انهارت المملكة البرجندية سريعا أمام أطماع الفرنجة ، سادة غالة وأقوى مملكة فى تلك الجهات .

---

(1) Ibid. p. 53

الفصل السادس

مملكة أدواكر فى إيطاليا

اضمحلال الإمبراطورية الغربية وانتهاء عهدها سنة ٤٧٦ — أدواكر يؤسس مملكة له فى إيطاليا على أنقاضها — حكومة أدواكر فى إيطاليا — علاقاته الخارجية : إزاء القوط الغربيين — دالماشيا — الروجيين — الوندال — علاقته بالامبراطورية البيزنطية — عوامل ضعف مملكة أدواكر — غزو ثيودريك القوطى الشرقى لإيطاليا — محاولة أدواكر التصدى له إستمرار الصراع سنوات — فشل أدواكر فى النهاية واستسلامه ثم اغتياله — نهاية مملكة أدواكر فى إيطاليا .

توفى الإمبراطور فالنشيان الثالث سنة ٤٥٥م ، فانقطع بذلك نسل الأباطرة من أحفاد ثيودسيوس ، وفى العشرين سنة التالية كان أباطرة الغرب مجرد ألعوبة فى يد القادة الجرمان المختلفين ، الذين تنافسوا من أجل السيادة والنفوذ فى إيطاليا (١) ، ولاسيما ريسمير Ricimer نصف السويفى ونصف القوطى ، فقد استطاع أن يهيمن على مصاير الإمبراطورية الغربية فترة ، حتى إنه استطاع أن يولى ويعزل ستة من الأباطرة الضعاف فى إيطاليا إلى أن توفى سنة ٤٧٢م (٢) ، واستمر الصراع بعده بين المتنافسين على السلطة ، وكان النصر فى النهاية لقائد

---

(1) Hussey : The Byzantine World. pp. 14–15

(2) Lot: op. cit. p. 218

جرمانى يدعى أدواكر Odoacar أو أدوفاكر Odovacar ، الذى تشجع فى سنة ٤٧٦ وعزل الإمبراطور الطفل روميولس أغسطولس ، ولم ينصب محله أحداً ، فأنهى بذلك عهد الإمبراطورية الغربية (١) . ولتأكده من أنه لايستطيع أن يحوز اللقب الإمبراطورى أو يفوز بمنصب الإمبراطور ، فقد لجأ إلى الظهور على أنه نائب للامبراطور الشرق فى حكم إيطاليا ، وسمى نفسه ملك الجرمان فى إيطاليا (٢) .

أقام أدواكر اذن مملكة جرمانية فى إيطاليا على أنقاض الإمبراطورية الغربية ، ابتداء من سنة ٤٧٦ ، ولكنه خالف ممالك البرابرة فى غرب أوربا ، بما اتبعه من نظم فى حكم إيطاليا ، فبينما حكم الوندال باعتبارهم برابرة ومحوا كل أثر للجهاز الرومانى القديم والادارة الرومانية (٣) ، نجد الملك أدواكر يحتفظ بكل النظم الرومانية التى وجدها بإيطاليا ، فقد ظل مجلس السناتو قائماً لم يحل وأخذ يمارس سلطاته فى إصدار القرارات والمراسيم العامة ، وظل القناصل يؤرخون الأحداث بسنى ولايتهم (٤) ، غير أنه اضطر إلى نزع أجزاء من ملكيات كبار الملاك مصادرا ثلث أراضى كل مالك من الأغنياء فى إيطاليا لصالح فرق الجند المرتزقة فى جيشه ، فسبب بذلك كثيرا من المتاعب وخلف كثيرا من الأسى فى نفوس السكان (٥) ، وإنه لمن الغريب حقا ألا نجد شكوى كبيرة من هذا المشروع فى كتابات المؤرخين المعاصرين ، ومن المحتمل أن تكون حركة

---

(1) Vasiliev : op. cit. p. 107
(2) Cantor. Med. Hist. p.p. 135—6
(3) Pirenne : op. cit. p. 48
(4) Omans : op. cit. pp. 12–13
(5) Cantor: op. cit. p. 136, p. 143

أدواكر فى ترك صغار الملاك وشأنهم هى التى أنقذت اسمه من المذمة والملامة التى لاتزال تعلق بكثير من الغزاة التيوتون الذين غزوا الإمبراطورية . لكن يبدو أن الأهالى فى إيطاليا قد أحسوا بتحسن نسبى طفيف فى ظل حكم ملك بربرى، بدلا من نبيل متبربر مثل Ricimer أو جندوباد ، ولهذا أمكن لأدواكر أن يستمر فى الحكم دون مضايقة أو إزعاج ولاسيما أنه برغم أريوسيته لم يقم بأى اضطهاد دينى أو تعصب مذهبى ضد الكاثوليك (١) ، وإذا كان قد أكد بشدة حقه فى أن يختار أساقفة روما ، فإننا لانجد دليلا واحدا على أنه فرض المرشحين لهذه الوظائف بالاجبار على رجال الدين أو على جمهور الناس (٢) . والواقع أن أدواكر كان شديد القمع لأية محاولة ترمى إلى نقل ملكية أراضى الكنيسة أو المتاجرة بالرتب الكهنوتية ، ولهذا فقد أحس الناس فى ظله بشىء من الارتياح بالنسبة للعهود السابقة (٣)

ولقد حرص أدواكر فى إقامة علاقاته الخارجية على الاحتفاظ بأقاليم إيطاليا وأقسامها كما هى Diocese of Italy ، شبه الجزيرة وملحقاتها الرئيسية فى نوريكوم Noricum وشمال اليريا باعتباره نائبا للامبراطور الشرق (٤) ، غير أنه اضطر إلى التغاضى عن ساحل بروفنس الذى استولى عليه ملك القوط الغربيين إيورك Euric ، وكان أدواكر قد وجد ذلك الساحل فى أيدى الرومان ، ولم يبذل أدواكر أى محاولة لإقامة علاقات مع الحاكم الغالى الرومانى سياجاريوس Syagarius ، الذى كان يحكم أواسط غالة ، محصورا بين القوط الغربيين

---

(1) Camb, Med. Hist. V. I. pp. 435-6

(2) Oman ; op. cit. p. 13

(٣) Helmolt : "Italy" B. H. VII. p. 3455

(4) Ibid. p. 3455

والفرنجة (١) ، أما فى الناحية الشمالية الشرقية ، فقد اتبع أدواكر سياسة حازمة ، فعند اغتيال جوليوس نيبوز Julius Nepos على يد الثوار سنة ٤٨٠ م ، غزا أدواكر دالماشيا Dalmation وأخضعها ، وهى التى كان الامبراطور السابق قد فعل كل ما فى وسعه للاحتفاظ بها (٢)، أما فى أقصى الشمال — فى نوريكوم — حيث سبب الروجيون Rogians إزعاجا للاهالى الرومان سنوات طويلة وكانوا يعبرون نهر الدانوب كثيرا القيام بإغاراتهم ، فقد أظهر أدواكر سياسة حازمة معهم (٣) ، فأرسل إليهم أخاه هونولف Hunwulf سنة ٤٨٧م على رأس جيش نجح فى إزاحتهم إلى الخلف ، عبر النهر وأسر ملكهم فيفا Feva ؛ لكن لم يكد أهالى تلك الجهات من الرومان يتحررون من ضغط الروجيين ، حتى انتهزوا الفرصة لا لاستعادة مدنهم المخــربة ، ولكن الهجرة فى جماعات كبيرة إلى داخل إيطــاليا (٤) ، فحملوا كل متاعهم وقطعانهم وكنوزهم ، حتى رفات قديسيهم وتدفقوا فى حماية جيش هونولف ناحية الجنوب ، عبر جبال الألب ،وحصلوا من أدواكر على تصريح بالاستقرار فى الأراضى الإيطالية ، التى كان الوندال قد أنزلوا بها الخراب والدمار من قبل (٥) ، ولم يعد هناك فى نوريكوم سكان من الناطقين باللاتينية إلا فى الأودية الريتانية Rhaetian Valleys ، حيث بقى بعضهم يعيش بعيداً ، ولعل ذلك هو السبب فى أن جنوب بافاريا وأستريا لا يتكلم

---

(1) Lot: op. cit. p. 215

(2) Heyck : " The great Teutonic deluge " B. H. VII. p. 3454

(3) Oman: op. op. cit. p. 14

(4) Helmelt : op. cit. p. 3455

(5) Heyck: op. cit p. 3454

أهلها الرومانية فى الوقت الحاضر (١) .

أما فيما يتعلق بسياسة أدواكر تجاه مملكة الوندال بشمال إفريقية ، فقد ميزتها المرونة والكياسة ، إذ قبل أدواكر أن يعقد اتفاقية مع جنزريك ، ورضى بمقتضاها أن يدفع إتاوة للملك الوندالى، مقابل تعهده بوقف مشروعاته فى صقلية، ووقف محاولاته لغزو الجزيرة (٢) ، ثم شغل هونريك خليفة جنزريك الوندالى، بمشاكله الخاصة عن القيام بأى أعمال تعكر صفو أدواكر فى إيطاليا ، فتخلص هذا من أكبر خطر هدد سواحل مملكته ناحية الجنوب.

وفيما يتعلق بسياسةأدواكر تجاه الإمبراطورية البيزنطية،فيبدو أن أدواكر حاول أن يحكم إيطاليا بوصفه نائبا لإمبراطور القسطنطينية ، ولم يكن هناك بد أمام بيزنطة إلا أن تسبغ عليه ألقاب التشريف وتمنحه وضعا قانونيا لحكم الإيطاليين (٣) ؛ غير أن بيزنطة كانت فى الحقيقة رافضة لهذا الملك لأنه إذا كان لابد من قيام حاكم تيوتونى فى إيطاليا ، فمن الأوفق أن يكون مرتبطا ارتباطا وثيقا بالبلاط البيزنطى ، ومظهراً لكثير من الاحترام والولاء للقسطنطينية ،مثل ثيودريك القوطى الشرقى، الذى عاش فترة فىالقسطنطينية ضيفاً على إمبراطورها وتشبع بالحضارة الرومانية ، وأظهر كثيراً من الاحترام للمدنية البيزنطية (٤) ، ولهذا يقال إن بيزنطة وضعت فى طريق أدواكر العراقيل حتى فى بداية عهده ، وإن الحملة التى قام بها أدواكر ضد الروجيين كانت بإيعاز من بيزنطة ، وتنفيذاً

---

(1) Oman; op. cit. p. 14

(2) Jung : "The Coming of the Goths " B. H. V. 2704

(3) Heyek op. cit. p. 3454
Ostrogorsky : op, cit. p. 57-8

(4) Helmolt: op cit. p. 3455

لسياستها لمحاولة إلحاقه ، وإثارة المشاكل فى وجهـــة (١). وهكذا لم يكن حكم أدواكر فى إيطـاليا ينتظره مستقبل باسم ، من قبل جيرانه وأقرانه وإنما حال دون استقراره وثباته كثير من المشكلات والعقبات ، وإن بدا داخل إيطاليا حكما طيبا هادئا بالنسبة للفترة السابقة .

تحمل أدواكر مسئولية الحكم إذن فى إيطاليا ونوريكوم ودالماشيا بنجاح لمدة ثلاثة عشر عاماً ٤٧٦ - ٤٨٩م ، وكلما مرت الأعوام دون حدوث فاجعة ، وبقى الجيـش هادئا ، وواصل الإيطاليون حياتهم آمنين ، بعد تحررهم من الونداال والقوط ، ازداد اقتناع أدواكر بأنه قد نجح فى إقامة مملكة جرمانية على غـرار مملكة البرجنديين أو القوط الغربيين جيرانه القريبين (٢)، غـير أنه كانت هناك نقطة ضعف قاتلة بالنسبة لمملكة أدواكر ومركزه فى إيطـاليا ، إذ لم يكن أدواكر يعتمد على ولاء قبيلة متماسكة متحدة أو أمة جرمانية بعينها ، ولكن كان اعتماده قائماً بصفة أساسية على إخلاص جيش مرتزق وفرق مأجورة، فقد تكون هذا الجيش من بقايا اثنا عشر بطنا من البطون التيوتونية أو العائلات التيوتونية الكبيرة ، وكانت هذه البطون لا تنظر إلى أدواكر إلا على أنه قائد عام، ومأمور صرف ، وليس أميراً شرعيا أو سليلا للآلهة ، كما نظرت الأمم الجرمانية إلى ملوكها وأبطالها(٣) . وهكذا لم تكن الفرق العسكرية المحالفة التى نصبت أدواكر ملكا تنتمى بأى حال من الأحوال لأمة واحدة أو تمثل شعبا واحـدا ، وكان الأمر يتطلب أجيالا طويلة ليتم الانسجام بينها، ويحدث التفاعل فيما بينها ،ولكن

---

(1) Ibid. p. 3455

(2) Pirenne: op. cit. p.27

(3) Camb. Med. Hist. V. I. pp. 436–7

لم تمهل الأقدار هذا الملك ليواصل قيامه بهذا العمل(١).

قبل أن ينقضى على مملكة أدواكر نصف جيل من عمرها ، كان عليها أن تختبر . وأن يمجم عودها بالصدمة المنيفة ، وتحت وطأة الغزو الحربى ، ففى سنة ٤٨٩ زحف إليها من الدانوب ومن جبـــال الألب فى إيلليريا عـدو لدود هو ثيودريك بن ثيودمير ، ملك القوط الشرقيين(٢) ، يقود كل شعبه من القوط فى حشد هائل من الرجال الأشداء والأبطال العظام مع زوجاتهم وأطفالهم وعبيدهم وقطعانهم ، يسدون منافذ جبال الألب من الجهة الشمالية الشرقية ، ومعهم اثنا عشر ألف عربة تجرها البغال ، حاملة أمتعتهم وحاجياتهم فى طريقهم إلى إيطاليا (٣) ، وكانت أسوار القسطنطينية الحصينة قد وقفت عقبـــة أمام ثيودريك لإخضاع الإمبراطورية الشرقية، ففضل هذا أن يلقى بنفسه وبجيشه نصف الجائع إلى أرض جديدة مناسبة للغزو والإقامة ،فى الوقت الذى كان فيه الإمبراطور الشرقى يحاول جهده إخـراج القوط وإبعادهم عن البلقان إلى أبعد ما يكون عن دولته (٤) ، وهكذا كان لكل من الإمبراطور زينون وثيودريك أسبـابه فى تمنى السوء لأدواكر ، فقد سبب أدواكر الإزعاج للامبراطور(٥) ، واعتقـد هـذا أن أدواكر ساعد ثائرا قديما فى آسيا هو ليونتيوس سنة ٤٨٣م ، استطاع أن يهـز عرش الإمبراطورية ويزعزع مكانتها ، فى حين كان الملك القوط الشرقى لايزال

---

(2) Helmolt: op. cit. p. 3455

(2) Oman : op. cit. p. I5
Camb. Med. Hist. V. I. pp. 447–8

(3) Lot: op. cit. p. 240

(4) Cantor: Med. Hist. p. 140

(5) Lot: op. cit. p. 220

يذكر كيف سبب له أدواكر إزعاجا شديداً فى البلقان على أثر حملته ضد الروجيين سنة ٤٨٧م ، وفرار أعداد كثيرة منهم للاحتماء به(١)، وما ترتب على ذلك من أعباء إضافية على أمة القوط الشرقيين، ولما كان أدواكر يحكم إيطاليا فى طاعة الإمبراطور زينون ، ولو أتيح لثيودريك الفوز بإيطاليا وإحلال نفسه محل أدواكر ، فان الأمر يغدو بالنسبة للامبراطور مجرد إحلال ملك جديد يدين بالطاعة له محل ملك آخر يتبع نفس السياسة ويحرص عليهما (٢) ، ولو اسميا ، وكان ثيودريك قد وعد الإمبراطور حين وجهه إلى إيطاليا أن يصبح ممثلا للامبراطورية الشرقية فى الأراضى المزمع امتلاكها ، وتابعا لها يعترف بسيادتها ، على الرغم من أن الإمبراطور لم يكن يهمه حينذاك سوى إبعاد القوط الشرقيين عن البلقان بأى ثمن وإلى أى مكان (٣) .

دعا ثيودريك ، فى خريف سنة ٤٨٨ م ، كل شعبه من القوط الشرقيين ليعسكروا فى وادى نهر الدانوب الأوسط ، وأمرهم بأن يستعدوا لهجرة بعيدة، ويبدو أن اختيار هذا الفصل القاسى من السنة، وقتاً للغزو والتقدم أملاه الخوف مما قد يتعرض له القوط فى تلك الجهات من مجاعة بعد أن خربت الحروب موزيا Moesia ، ولم يعد لدى القوط مؤن تكفى حتى الربيع التالى (٤) . وهكذا سارت

(1) J. Jang : op. cit. p. 2794
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 58
Oman: op. cit. p. 15
(3) Cantor ; op. cit. p. 140
(4) Oman: op. cit, p. 15

جموع القوط الشرقيين فى أكتوبر سنة ٤٨٨ فى حشد بلغ مائتى ألف أو ثلاثمائة ألف نسمة ، على الطريق الرومانى بحذاء نهر الدانوب ، ثم عبروا النهر ليسيروا عبر بانونيــا (١) ، غير أنهم مالبثوا أن قوبلوا بمقاومة شديدة من قبل ملك الجبيداى تراستيلا Traustila الذى كان يحكم ضفتى وادى نهـر الدانوب الأوسط (٢) ، وحاول التصدى للقوط ليمنعهم من المرور عبر أراضيه ، غير أن ثيودريك استطاع أن ينزل به الهزيمة وإن لم يستطع القضاء كلية على مقاومة الجبيداى ، فظلوا يضايقونه ويعطلون تقدمه فى تلك الجهات حتى اضطر لقضاء الشتاء على نهر الساف Save ، ليمكن قومه من نهب مزارع الجبيداى (٣) . وفى ربيع سنة ٤٨٩ م تحرك ثيودريك إلى الأمام ، وعبر ممرات الألب الجوليانية Julian Alp ، دون أن يجد مقاومة من جيوش أدواكر ، حتى وصل إلى الممر المؤدى إلى سهل فينسيا Venetia ،وهناك على ضفاف نهر الإيزونزو Isonzo كان أدواكر ينتظر بكل جموعه من القبائل المحالفة حيث اندلعت معركة كبرى بين الجانبين (٤) ، وفى تلك المعركة كان القوط يحاربون وهم أمة واحدة ويدافعون عن زوجاتهم وعائلاتهم وأطفالهم الذين يقفون خلفهم ، ويناضلون تحت قيادة ملكهم الوارث ، سليل البطولة والمجد(٥)، ويعلمون تماما أن الهزيمة تعنى الفناء ، ولهذا كانت وحشيتهم واندفاعهم يفوقان الوصف ، بالمقـــارنة بالجموع غير

(1) Helmolt ; op cit, p. 3455
(2) Lot: op. cit. p. 209
(3) Oman: op. cit. p. I6
(4) J. Jung : op. cit. p. 2794
(5) Cantor. Med. Hist. , p. 140

المتجانسة التى حاربت مع أدواكر (١) ، ولهذا انتهت المعركة بهزيمة أدواكر ملك إيطاليا ، ونهب معسكره وتبعثر قواته ، ولم يعد أمامه سوى فرصة تحت أسوار فيرونا ليحاول جمع شتات جيشه ولم شمله ليخوض جولة جديدة . ولم يكد يمضى شهر واحد على معركة إيزنزو ، حتى ظهر ثيودريك مرة أخرى أمام عدوه أدواكر فى فيرونا ، ومن جديد ألحق به هزيمة قاسية وحاز نصراً حاسماً ، وأهلك معظم الفرق العسكرية المحالفة التى كانت تدافع عن إيطاليا ، فانفتح الطريق أمام القوط لاحتلال البلاد ، على الرغم من نجاح أدواكر فى الفرار هذه المرة أيضا (٢) .

انحدر أدواكر من شمال إيطاليا لائذا بطريق المستنقعات وغابة رافنـــا ، إذ تكفلت هذه المنطقة بإحباط محاولات كثيرة لغزو شبه الجزيرة الإيطالية ، غير أن ثيودريك تقدم فى نفس الوقت إلى الأمام ، فاحتل ميلان وكل وادى نهر البو The Po ، وتوج انتصاراته تماما بمحاصرة توفا Tufa المركز الرئيسى لجموع أدواكر ، فالبثت أن استسلمت للقوط مع فلول الجيش الإيطالى فى خريف سنة ٤٨٩ بمقتضى هدنة مع ثيودريك (٣) ، غير أنه قــدر للحرب أن تستمر مدة أكثر من ثلاث سنوات ، فقد كانت رافنـا محصنة تحصينا قويا ، فضلا عمـا لها من مقاومة خارجها ، فاضطر ثيودريك إلى فك الحصار عن رافنا ثلاث مرات لتصدى للمقاومة العنيفة التى نهضت ضده (٤) ، وكانت المرة الأولى حين نقضت

---

(1) Lot : op. cit. p. 238
(2) Jung : op. cit. p. 2794
(3) Oman: op. cit. p. 17
(4) Camb . Med· Hist. V.I,p. 439

توفا شروط الهدنة وعادت إلى طاعة ملكها القديم أدواكر ، والمرة الثانية حدثت في العام التالي حين قدم ملك برجنديا « جندوباد » وعبر جبال الألب لمعاونة أدواكر ثم عاد مرة أخرى من حيث أتى[١] ، والمرة الثالثة حين حاول فردريك ملك الروجيين مساعدة أدواكر ، على الرغم من أن ثيودريك كان قد أضفى عليه الحماية ، قبل ذلك بثلاث سنوات ، على أثر فراره جيوش أمام أدواكر نفسه[٢] .

أما بالنسبة لأدواكر ، فلقد استطاع أن يحمي نفسه في مستنقعات رافنا فترة قبل أن يتمكن ثيودريك من دفعه إلى الوراء وإخراجه من مكنه ، ولمدة أكثر من عشرين شهراً حمى أدواكر نفسه داخل أسوار رافنا الحصينة إلى أن اضطر تحت ضغط المجاعة ونقص المؤن إلى التقدم إلى ثيودريك ، يطلب السلام في فبراير سنة ٤٩٣ م[٣] ، فرد عليه ثيودريك رداً حسناً وعرض عليه شروطاً أفضل مما توقع أدواكر ، قوامها أن يحتفظ أدواكر بلقبه الملكي ويشارك في حكم إيطاليا ، غير أن ذلك كان مجرد ترغيب وإغواء من قبل ثيودريك لأنه بمجرد استسلام أدواكر وتسليمه سلاحه ، وتقدمه الى معسكر ثيودريك اغتيل في خسة ونذالة أثناء وليمة دعى اليها ، بعد عشرة أيام فقط من سقوط رافنا ، وكانت هذه الجريمة هي أبشع ما ارتكبه ثيودريك من جرائم في حياته الطويلة[٤] . وهكذا قتل أدواكر ، وانتهت مملكته على يد ثيودريك القوطي الشرقي ، الذي بدأ في إرساء دعائم مملكة قوطية جديدة في إيطاليا ابتداء من غزوه لها في سنة ٤٨٩[٥] .

---

(1) Oman ; op. cit p. 17
(2) Lot: op. cit p. 23Ƨ
(3) Helmolt: op. cit, p. 3455
(4) Camb. Med. Hist. V. I. p. 440
(5) Cantor. Med. Hist. p. 137

الفصل السابع

مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا

ثيودريك العظيم - بعض ملامح شخصيته الفذه - تسامحه الدينى - توطين القوط الشرقيين بإيطاليا وإرساء دعائم الحكم الجديد - حكومة ثيودريك فى إيطاليا - إهتمام ثيودريك بمظاهر الحضارة الرومانية وحفاظه عليها - ثيودريك والإمبراطورية البيزنطية - ثيودريك وجيرانه فى الشمال - علاقة ثيودريك بجيرانه فى الغرب من الفرنجة والقوط الغربيين والبرجنديين - ثيودريك والوندال - السنوات الأخيرة من عهد ثيودريك ومشكلة وراثة العرش - اضطراب حكمه واضطهاده الكاثوليك - وفاة ثيودريك العظيم واضمحلال المملكة القوطية - خلفاء ثيودريك فى إيطاليا - غزو جستنيان لإيطاليا - المقاومة الباسلة للقوط الشرقيين فيها - نهاية المملكة القوطية الشرقية .

كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب الجرمانية تهيؤاً لإقامة مملكة جديدة ، وإرساء دعائم حكم مستقر ، وأكثر القبائل الجرمانية استعدادا لتطوير دولتهم وتنمية نظمها ومدنيتها ، وإذا كان هناك رجل يمكن أن ينهض بذلك العبء ، فلم يكن أحد أنسب من ثيودريك العظيم القيام بهذا العمل (١) ، فقد قضى عشر سنوات من حياته ضيفا على القسطنطينية اطلع خلالها على أحوال الامبراطورية

(1) Oman : op. cit. p. 20

البيزنطية ، ووضع يده على نقاط ضعفها وقوتها ، وخبر عن كثب نظامها الإدارى، وعرف أوجه تفوق الإدارة الرومانية وعيوبها وتأثر كثيرا بالنظم البيزنطية (١)، وقضى نحو عشرين سنة من عمره قائدا لقبيلته فاكتسب خبرة طويلة فى مجال الحرب ضد الرومان وضد البرابرة أيضا (٢) ، لدرجة جعلت رجال الدولة الإيطاليين يرونه خبيرا بإدارة إمبراطورية المترامية ، ماهرا فى شئون حكمها، ورأى فيه المحاربون من القوط القائد القبلى الماهر ، والحربة القوية فى جيش القوط . ولكن ثيودريك كان أكثر من مجرد رجل دولة ومحارب فذ ، فقد كان واسع الأفق عميق الأفكار بعيد النظر صائب الرأى ، حتى لقد تغنى الناس بحكمته وصاغوها فى مجموعة كبيرة من الأمثال وعوها تماما ، وحفظوها طويلا (٣) . فباستثناء حادث واحد أو اثنين لطخا سجله أو شانا أعماله فيمكن القول إن حكمته وأفكاره العظيمة كانت مستلهمة من قلبه الطاهر ، وعمله البار الصالح ، فقد كان الوحيد بين ملوك الجرمان الذى استطاع أن يكبح جماح همجية القوط وقسوتهم ، ويضع حدا لتهورهم وتبربرهم ، ويعامل الإيطاليين معاملة كريمة (٤) والملك الوحيد الذى لم يغتر بمظاهر التعظيم والتبجيل من قبل رعاياه ، ونظر إلى نفسه على أنه أصبح قاضيا نصب على عرش ليتعامل مع الناس ويحكم بينهم بالقسطاط المستقيم ، كما كان الملك الوحيد بين ملوك الجرمان والرومان على حد سواء الذى أظهر قدرا كبيرا من التسامح وعدم الميل للظلم أو العدوان أو الاضطهاد (٥) .

---

(1) Pirenne: op. cit. p. 43
(2) Camb ؛ Med. Hist. V. I. pp. 437-8
(3) Oman: op. cit. p. 20
(4) Cantor. Med. Hist. p. 142
(5) Lot : op. cit. p. 241

والواقع أنه لم تأت ملكية قبل ألف سنة من عهد ثيودريك يمكن أن توصف بأنها أخذت برأى ثيودريك وإعلانه الشهير بأن « الدين إنما هو شيء لايمكن للملك أن يتحكم فيه ، ولايمكن إجبار أحد على اعتناق دين على غير رغبة منه ، ولايتفق مع ميوله » (١) . فعلى الرغم من أنه كان أريوسيا ، فقد أظهر تسامحا جما مع الكاثوليك ، استخدمهم فى الوظائف الحكومية ، بل إنه أظهر تسامحا كبيرا مع اليهود ، فتمتعوا بفترة طيبة وحكم عادل فى ظل دولته ، فى الوقت الذى أظهرت فيه كل ممالك الدنيا نوعان من القسوة والتشدد نحوهم (٢) ، فضلا عن أن هذه السياسة الدينية المعتدلة لم تتغير بتغير نزعات رعاياه الدينية أو المذهبية ، فهو الذى نادى بأنه « ينبغى أن يعامل جميع الرعايا بالعدل ، ولايحرم من التمتع به حتى أولئك الذين ليس لهم عقيدة » (٣) .

ولم يقتصر نبوغ ثيودريك على ما أظهره من كفاية فى مجال الإدارة وفى ميدان الحرب ، وعلى آرائه الطيبة فى مجال الدين والعقيدة ، وإنما ظهرت كفايته أيضا فى عملية إرساء دعائم مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا ، وتوطين شعبه بوطنه الجديد ، فقد كانت الأرض التى صادرها أدواكر قبل ذلك بنحو سبعة عشر عاما ، وهى ثلث أراضى إيطاليا ، يمكن أن تشبع نهم القوط ، وتكفى لتوطينهم فى البلاد (٤) ، لأن الجانب الأعظم من القبائل المتحالفة تحت قيادة أدواكر كان قد هلك فى المعارك الحربية ، وتعرض من نجا منهم لعمليات إبادة شديدة إبان

(1) Oman: op. cit. p. 21

(2) "Letters of Cassiodorus in Theodoric name" trans. by Hedgkin. in Med. World. by Canter. p. 78

(3) Oman: op. cit. p. 21

(4) Cantor. Med. Hist. p. 143

ثورات الشعب التى قام بها الايطاليون بعد هزيمة أدواكر واستسلام رافنا ، ولذلك أبيح لثيودريك أن ينزل رجاله فى أراضيهم دون أن يلجأ إلى نهب ممتلكات الأهالى (١) ، وإن كان قد هدد فى البداية بأنه سوف يعاقب أولئك الذين تعاونوا مع أدواكر أو ظلوا على الولاء له لفترة أطول ، غير أنه عاد فى النهاية إلى العفو عنهم ، وهكذا استقر القوط بين رعاياهم الجدد ، دون مصادرة أو سلب أو عدوان ، فنزلوا بكثافة على طول وادى نهر البو وفى Picenum ، كما نزلوا فى تسكانيا ووسط إيطاليا فى هيئة جماعات متفرقة دون تركيز ، أما فى جنوب إيطاليا فلم يخترق سوى القليل منهم على الاختراق والذهاب إلى هناك ، ولكنهم استقروا فى الجهات التى نزلوا فيها ليشكلوا جانباً من سكان الريف ، وعنصرا هاما من عناصر السكان فى المدن الملكية الرئيسية مثل رافنا وبافيا وفيرونا (٢) .

والواقع أن خطة ثيودريك فى حكم إيطاليا تستحق منا دراسة واعية ، لأنها كانت تجربة هامة لشعب جرمانى فى بلد عريق مثل إيطاليا، ونبادر فنقول بأن تلك الخطة هى التى جعلت لثيودريك منزلة سامية بين ملوك العصر ،وجعلت حكومته موضع الاحترام فى داخل إيطاليا وخارجها (٣) ، ومكنته من إقامة مملكة قوطية وراثية فوق التراب الإيطالى ، وبين الشعب الرومانى صاحب التراث العظيم والتاريخ الحافل ، إذ لم يلغ ثيودريك بقايا النظم الإدارية الرومانية التى وجدها قائمة ، ولكنه على عكس ذلك جد فى إخضاع القوط للقانون الرومانى،

(I) Camb, Med. Hist: V, I, p. 447

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 448

(3) Cantor: Med, Hist. p. 138

وخفف الضرائب على الطبقات الدنيا ، وتوخى حد القصد والاعتدال فى جبايتها ، واهتم باتباع العدل والمساواة مع رعاياه (١) ، وأرخ الوثائق الرسمية بسنوات حكم الإمبراطور الشرقى لا بسنوات حكمه هو ، ونقش صورة الإمبراطور على وجه العملة وصورته هو على ظهرها ، وحاول التزام الاعتدال فى علاقاته مع السناتو ، وأقر القنصل الرومانى فى إيطاليا ، واكتفى بإصدار القرارات دون سن القوانين (٢) . والواقع أن ثيودريك كان حاكما مستنيرا متسامحا ، لم يدخر وسعا فى أن يضفى على حكمه صفة الشرعية وأن يحمى الإيطاليين من الاضطهاد ، بل حاول أن يشعر الإيطاليين بأنه مجرد قائد عسكرى يتولى الدفاع عنهم نيابة عن الإمبراطور ، ورد المغيرين من الجرمان وغير الجرمان عن إيطاليا ، واتخذ رافنا عاصمة له وأقام بها قصرا واتخذ من الكنائس الكثيرة ما يظهره فى ثوب الحاكم الورع (٣) . حاول ثيودريك إذن الحفاظ على النظم الرومانية بإيطاليا ، فلم يغير بها سوى تغييرات طفيفة ، فأقر السناتو ، والنظم الإدارية والوظائف العامة والمدارس ، ولم يحاول اغتصاب أراضى الأهالى ، بل اكتفى بحيازة الأراضى العامة لقومه دون نزع ملكية الأراضى الخاصة ، كما سمح للرومان بشغل الوظائف الإدارية والمدنية الكبرى فى الدولة (٤) .

ويبدو أن ثيودريك كان مقتنعا بأنه ينبغى أن يبقى نظامان للادارة جنبا

---

(1) " Letters of Cassiodorus. " in Med. world. Cantor, pp. 75—6

(2) Ostrogorsky: op. cit. p.63
Pirenne; op. cit. p. 46

(٣) لقر ، نفس المرجع ص ٣٣

(4) Lot; op cit. p. 241

إلى جنب فترة من الزمن فيحكم القوط ويعاملون قانونيا طبقا لنظمهم وإدارتهم وقوانينهم وعرفهم وعلى يد الكونتات الذين أقامهم فى كل إقليم فى إيطاليا ، فى حين يخضع الرومان ويعاملون طبقا لقوانينهم الرومانية(١) ، أما إذا حدث نزاع بين قوطى وروماني ، فتحال القضية إلى كونت قوطى يشترك معه قاض إيطالى النظر فيها . وكان بلاط ثيودريك مثل بلاط غيره من ملوك الجرمان فى تلك الفترة فى كثير من الأوجه ، فقد أحاط نفسه بمجموعة من الحراس الخصوصيين ، من المحاربين العسكريين يمثلون رجال الملك الذين يقومون على خدمته ويتحولون إلى حرس خاص له فى ميدان القتال(٢) ، وكان على رأس هؤلاء جميعا تابعان أو ثلاثة أتباع دائمون يمثلون كبار الموظفين فى البلاط وهم الذين شهدتهم كثير من الممالك فى أواخر العصور الوسطى ، هذا فضلا عن حاجب آخر أو أمين القصر ، اتخذه ثيودريك أيضاً(٣) ، ولعل ما حازته حكومة القوط الشرقيين من قبول فى إيطاليا يرجع إلى ما أبداه ثيودريك من حرص على عدم مزج القوط بالإيطاليين ، وما أولاه من اهتمام بأن يعيش الفريقان معا يكمل كل منهما الآخر ، القوط بما توفر لهم من النشاط والحيوية والرومان بما حازوه من مهارة وعلم وحضارة ، وبفضل تعاونهما يمكن أن تنشط الآمال لبعث أمجاد روما ، وعلى الرغم مما أبداه ثيودريك من حرص على أن يخضع الجميع لقانون واحد(٤) ، لكي يحقق العدالة بين الجميع ، فإن جيش الغزاة ظل يرابط فى البلاد ويخضع فى كثير من الجوانب لقانونهم الخاص ، وما أحرزه ثيودريك من نجاح فى حمل

(1) "Letters of Cassiodorus ." Med. world: pp.76-7

(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 442

(3) Oman: op. cit. p. 23

(4) Pirenne : op. cit. p. 40, p. 47

قومه على الخضوع للقانون الروماني لايمثل إلا قدرا ضئيلا ، وإن أدى في النهاية إلى أن يفقد القوط الشرقيون بمرور الوقت قانونهم الخاص دون بقية العناصر الجرمانية(١) . غير أن ثيودريك نجح كثيراً في نظمه الإدارية ، فاحتفظ بنظام كامل للموظفين الرومان ، يحملون الأسماء القديمة التي كانوا يحملونها على عهد الإمبراطورية (٢) ،وأظهر ثيودريك مهارة عظيمة في اختيار أكثر الرعايا الإيطاليين إخلاصا وولاء له ، وقرب إليه إثنين من كبار الموظفين الرومان هما ليبريوس Liberius وكاسيدورس Cassiodorus ، وشغل كل منهما على التوالي وظيفة مستشار الملك وتمتع كل منهما بثقته الكبيرة(٣) .

وإذا لم يكن لدينا الوقت والمساحة الكافية للحديث عن كل إصلاحات ثيودريك في مجال الإدارة ، فإننا نكتفي بالإشارة إلى أن يده الإصلاحية قد امتدت إلى كل اتجاه في إيطاليا فلقيت حكومته قبولا من الإيطاليين ، للاهتمام الكبير الذى أبداه بالحضارة الرومانية (٤) ، فضلا عن حرصه على إنقاذ إيطاليا من حالة الفوضى والخراب وإمتاعها بفترة من السلام امتدت ستة وثلاثين عاماً ، وتوسيعه إياها، وإحاطتها بسياج من الدبلوماسية الواقية وإضافةإقليم بروفانس الغنى إليها وأجزاء أخرى كما سنفصل ، واهتم بإصلاح الطرق الرومانية القديمة وحفر القنوات المائية وتطهيرها ، وإعادة حفر المصارف والترع ، وإقامة المباني

(1) Oman: op. cit. p. 22

(2) Lot: op. cit. pp. 240-I

(3) Vasiliev : op. cit. pp. I33-34
Pirenne: op. cit. p. II9
Seidlmayer : Currents of Med. thought. pp, 8-9

(4) Katz: op. cit. p. II0

الفخمة والقصور الرائعة وعنايته الكبيرة بتجميل روما (١)، حتى إنه كان يخرج فى كل سنة مائتى رطل ذهب لترميم المبانى القديمة والاهتمام بالآثار والتماثيل، ومازالت مدينة رافنا الجميلة تضم رفات هذا الملك الجرمانى، كما تحفظ شهير آثاره ونتاج عنايته الدائبة بآثارها ومبانيها وسقاياتها(٢). ولقد حرص ثيودريك على حضور مناقشات مجلس السناتو Senate ، واشترك هو نفسه فى تلك المناقشات، كما حرص على تقوية هذا المجلس عن طريق تعيين بعض أعضائه من القوط Gothic Senators وإلى جانب ذلك اهتم بإعادة تنظيم فرض الضرائب، فخفف كثيرا عن كاهل الأهالى وأنعش الخزانة الحكومية (٣)، وشجع كثيراً نمو الفلسفة القديمة فى إيطاليا، وأظهر بالغ الاحترام لكل ما هو رومانى وقوطى أيضاً (٤).

كان نجاح ثيودريك فى نظم الحكم والإدارة الداخلية، مقرونا أيضاً بنجاح عظيم فى سياسته الخارجية، فقد وجه عنايته لإقامة علاقات طيبة مع الإمبراطورية البيزنطية، حتى قبل أن يقضى على أدوا كر، إذ أرسل إلى الإمبراطور زينون سفارة تنبئه بغزو القوط لإيطاليا (٥)، وتطلب اعتمادا إمبراطورياً منه، غير أن السفارة وصلت بعد أن مات زينون وانغمس خليفته أنسطاسيوس فى سلسلة من المؤامرات، وانهمك فى الفتن، ولم تعترف الإمبراطورية الشرقية بملك القوط

---

(1) Letters of Cassiodorus trans, by Hodgkin, Med. world pp.74—5

(٢) نفس : نفس المرجع ص ٣٤ — ٣٥

(3) Oman : op. cit. p. 23

(4) Helmolt : "Italy" B. H. VII. p. 3456

(5) Lot: op. cit. pp. 240-1

حاكماً على إيطـــاليا قبل سنة ٤٩٧م ، وفى تلك الفترة كان ثيودريك قد أكد وجوده على الحـدود مع الإمبراطورية جهـة الشرق (١) ، وقام قادته بإخضـاع بانونيا حتى سيرميوم Sirmium ، وتمدوا ذلك إلى أرض موزيا ، حيث جرت بعض الاشتباكات مع جيـــوش الإمبراطورية ، وحدثت بعض المتاعب لمدة ثلاث سنوات دون معارك كبيرة أو حـروب واسعة على الرغم مما حـدث سنة ٥٠٨ م حين قام اثنان من قادة أنسطاسيوس بالإغارة على أبوليا (٢) ، وأحـدثا فيها كثيراً من الخـراب والدمار ، ولكن سرعان ما عاد الصفاء وعقد صلح على أساس إعادة تخطيط الحدود وإرجاع الحالة إلى ما كانت عليه عند نهرى السافا والدانوب (٣) .

ولقد أعطى ثيودريك اهتماماً كبيراً لعلاقاته بجيرانه فى الشمال وفى الغرب ، فقد واصل سياسة أدواكر فى حماية الجهات الرومانية ، فيما وراء جبال الألب ، وكانت تتكون من Rhaetia ونوريكوم Noricum ، وكان هذان الإقليمان قد أصبحا جرمانيين أكثر من كونها أراضى تتحدث اللاتينية(٤) ، وقد لاذ بالإقليم الأول كثير من الألمانى Alamanni أو الســويبيين الذين طردهم كلوفس الفرنجى سنة ٤٩٦ من أراضيهم على نهـــر المـاين والنكر Neckar ، وقد سارع هؤلاء بالاعتراف بتبعيتهم لثيودريك فى مقابل حمايته لهم من متـابعة الفرنجـــة

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II. p. 451
(2) Ibid. p. 451
(3) Oman: op. cit. pp. 24-5
(4) Ibid. p. 25

ومضايقاتهم ، أى أن الألمانى كانوا من الداخلين فى طاعته(١) ، وإلى الشرق من ذلك وفى الإقليم الآخر (نوريكوم) أعطت هجرة السكان الرومان من هذا الإقليم فرصة مواتية لمختلف العناصر التيوتونية وبقايا البطون المجزأة ، من الروجيين وغيرهم الذين أطلقوا على أنفسهم حينذاك « البافاريين » ، فرصة للاستقرار بتلك الأراضى والمسارعة أيضا إلى الاعتراف بتبعيتهم لثيودريك مثلما فعل الألمانى من قبل بل بادروا بدفع الجزية له (٢) .

أما بالنسبة لعلاقات ثيودريك بجيرانه فى الغرب ، فقد وجد ثيودريك منذ البداية جبال الألب تحد مملكته من الجهة الغربية نظراً لأن أدواكر كان قد تنازل للقوط الغربيين عن مرسيليا والمدن الأخرى التى كانت داخلة فى طاعة الإمبراطور قبل سنة ٤٧٦م ، وفيما وراء الألب كان ألاريك القوطى الغربى يتحكم فى مصب نهر الرون وكل الساحل البروفنسالى ، بينما كان جندوباد البرجندى يحكم فى الرون الأعلى والأوسط(٣) من مدينة أفينون حتى بيسانسون ولانجرى Langres ، وإلى الشمال من البرجنديين والقوط الغربيين وفيما وراء حدود الألب كانت تقع مملكة الفرنجة الجديدة ، وكانت حينذاك تمتد حتى نهر اللوار وأعالى نهر السين ، وقد تعامل ملك القوط الشرقيين كثيرا مع هذه الممالك الثلاث(٤). بدأ ثيودريك عهده بإقامة مصاهرة سياسية مع كلوفس ملك الفرنجة مؤملا أن تساعد هذه المصاهرة على إقامة علاقات ود بين المملكتين ، فتقدم يطلب يد أخت كلوفس « أجوفيدا Augefieda » على ذلك يقرب منه أولئك الغزاة المتحمسين فى

---

(1) Helmelt: op. cit. p. 3456
(2) Camb . Med· Hist. V.I.p. 451
(3) Ibid : p. 452
(4) Oman: op. cit. p. 25

غالة (١) ، وقد أنجبت له هذه الزوجة ابنته الشرعية الوحيدة أما لسونثا Amalaswintha ، على الرغم من أنه كان قد أنجب ابنتين أكبر منها من عشيقة له ، قبل قدومه إلى إيطاليا ، وما لبث ثيودريك أن زوج إحدى ابنتيه هاتين من سجسموند بن جندوباد البرجندى ووريثه ، والأخرى من ألاريك القوطى الغربى ، ولهذا غدا كل جيرانه من أنسبائه ، وممن لهم علاقات مصاهرة به (٢) .

غير أن هذه المصاهرات لم تضمن السلام مع أولئك الأنسباء الجدد ، ففى سنة ٤٩٩ هاجم كلوفس الفرنجى جاره جندوباد البرجندى لينتزع منه المملكة ، ونجح فعلا فى إلحاق الهزيمة به وطرده إلى أقصى نقطة فى جنوب مملكته فى أفينون . ولكن كلوفس ما لبث أن خسر كل ما أنجزه فى برجنديا وانقلب ليحارب ألاريك ملك القوط الغربيين ، ولقد جاهد ثيودريك عبثا ليمنع الحرب بين جيرانه وأنسبائه (٣) ، ولم يكن سعيدا حين قام كلوفس سنة ٥٠٧ باجتياح جنوب غالة ، وقتل زوج ابنته ألاريك فى المعركة (٤) ، وعقده تحالفا مع البرجنديين للقيام بتدمير دولة القوط الغربيين ، غير مقيمين وزنا لوساطة ثيودريك ، وحين أصبح أماليك - حفيد ثيودريك - ملكا على القوط الغربيين بعد مقتل والده ألاريك ، وكان ما يزال طفلا ، لم يستطع ثيودريك أن يغض الطرف عما يجرى ضد حفيده فى جنوب غالة وأسبانيا ، وتحتم عليه أن يقوم بعمل يحمى به مملكة الصغير (٥) ،

(1) Lot: op. cit. p. 242
(2) Cantor. Med. Hist. p. 141,
(3) Letters of Cassiodorus. p. 76
(4) Helmolt: op. cit. p. 3456
(5) Pirenne: op. cit. p. 64

ولهذا أعلن ثيودريك الحرب على الفرنجة والبرجنديين معا ، وأرسل جيوشه عبر جبال الألب لتنقذ بقايا المملكة القوطية الغربية فى غالة ، وعبرت فرقة كبيرة من جيشه فعلا جبال الألب ونزلت فى برجنديا ، على حين دخلت فرقة أخرى إقليم بروفانس ، ونجحت فى ضرب الفرنجة والبرجنديين المحاصرين لمدينة آرل (١) ، وبشىء من الحظ استطاع ثيودريك أن يستعيد كل غالة جنوب الديورانس و Cevennes سنة ٥٠٩م ، حتى إن غزو كلوفس اقتصر على إقليم اكوتين Aquitanne (٢) ، وأصبح الطريق حينذاك مفتوحا أمام الجيوش القوطية الشرقية للسير داخل أسبانيا لمعاونة الطفل أماليك على أعدائه والثائرين ضده فى أسبانيا نفسها (٣) .

ولقد غدا ثيودريك فى الفترة التالية ، ولمدة إحدى عشرة سنة (٥١١ — ٥٢٢م) أى حتى وصول أماليك سن الرجولة ملكا على القوط الغربيين بالاشتراك مع حفيده الطفل ، فأتيح له أن يوحد قسمى القوط مرة أخرى بعد انفصال دام نحو مائتى عام (٤) ، وأطيعت أوامره وسرت قراراته فى أسبانيا مثلما سرت فى إيطاليا ، وأقام الكونت ثيوديس Theudis — النبيل القوطى الشرقى — وكيلا له على جزء من مملكة القوط الغربيين ، واتخذ ناربون مركزاً له ، كما عهد إلى ليبريوس الرومانى بإدارة الإقليم القوطى الغربى من غالة ، حيث اتخذ المدينة القديمة آرل مركزاً له (٥) . وغدت سلطة ثيودريك تمتد من

---

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 286
(2) Oman: op. cit. p. 26
(3) Helmolt: op. cit. p. 3456
(4) Lot: op. cit p. 242
(5) Omon: op. cit. p. 27

سيرميوم Sirmium إلى قادس Cadis ومن الدانوب الأعلى إلى صقلية ، أى أنه حكم النصف الأكبر من الامبراطورية الرومانية القديمة فى الغرب ، ومارس نفوذا واسعا فى غالة وإفريقيا اللتين لم تكونا داخلتين فى حوزته فعلا ، وفى سنة ٥١١ توفى كلوفس الفرنجى وتقاسم أبناؤه الأربعة مملكته ، وعقدوا سلاما مع القوط الشرقيين ، بينما كان جندوباد البرجندى سعيدا بحلول السلام ووقف استعمال القوة من جانب جيرانه ، ويعنى ذلك أن السلام قد استتب لمدة تقرب من ثلاثة عشرة سنة (٥١١ - ٥٢٣) قبل أن يصبح ثيودريك فى سن متقدمة ويضطر بغير تدبير إلى التدخل فى غالة(١)، وكان ثيودريك قد زوج ابنته غير الشرعية الكبرى لسجسموند الذى أصبح ملكا على برجنديا وكان طاغية متشككا كئيبا، أقدم على عمل مشين وجريمة بشعة أثار بها غضب ثيودريك وحنقه ، حين قام بقتل ابنه وولى عهده سيجرك Sigeric حفيد ثيودريك ، ولهذا عاقبه ثيودريك بأن تحالف مع الفرنجة وقام معهم بمهاجمة برجنديا ، فاستولى على الأراضى الواقعة بين الديورانس والدروم Drpme بما فيها من مدن هامة ، حتى بلغت مملكة القوط الشرقيين أقصى اتساع لها جهة الشمال الغربى(٢) .

أما عن علاقة ثيودريك بالوندال ، فكان قد زوج ابنته امالا فريدا Amalafrida إلى ملك الوندال العجوز ثراساموند (٤٩٦ - ٥٢٣) ، فمارست أمالافريدا نوعا من السلطة على زوجها الكهل ابتداء من سنة ٥٠٠م(٣) ، غير أنه يبدو أن ثيودريك أراد أن يقوى هذه المصاهرة مع الوندال فعامل ملك الوندال على أنه أخ أصغر له، إن لم يكن تابعا إقطاعيا له وحين جرؤ ملك الوندال على مساعدة

---

(1) Pirenne; op. cit. p. 64
(2) Oman; op. cit. p. 27
(3) Lot , op. cit, p. 247

ثائر أسبانى ، غضب ثيودريك وفرض عليه الجزية (١) ، وأمره ألا يفعل شيئا منذ ذلك الوقت فصاعدا دون استشارة زوجته أمالافريدا ، والغريب أن ثراساموند لم يبد أى اعتراض على ذلك ، بل إنه أخـذ يفعل كل ما فى وسعه ليسترضى ثيودريك ، إذ لم يكن على استعداد للدخول فى أى حرب خارجية قد تجلب على مملكته الخراب والدمار ، ولا سيما أن دولة الوندال اضمحلت منذ وفاة هونريك سنة ٤٨٤ م وتعرضت للفتن الداخلية وثورات المغاربة ، وتململ الكاثوليك ، ولهذا حاول ثراساموند ألا يغضب ثيودريك أو يدخل فى صراع معه (٢) .

لكن قدر لثيودريك أن يستثار فى سنة ٥٢٣ م على يد هلدريك بن ثراساموند من زوجته الرومانية إيودوكيا الكاثوليكية ، وكان أول ملك وندالى يعتنق الكاثوليكية ويجاهر بها وينهى الاضطهاد الطويل للكاثوليك فى شمال إفريقية (٣) ، فقد تزعمت زوجة والده المتوفى «أمالافريدا» الحزب الثائر ضده ، الكاثوليكيته من ناحية ولأنها كانت تطمع فى أن يعتلى العرش أحد أبناء إخوة زوجها الراحل ، غير أن هلدريك نجح فى إلحاق الهزيمة بالثوار وأسر أمالافريدا وزج بهـا فى السجن غير عابىء بغضب أخيهـا ثيودريك العظيم (٤) ، ويبدوا أن ثيودريك شغل عن هذا الملك الثائر بمشاكله الداخلية ، فلم يقم ضده بعمل حربى ، واقتصر الأمر طوال السنوات الثلاث الباقية من عمر ثيودريك على مجرد سجن هـذه الملكة ، ولكن بمجرد وفاة ثيودريك سنة ٥٢٦ م أمر هلدريك بقتل أمالافريدا

---

(1) Oman ; op. cit p. 28
(2) Camb. Med. Hist. V. I. p. 313
(3) Oman : op. cit. p. 29
(4) Camb. Med. Hist. V. I. p. 314

المسنة فى سجنها ، فارتكب بذلك عملا بشعا يضاف إلى سجل الوندال الحافل بالمآسى والآلام(١) .

ولقد عكرت مشكلة وراثة عرش مملكة القوط الشرقيين بإيطاليا صفو حياة ثيودريك فى سنواته الأخيرة ، فهو لم ينجب أولادا ذكوراً ، وكان قد زوج ابنته الشرعية الوحيدة أمالاسونثا Amalaswintha إلى أمير قوطى غربى يدعى إيوثاريك Eutharic ، كان يؤمل فيه الحصافة والشجاعة ، وبنى ثيودريك خطته على أساس أن يتقاسم هذا الأمير وزوجته الحكم فى المملكة، غير أن إيوثاريك مالبث أن توفى سنة ٥٢٢ م فى حياة ثيودريك تاركا طفلا صغيرا فى الخامسة من عمره هو أثالريك Athalaric (٢) . وقد أدرك ثيودريك أن اعتلاء طفل وامرأة العرش ـ بعد وفاته ـ ينطوى على خطورة كبيرة ، ولا سيما أن ابن أخيه ثيوداهات Theodahat ، وهو أقرب وريث للعرش ، كان معروفا بميله للتآمر وبأنه نهاز الفرص لا أمان له (٣) ، واندلع النزاع المذهبى بين الآريوسيين والكاثوليك ليضيف إلى متاعب هذا الملك العجوز ويجعل سنواته الأخيرة مليئة بالآلام والمتاعب(٤) ، وكان ثيودريك قد أظهر تسامحا جامعا للكاثوليك فى بداية عهده، وحاول التوفيق بين أتباعه الآريوسيين وسكان إيطاليا الكاثوليك (٥) ، ولم يلجأ إلى مصادرة الكنائس الكاثوليكية لصالح قومه ، ولكن الخلاف المذهبى

---

(1) Oman; op. cit, p. 29
(2) Pirenne: op. cit. p. 64
(3) Helmolt: "Italy" in B. H. VII. pp. 3458-9
(4) Lot: op. cit. p. 251
(5) Cantor. Med. Hist. p. 143

مالبث أن استشرى بين الجانبين ، وأظهر القوط أنهم غير مستعدين التخلي عن مذهب أسلافهم ، وتبرم الرومان تبرما شديدا من أولئك الأريوسيين المتبربرين(١)، ومع ذلك مرت السنوات الأولى من حكم ثيودريك دون أن يتعكر الصفو بين الجانبين ، ويبدو أن ذلك كان بسبب ظروف العصر نفسه ، فلم يكن الامبراطور البيزنطى متحمسا الكاثوليكية ، والفرنجة يضربون فى وثنيتهم ، بينما كان القوط الغربيون والبرجنديون والوندال أريوسيين(٢) ، غير أنه حدث ان تبدلت تلك الظروف ، فاعتنق كلوفس الفرنجى المسيحية الكاثوليكية سنة ٤٩٦ م وأظهر إمبراطور بيزنطه تعاطفا بالنسبة الكاثوليك سنة ٥١٨ ، وذهب فى تعاطفه إلى حد التحالف مع الفرنجة للقضاء على المملكة الأريوسية فى إيطاليا(٣) ،ومنى القوط الغربيون بهزيمة ساحقة فى فوييه سنة ٥٠٧ م وتراجع المد الأريوسى إلى ماوراء جبال البرانس فضلا عن تحول البرجنديين إلى الكاثوليكية ، كل ذلك أدى إلى أن يستبد القلق بثيودريك، فاعتقد أن حلفاً كاثوليكياً - يجرى تكوينه لمناهضته، فسيطر الاضطراب على حكمه فى السنوات الأخيرة،وأخذ فى اضطهاد رعاياه(٤)، واعتقد أن الإيطاليين لديهم الاستعداد للانحياز إلى جانب الامبراطور الشرقى بمجرد أن يختفى ثيودريك من العرش ويعتلى وريثه الطفل(٥) ، ويبدو أن تلك الفكرة كانت صائبة إلى حد بعيد ، فلم يكن أغلب رعاياه الإيطاليين ، برغم تسامح ثيودريك وحكمته .. على استعداد لتقبل حكم دولة اريوسية وملك

---

(1) Grant : op. cit. p. 131
(2) Cantor: op. cit. p. 136
(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 452
(4) Heard er & Waley : op cit. p. 29
(5) Cantor. op. Cit. p. 144

متبربر إلى الأبد ، فأخذوا يتعجلون اليوم الذى يفسح فيه هذا الملك المجال لغيره حتى يتسنى لهم وضع حد لحكم هذه الدولة الاريوسية ؛ ويبدو أن مجلس السناتو كان قد كاتب الإمبراطور الشرق - جستن - سرا فى هذا الشأن ، فتسبب هذا فى قيام ثيودريك باضطهاد الإيطاليين وتفجير الصراع معهم(١) ، وأصدر فى سنة ٥٢٣ م قرارا يحرم على الإيطاليين حمل السلاح ، وأعقب ذلك بعمل مشين تعرض بسببه لوم المعاصرين ، حين اتهم عضو السناتو ورئيس الدواوين بإيطاليا بوئيثيوس Boethius بالخيانة والاتصال بالإمبراطورية البيزنطيه ، وزج به فى السجن حيث ألف كتابه الشهير سلوى الفلسفة Consolalion of Philosophy يدافع فيه عن نفسه ويلطخ اسم ثيودريك ، كتبه وهو ينتظر الموت ويعانى آلام المصيبة(٢) ، ولهذا جاء عملا هاما حمل الناس على مناصرة هـذا الفيلسوف وكره ثيودريك ، ثم مالبث هـذا أن أمر بضربه بوئيثيوس بالهراوات حتى أسلم الروح(٣) ، ولم يكتف ثيودريك بهذا بل قتل أيضا رئيس مجلس السناتو سياخوس Symmachus سنة ٥٢٥م ليلحق ببوئيثيوس وأدواكر ، لتكون هذه الأعمال أسوأ نقطة فى تاريخ ثيودريك ، وتدمغ بالوحشية أعمـاله فى أواخر أيامه(٤) .

(I) Lot: op. cit. p. 25I

(2) Seidlmyez : Currents of Med. thought. (trans. by barker) pp: 7-8

(٣) ديفز: أوروبا فى العصور الوسطى ص ٣٦ - ٣٧ .

جيبون : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ج ٢ ص ٣٨٧ .

(4) Oman : op. cit. p. 3I

ولقد شارك إمبراطور الشرق جستن الأول (٥١٨ - ٥٢٧م) فى صنع المأساة التى ختم بها ثيودريك حياته الحافلة ، حين بدأ فى حركة اضطهاد عنيفة للآريوسيين فى الشرق ، فأوغر صدر ثيودريك وزاد فى حنقه ، فسارع هذا فى سنة ٥٢٥ بإرسال مبعوث خاص هو البابا يوحنا الأول، لإقناع الإمبراطور بالعدول عن تلك السياسة (١) ، لكن هذا البابا استقبل فى القسطنطينية بحفاوة بالغة ، وقام بتتويج الإمبراطور ، ولم يحقق شيئا مما أرسل من أجله ، فزاد غضب ثيودريك وأمر بالزج به فى السجن بمجرد عودته وتوفى فى سجنه فى نفس العام (٥٢٦ م) بعد أن اعتلت صحته كثيراً (٢) ، ثم مالبث ثيودريك أن أصدر أمرا بتسليم جميع الكنائس الكاثوليكية للآريوسيين ، فى أغسطس سنة ٥٢٦ م ،لكنه لم يلبث أن توفى قبل أن يجرى تنفيذ هذا القرار ،وبدأت مملكته الآريوسية تترنح قبل أن تتهاوى نهائيا (٣).

ولقد راج كثير من القصص والأساطير حول وفاة ثيودريك ، ولاسيما أن وفاته حدثت بعد وفاة البابا يوحنا بقليل ، وقيل إن كثيرا من الأشباح كانت تحوم حول جثمانه وتأتى من الأفعال ما يؤكد تعذيبها لروح ثيودريك(٤)،ولكن يبدو أن كل ذلك كان مجرد رد فعل لدى المعاصرين انعكاسا لإحساسهم ببشاعة ما قام به ثيودريك من أعمال ، وتشفياً منها ، ومهما يكن من أمر فقد توفى ثيودريك سنة ٥٢٦م ، بعد حكم امتد ثلاثة وثلاثين عاما فى إيطاليا ، واثنتى عشرة سنة على

---

(1) Cantor : op. cit, p. 144

(2) Oman : op, cit. p. 31

(3) Camb. Med. Hist. V. II, p. 18

(4) Oman : op. cit, p. 32

أسبانيا ، وكان عمره حينذاك اثنين وسبعين سنة ، ودفنه القوط خارج باب رافنا فى مقبرة كان قد بناها قبل ذلك بسنوات طويلة (١).

اعتلت أمالاسونثا وصغيرها العرش، بعد وفاة ثيودريك، فأخذت تحسن علاقاتها مع الإمبراطورية الشرقية وتستميل العنصر الرومانى فى إيطاليا (٢)، وغيرت سياسة المملكة تجاه مجلس السناتو وتلطفت مع الكاثوليك ، وعطفت على أبناء بوثيثيوس وسيماخوس Symmachus، وأعادت إليهم أملاكهم، واستخدمت الرومان من جديد فى الوظائف الحكومية وفى الجيش ، حتى إنها عينت ليبيريوس - مرة ثانية - فى وظيفة هامة مكنته من الوصول إلى إمرة الجيش القوطى(٣)، ولهذا أظهرت الإمبراطورية الشرقية موافقتها على ذلك وأيدت هذه الخطوات الجديدة. ويبدو أن هذه السياسة قد أغضبت القوط وقد اقترنت بانتشار إشاعة بأن نائبة الملك تبغى تسليم إيطاليا إلى الإمبراطور البيزنطى ، ثم كانت وفاة ابنها أثالريك فى سن الثامنة عشرة (٥٣٤م) عاملا جديداً فى ازدياد السخط بين القوط ، وأحست هى بثقل التبعة واضطراب الأمور ، فتزوجت ابن عمها ثيوداهات (٤)، لتتمكن من الاستمرار فى الحكم ومشاركة الملك الجديد فى السلطة ، غير أن ثيوداهات أظهر مطامعه الحقيقية فى الاستحواذ على العرش والانفراد بالسلطة، بمجرد زواجه منها ، وما لبث أن أمر بنفى أمالاسونثا إلى جزيرة نائية ثم أردف

---

(1) Camb. Med. Hist. V. I, p. 454

(2) Lot : op. cit. p. 259.
Hodgkin : "The moulding of the Nations" B.H. VII p. 3372

(3) Lot : op. cit. p. 260

(4) Oman : op. cit. p. 29, p. 80
Helmolt: "Italy" B.H. VII. p. 3458

ذلك بقتلها فى إبريل سنة ٥٣٥م ففقد القوط الشرقيون بذلك ملكتهم وصاروا على أعتاب مرحلة جديدة فى تاريخهم(١)، ولا سيما أن جستنيان تذرع بهذه الحادثة لغزو إيطاليا وتدمير المملكة القوطية فيها .

جد جستنيان فى غـــزو إيطاليا ، وتحمس بلزاريوس لإعادتها إلى حظيرة الإمبراطورية ، مستغلا ضعف الممالك الأوربوسية الأخرى وتقاعسها عن نجدة أريوسى إيطاليا (٢)، وكان تحت إمرة بلزاريوس حينذاك جيش صغير لا يكفى لإتمام هـذا المشروع لم يكن يزيد على عشرة آلاف مقاتل ، ومع هـــذا نزل بلزاريوس فى صقلية فى سبتمبر سنة ٥٣٥م ، فلقى ترحيبا شديدا من أهلها ، وأعلن البابا سروره بمقدم القوات الإمبراطورية ، على حين خذل الإيطاليون حكامهم القوط (٣)، واستولى بلزاريوس على صقلية وأخذ فى إعداد العدة للنزول بجنوب إيطاليا ، ولم يكن الملك ثيوداهات فى موقف يسمح له بحشد مقاومة حقيقية ضد الإمبراطورية الشرقية ، بل إنـــه كان أقرب إلى الرومان منه إلى القوط ، فقد ربى تربية رومانية ، وأحب الآداب والعلوم الرومانية وازدرى الجندية (٤).

نزل بلزاريوس فى إيطاليا فى نهاية سنة ٥٣٦ ، فاستولى على نابلى ، ثم دخل روما وسط ترحيب الأهالى ومظاهر فرحهم ، فى وقت كره الإيطاليون فيه

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 42, pp. 64-5

(2) Oman : op. cit. pp. 80-81

(3) Cantor. Med. Hist. p. 161

(4) DieHl : Justinian et la Civilization byzantine au VI Siecle. p. 182

حكامهم القوط لآريوسيتهم من ناحية ولأنهم غرباء على البلاد من ناحية أخرى، وبدا كأن الاستيلاء على إيطاليا لم يصبح سوى مسألة أيام قليلة ، وربما أسرع مما حدث في شمال إفريقة (١). غير أن ذلك لم يكن سوى مبالغة في التفاؤل ، فقد أظهر القوط مقدرة وكفاية في الدفاع عن البلاد ،واستبسالا عظيما في الحرب ، أكثر مما أظهر الوندال ، إذ بادروا بخلع ملكهم المهزوم ثيوداهات وجردوه من سلطاته الملكية ، وأقاموا بدله ضابطاً من أصل متواضع ، ولكنه في غاية الشجاعة - ويدعى وتيجيس Witigis كان قد أبلى بلاء حسنا في الحروب ضد الجبيداى (٢)، ولهذا استغرق مشرع استعادة إيطاليا نحـو ثمانية عشر عاما ، اندلعت فيها حروب ضارية ومعارك مروعة ، ذاق فيها الجيش الإمبراطورى كثيرا من الأهوال والمشاق وأبدى فيها القوط كثيرا من ضروب الشجاعة والإقدام (٣).

بادر وتيجيس بمحاصرة بلزاريوس في روما لأول مرة في مارس سنة ٥٣٧م، حيث تحصن القائد الرومانى ومعه نحو خمسة آلاف مقاتل،ولكن وتيجيس اضطر إلى الارتداد وفك الحصار عنها بعد نحو عام كامل أمام نجاح بلزاريوس في الدفاع عن المدينة وعنف المقاومة الرومانية (٤)، غير أن جيشا بيزنطيا ثانيا نجح في الاستيلاء على شمال إيطاليا ، وفي سنة ٥٤٠م لعبت الخيانة دورها في وضع حـد لنشاط وتيجيس فتم القبض عليه وسلم للبيزنطيين وأرسل إلى القسطنطينية حيث عومل

(1) Lot : op. cit. p. 260
(2) Helmolt : op. cit. p. 3459
(3) Hodgkin : op. cit. p. 3372
(4) Oman ; op. cit. pp. 84-7

معاملة كريمة ، وتقدم بلزاريوس فاستولى على رافنا وبسط سلطانه على أقاليم إيطاليا الوسطى والجنوبية (١)، ويبدو أن جستنيان اعتقد حينذاك أنه قهر إيطاليا وحقق أهدافه فيها ، فسحب بقايا جيوشه وأعادها إلى الشرق . غير أن القوط ما لبثوا أن عادوا من جديد إلى المقاومة بعد أن استقر رأيهم على اختيار توتيلا Totilla ملكا عليهم سنة ٥٤١(٢)، وكان توتيلا محاربا فذا حاز الإعجاب دون ملوك القوط فى تلك الفترة وجمع بين كثير من الفضائل، فكان كريما عطوفا ورجل دولة محنكا، منع المذابح التى كان القوط يحدثونها فى النساء والأطفال عند عند الهجوم على المدن وحال بين قومه وبين القيام بالإرهاب والعسف فى الأقاليم الريفية (٣)، وأصبح مثالا فريدا للفروسية الحقة فى ذلك الوقت الملىء بالدسائس والمذابح ، فضلا عن أنه لم يجعل العداء للامبراطورية البيزنطية هدفا من أهدافه ، وإنما حاول التفاوض معها ، وعرض الاستسلام التام عند اختياره ملكا ، ولما تلكأت الإمبراطورية فى إجابته، وتم اختياره ملكا فعلا ، لم يعد أمامه سوى التفكير فى إنقاذ شعبه من الدمار (٤).

ولقد نجح توتيلا بجيش لا يزيد عدده على عشرة آلاف مقاتل، فى إلحاق الهزيمة بجيش بيزنطى قوامه اثنا عشر ألف جندى قرب فانزا Fanza ، فتم فصل شمال إيطاليا عن سلطة البيزنطيين ، ثم أحرز توتيلا نصرا كبيرا فى مجيلو Mugille

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 65
Camb. Med. Hist. V.,II,pp.12-13

(2) Pirenne : op. cit. p. 60

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 439

(4) Lot : op. cit. p. 261

فى تسكاليا ترتب عليه استيلاء القوط على أواسط إيطاليا (١)، وفى ربيع سنة ٥٤٣ كان توتيلا سيد مدينة نابلى وجنوب إيطاليا فدهمه هذا إلقاء الحصار على روما ، ولهذا أرسل بلزاريوس يطلب النجدة ، فلم يحصل على معاونة تذكر نظرا لقلة الفرق العسكرية المستعدة للقتال، ففشل بلزاريوس فى التصدى للقوط وفتحت روما أبوابها لتوتيلا فى ديسمبر سنة ٥٤٦م (٢) بعد مشاق عظيمة تحملها القوط. ولقد فكر توتيلا وهو فى قمة غضبه فى القيام بتدمير روما وتسويتها بالأرض ، لولا أن أقنعه ممثل لبلزاريوس بالعدول عن ذلك لبشاعة هذا العمل وتحمله كافة المسئوليات المترتبة عليه (٣)، وشرع الملك القوطى بعد ذلك فى فتح بقية إيطاليا؛ فأضاف إلى أملاكه صقلية وسردينيا وكورسيكا ، وكون أسطولا استطاع أن يهاجم به سواحل دالماشيا وإبروس ، واتخذ توتيلا روما عاصمة له وكانت له إيطاليا أكثر مما دانت لثيودريك العظيم ، وبدا كأن أعمال جستنيان قد انهارت تماما (٤). غير أنه جستنيان بذل جهدا مضاعفا فى إيطاليا ، واختار قائدا آخر كانت له شهرة ذائعة فى ذلك الوقت هو نارسيس ليحل محل بلزاريوس ، وكان نارسيس خصيا أرمينيا اشتهر بالمقدرة الحربية والكفاية السياسية فضلا عن مرونة فائقة فى معالجة الأمور (٥)، وكان نارسيس فى الخامسة والسبعين من عمره لكنه كان مليئا بالنشاط والحماس ، وأمل فيه جستنيان تحقيق ما فشل بلزاريوس فى

---

(1) Oman ; op. cit. pp. 99-100

(2) Pirenne ; op. cit. p. 67

(3) Diehl : op. cit. p. 196

(4) Ostsogorsky : op. cit p. 65

(5) Lot op. cit. p. 262

Hussey : op. cit .p. 18

تحقيقه ، وأمده بجيش كان يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين ألف مقاتل .

قرر نارسيس أن يختار دالماشيا قاعدة لعملياته العسكرية ، وفضل أن ينزل برا فى شمال إيطاليا ليبدأ فى استعادة البلاد من القوط (١)، وترتب على نزول تلك الجيوش البيزنطية الكبيرة أن انزعج توتيلا ، وعرض أن يعترف بتبعيته للامبراطور ، وأن يدفع الجزية له ، إلا أن جستنيان رفض ، وتقدم نارسيس مباشرة من رافنا متجها نحو الجنوب ، وفى نفس الوقت تقدم توتيلا من روما لملاقاته ، وحدثت المعركة ، فى تادينو Tadinoe ، وقاتل توتيلا جيشا يفوق جيشه عددا وعدة ،إذ ضم نحو ألفين وخمسمائة من اللمبارديين قدموا من بانونيا بقيادة ملكهم أدوين (٢)، وكان نارسيس قد استطاع أن يغريه بمبلغ كبير من المال نظير هذه المعونة ، كما ضم كثيرا من الجماعات والقبائل والجند المرتزقة من أطراف إيطاليا وما حولها،حتى أصبح هذا الجيش حلفا كبيرا موجها لحرب القوط وليس جيشا واحد ، ويرجع الفضل فى ذلك إلى مهارة نارسيس ونجاحه فى جذب كثير من المحاربين الأشداء إلى صفوف جيشه(٣)، وشكل الفرسان القوة الرئيسية الضاربة فى ذلك الجيش بأسلحتهم المتفوقة واندفاعهم الشديد ، ولهذا انهارت دفاعات القوط عندما حدث الاشتباك فى ربيع سنة ٥٥٢م، واخترقتها جيوش نارسيس وجرح توتيلاجرحا قاتلا(٤)، وأرغم القوط على التقهقر فارتدوا لمحاولة لم شعثهم واستخدام مناوراتهم المعهودة ، وفى بافيا اختار القوط ملكا جديدا عليهم هو

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 65

(2) Lot: op. cit p. 262

(3) Ibid. pp. 262-3

(4) Oman: op. cit. p. 103-4

تياس Teias وعادوا للمقاومة . إلا أنهم هزموا من جديد على يد نارسيس فى كامبانيا ثم لقى تياس حتفه فى النهاية سنة ٥٥٣ بعد أن حارب حربا باسلة وقاتل قتال الأبطال ، وانتهت مملكة القوط الشرقين بإيطاليا(١) على الرغم من أن القوط استدعوا فى العام التالى (٥٥٤م) الفرنجة والألمانى لمساعدتهم ، فنزل هؤلاء فى إيطاليا وبدلا من أن يقدموامعاونتهم لمملكة القوط المتهالكة أخـــذوا فى نهب الأهالى من الأصدقاء والأعداء على حد سواء ، ثم مالبث أن انتشرت بين جيوشهم الأوبئة والأمراض ، ودفعتهم القوات البيزنطية إلى كابسوا Copua فى خريف سنة٥٥٤م ففشلت هذه النجدة ولم تحقق أهدافها ، وأدى ذلك إلى استسلام نحو سبعة آلاف من القوط كانوا قد هربوا إلى غابات الأبنين واختفوا بها ، إذ عرضوا خدماتهم على الإمبراطورية وأبدوا استعدادهم لمعاونتها ، فنقلوا إلى بلاد فارس(٢) سنة ٥٥٥م ، وهكذا اختفت مملكة القوط الشرقين بإيطاليا وزالت نهائيا من صفحة التاريخ ، على الرغم من أن بعض الحاميات القوطية ظلت تتمسك بأماكنها فى برسكيا وفيرونا فى الشمال وتقاوم مقاومة باسلة امتدت إلى سنة٥٦٣م حين تم القضاء عليها (٣)، واعتبر نارسيس محرر مدينة روما ومخلص إيطاليا كلها من الجرمان (٤)، كما اعتبر جستنيان رسول الحرية والسلام وباعث مجد روما ومحرر أهلها من الاستعمار ، على الرغم من أن حروبه فى إيطاليا أدت إلى إعادة

---

(1) Hodgkin: op. cit. p. 3372

(2) Pirenne : op. cit. p. p. 67

(3) Oman: The Hist. of the art of war p. 34

(4) Hearder & Waley : op cit. p. 29

عقارب الساعة من جديد إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين ، كما أدت إلى تدمير اقتصاديات البلاد وإتلاف مواردها ، وأحدثت كثيرا من الخراب والدمار فيها (١).

---

(1) Cantor : op. cit. p. 161

الفصل الثامن

مملكة الفرنجة فى غالة

كلوفس وتأسيس المملكة الفرنجية - سياسة كلوفس فى غالة - تحوله إلى الكاثوليكية - أثر اعتناق الفرنجة الكاثوليكية - علاقات كلوفس بكل من البرجنديين والقوط الغربيين - وفاة كلوفس وتقسيم المملكة بين أبنائه الأربعة - إعادة توحيد المملكة على يد لوثر الأول سنة ٥٥٨م - أحوال المملكة بعد وفاة لوثر حتى اعتلاء داجوبرت العرش سنة ٦٢٨ م - عهد داجوبرت (٦٢٨ - ٦٣٩) - النزاع بين نستريا وأوستراسيا وظهور رؤساء البلاط - سجبرت الثالث فى أوستراسيا (٦٣٨ - ٦٥٦م) وكلوفس الثانى فى نستريا - ازدياد قوة رؤساء البلاط فى أقسام المملكة - ببين الصغير (الثانى) أو ببين هرستال (٦٨٨ - ٧١٥م) - شارل مارتل (المطرقة) (٧١٥ - ٧٤١ م) - سياسته الخارجيــة وانتصاره على المسلمين فى تور - بواتيه سنة ٧٣٢ م - نتائج هـذا الانتصار - عـلاقاته بالكنيسة الغربية - ببين القصــير (الثالث) ٧٤١ - ٧٦٨م - سياسته تجاه الكنيسة - إنهاء عهد الميروفنجيين وتأسيس البيت الكارولنجى - سياسة ببين الخارجية - حضارة الميروفنجيين : خصائص المملكة الفرنجية - المجتمع الغالى على عهد الميروفنجيين - التنظيمات السياسية - الإدارة المحليـــة - القضاء - السياسة الدينية - النظم الاقتصادية والمالية - الجيش .

بدأ الفرنجة تاريخهم فى غالة سنة ٤٨٦ م ، بزعامة كلوفس ، بعد سقوط الإمبراطورية الرومانية الغربية بنحو عشر سنوات ، وكان الفرنجة الساليون قد استقروا على الضفة الغربية لنهر الراين ، وبدءوا دورهم محالفين ومساعدين للامبراطورية الغربية منذ القرن الرابع(١) ، وبهذه الصفة شارك الفرنجة الرومان فى صد الهون تحت قيادة القائد الرومانى الشهير إيتيوس فى منتصف القرن الخامس الميلادى(٢) ، على حين ظل الفرنجة الريبواريون قاطنين فيما وراء الراين ، وبتولى كلوفس زعامة الفرنجة الساليين سنة ٤٨١ ، بعد وفاة والده شلدريك ، بدأت فترة هامة فى تاريخ ذلك الشعب الجرمانى (٣) . ولم يكن كلوفس قد تجاوز الخامسة عشر من عمره حين اعتلى العرش ، ومع ذلك فقد بدأ نشاطه فى غالة بتوجيه ضربة ساحقة لسياجريوس الذى كان يمثل الأرستقراطية الرومانية القديمة ويتخذ من سواسون عاصمة له ، فأنزل به كلوفس هزيمة ساحقة وقضى على آخر أثر السلطة الرومانية فى الغرب سنة ٤٨٦ ، ونقل عاصمته إلى باريس (٤).

ترتب على انتصار كلوفس قرب سواسون ، أن استولى على أموال الخزانة الرومانية ، ونال من الغنائم ما جعله يبدو سخيا مع كبار أتباعه وعامة قومه ، فضلا عن استيلائه على الأراضى العامة ، التى تخلت عنها السلطات

---

(1) Heyek : "Rise of the Frankish dominion" in B. H. VII. pp. 3471–2

(2) Lot : op. cit. p. 214

(3) Oman : op. cit. p. 58

(4) Lot : op. cit. p. 316,

ديفز : المرجع السابق ، ص ٤٢

الرومانية المهزومة ، ولهذا لم يضطر الفرنجة إلى نزع الملكيات الخاصة أو إلى اقتسام الأراضى مع الأهالى مثلما فعل القوط الغربيون أو البرجنديون فى غالة (١) غير أن كلوفس هب فى سنة ٤٩٦م لنجدة أقاربه من الفرنجة البريين (الريبواريين) فيما وراء نهر الراين ، ضد قبائل الألمانى ، ونجح كلوفس فى سحق جموعهم ، ومد نفوذه إلى ماوراء نهر الراين ، ويعتبر بعض المؤرخين انتصار كلوفس على جموع الألمانى نقطة تحول خطيرة فى تاريخ الفرنجة فى تلك البلاد (٢) ، ففى تلك المناسبة تحول كلوفس إلى المسيحية الكاثوليكية ، إذ تشير الروايات إلى أنــه ابتهل أثناء تلك الأزمـــة ، وقبيل الموقعة الفاصلة ، إلى إله زوجته التقية بهذه الكلمات : « لقد دعوت آلهتى ولكنهم لم يستجيبوا لى ، فإليك ألجأ وبك سأومن إذا أحرزت النصر على يديك » (٣) ، فبر كلوفس بوعده وتحول عن وثنيته إلى الكاثوليكية ، وتم تعميده ليصبح عضوا هاما فى الجالية الكاثوليكية ، ومعقد آمال رجال الدين الغاليين (٤) . ولا شك أن اعتنـــاق الفرنجة الساليين الكاثوليكية ، قد انطوى على نتائج باهرة بالنسبة لمملكتهم ، وحمل فى ثناياه بذور التاريخ الأوروبى الغربى (٥) ، فقد منحت الكاثوليكية هذا الشعب المتبربر فرصة للامتزاج بالسكان الرومان ، وطوت ما بين الأهالى والمتبربرين من كراهية ، وشجعت على حلول التعاطف والتعاون بينهم ، وكفلت التحالف بين ملوك

(I) Cantor : Med. Hist. pp. 148–9

(2) Lot: op. cit. p. 317

Grant ; op. cit; p. 139

(٣) فشر : نفسه ص ٤٢ .

(4) " Gregory of Tours : Frankish government and society in Med. World by cantor, p, 80

(5) Heyck ; op, cit, pp, 3473–4

الفرنجة والكنيسة الغربية ، وهو التحالف الذى غدا بالغ الأهمية بالنسبة لتاريخ غرب أوربا قاطبة (١) ، كما ترتب على هزيمة الألمانى أن سار الاتصال قائماً بين الفرنجة فى غالة وموطنهم الأصلى فيما وراء الراين ، واشتد الطابع الجرمانى لمملكة الفرانجة وأوقف تيار التوسع للعناصر الجرمانية نحو غالة ، وانفتح الطريق أمام الفرنجة ليلعبوا دوراً خطيراً فى تاريخ غرب أوربا (٢) .

غير أن الخلاف المذهبى ما لبث أن أثار الكراهية بين هؤلاء الكاثوليك الجدد وغيرهم من الجرمان الأريوسيين فى غالة ، من البرجنديين والقوط الغربيين ، ففى سنة ٥٠٠ م تحول كلوفس إلى البرجنديين لإخضاعهم ، وعلى الرغم من أنه أنزل هزيمة بملكهم جندوباد عند أفينون ، وأجبره على الهرب إلى أبعد نقطة فى مملكة جهة الجنوب ، فإنه فشل فى اقتحام المدينة التى تحصن بها ذلك الملك المهزوم وأخفق فى القضاء التام على مملكته ، واضطر إلى العودة إلى عاصمته بعد أن حقق نجاحاً جزئياً فى حملته (٣) ، ثم ما لبث ملك برجنديا أن تحول إلى الكاثوليكية ، وأقر بدفع جزية للفرنجة مع إظهار عزم أكيد على التصدى لمحاولات كلوفس ضد بلاده ، ولهذا خفت إلى حد كبير حدة العداء بين الجانبين وانصرف كلوفس عن برجنديا إلى تحقيق أهدافه فى جنوب غالة وأسبانيا (٤) . فقد التفت

---

(١) نصر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق١ ص ٣٦ ،

Oman: op. cit. p. 61

(2) Cantor ; Med. Hist. pp. 146-8

(3) Lot: op. cit. p. 318

(4) Pirenne : op. cit. p. 39

كلوفس فى سنة ٥٠٧م إلى القوط الغربيين ، ونجح بفضل تحالفه مع البرجنديين ، فى إنزال هزيمة ساحقة بملك القوط الغربيين « ألاريك الثانى » عند فوييه وقتله بيده ، واستولى على عاصمته تولوز وجعلها طعمـــة للنيران ، واستأثر مع ملك البرجنديين بما فيهـا من كنوز القوط الشهيرة ، وقذف ببقايا القوط إلى ما وراء جبال البرانس ، وسمح لهم أن يعيشوا هناك فى سلام ، بعد أن نقلوا عاصمتهم إلى طليطلة (١) ، وانجلت هـذه الأحداث عن تطهير غالة من الاريوسيين فيما عـدا إقليم سبتمانيا الصغير ، الممتـد على شاطىء البحر المتوسط فيما بين جبال البرانس ونهر الرون ، على حين خرج ملك البرجنديين « جندوباد » من هذه الغنيمة بمدينة ناربون (٢) ، وحاز ثيودريك العظيم - وكان قد هب لمساعدة أقاربه فى جنوب غالة — إقليم بروفانس الغنى وضمه إلى أملاكه فى إيطاليا (٣) ، وبهزيمة القوط الغربيين سنة ٥٠٧ امتد سلطان الفرنجة من نهـر اللوار إلى جبال البرانس ، لكن كلوفس تمكن قبل وفاته فى سنة ٥١١ م من توحيد الفرنجة الساليين والريبواريين تحت زعامته ، وصفى بقايا الأملاك الرومانية فى غالة ، وجعل مملكته تمتد من ضفتى الراين إلى جبـــال البرانس باستثناء إقليمى بروفانس وسبتمانيا ، وحصل من إمبراطور الشرق ، على اعتراف بشرعية حكمه وبنيابته عنه فى الحكم وبمرتبة البطرقية (٤) .

وشغل كلوفس فى أيامه الأخيرة بالقضاء على الأسرات الفرنجية المنافسة ، والحصول على ولاء قومه كافة ، وتوفى بعد عهـد امتد قرابة ثلاثين عاما ، قضاها

---

(1) Oman : op. cit. p. 62-63
(2) Lot : op. cit, p. 319
(3) Camb : Med. Hist. V. I. p. 484
(4) Keen : A hist. of Med. Europe, p. 5

فى التقوى والورع وابتغاء مرضاة الله على قول المؤرخين المعاصرين ، فعلى الرغم عما اشتهر به كلوفس من الصرامة والميل لسفك الدماء ، فقد جرى اعتباره أداة الله لخــدمة الدين (١) : « لقد بارك الله فى مملكته بالتوسع كل يوم ، لأنه سار بقلب نقى مستقيم ، وقام بأعماله ابتغاء مرضاة الله » ، وأنه لم يفعل كل ما فعل إلا خدمة لله « وأنه لم يفعل إلا ما يعتبره حقا وصدقا » ، ولاسيما أن قومه تبعوه واعتنقوا المسيحية الكاثوليكية وصاروا أداة طيعة فى يده لخــدمة الكنيسة الغربية (٢) .

على أن كلوفس اتجه فى وراثة العرش طريقا أعطى المملكة الفرنجية طابعاً يختلف عن بقية ممالك الجرمان بغرب أوربا ، فقد لجأ إلى تقسيم مملكته بين أبنائه الأربعة ، كما لو كانت إرثا خاصا ، ليتخذ كل منهم حاضرة له فى قسمه الخاص ، فى إطار دولة فرنجية كبيرة ، فغدت متز وأورليان وباريس وسواسون تمثل عواصم الأقسام الأربعة(٣) ، وروعى فى اختيار هذه العواصم أن تكون متقاربة حتى يمكن أن يسرع الملوك بجيوشهم لمعاونة أحدهم إذا تعرض للخطر ، ولم يفتر حماس أولئك الملوك بعد وفاة كلوفس ، فسرعان ما مدوا نفوذهم فى الجهـــات المجاورة ، وحاربوا القبائل الضاربة فيما وراء نهر الراين (٤) . وعلى الرغم من أن أحدهم وهو لوثر الأول استطاع توحيد المملكة الفرنجية من جديد سنة ٥٥٨م منتهزا فرصة وفاة إخوته الثلاثة ، فإن هذه المملكة ما لبثت أن تعرضت للتقسيم

---

(١) هيغز : نفس المرجع ص ٤٣ .

(2) Heyck : op. cit. p. 3474

(3) Lot ; op. cit. p. 324

(4) Ibid. pp. 325–6

من جديد ، عقب وفاة لوثر الأول سنة ٥٦١ ، بين أبنائه الاربعة أيضا ، إذ حاز كل منهم جزءا من المملكة على أنه ميراث خاص به (١) ، وفى هذه المرة روعيت بعض الاختلافات بين أجزاء المملكة ولاسيا تجانس السكان والاختلافات التاريخية السابقة ، وغير ذلك ، ولكن بقيت العواصم كما هى ، وظهرت أوستراسيا متضمنة الجزء الشمالى الشرقى من غالة وبلاد الراين ، ونستريا بشمال غالة ، وبرجنديا وأكوتين فى جنوب غالة ، ورغم هذا التفتت تميزت الفترة الممتدة بين وفاة لوثر سنة ٥٦١ ووفاة الملك جنترام Gantram سنة ٥٩٣ م وهى تزيد على ثلاثين عاما ، بأنها كانت من أهم فترات حكم الفرنجة الميروفنجيين ، وقد أسهب جريجورى التورى فى الحديث عنها وخصها بكثير من اهتمامه ، واعتبرها فترة ازدهار ورخاء فى حياة مملكة الفرنجة (٢) ، وظلت المملكة مقسمة إلى أن اتحدت من جديد سنة ٦١٣م ، وعاشت حتى سنة ٦٣٨م مرحلة جديدة وهامة فى تاريخها وفى تاريخ الميروفنجيين(٣) .

ولاشك أن عادة تقسيم المملكة الفرنجية ، لو أنها اتبعت بدقة ، لأدت إلى انحلال المملكة الفرنجية وزوالها إلى غير رجعة ، ولكن اقتصر أثرها على إضعاف المملكة وازدياد اضمحلالها ، لما كان يحدث عقب كل تقسيم من حروب أهلية وتطاحن بين الإخوة ، وهى حروب استنفذت جانبا كبيراً من نشاط الدولة ومن طاقتها (٤) ، ولهذا لم يتفرغ خلفاء كلوفس لتوسيع رقعة المملكة ، ومد

---

(1) Cantor : op. Cit. p. 149
(2) Lot ; op. cit. p. 328
(3) Oman : op. cit. p. 178

(٣) ديفز : نفسه ص ٤٤ ؛
Renouf : Outlines of General Hist. p. 181
Gregory of Tours. op. cit. in Med. World. p. 81

نفوذها فى الجهات المجاورة ، وخلال الخمسين سنة التى تلت وفاة كلوفس لم يحدث سوى اخضاع البرجنديين وبعض القبائل الضاربة على تخوم المملكة مثل البافاريين والثورنجيين ، ولجأ هؤلاء الخلفاء إلى شراء إقليم بروفانس من القوط الشرقيين نظير مساعدتهم حربيا ضد جستنيان ، ولم تقر لهم عين إلا بعد أن اعترف جستنيان بملكية الفرنجة لهذا الإقليم(١) . والواقع أنه لم يقم فى حكم الميروفنجيين حتى سنة ٦٣٨ م ملك يجذب الانتباه سوى داجوبرت الأول (٦٢٨ - ٦٣٩ م)، وهو الذى قوى استحكامات الجبهة الشرقية ، وتعقب الثوار وفرض هيبته على السكسون (٢) ، وعقد صلحاً مع الإمبراطورية البيزنطية سنة ٦٣١ ، وأخضع البريتون فى شبه جزيرة أورموريكا فى غالة ، وكان فوق ذلك دينا اهتم بإقامة الأديرة وظل بعضها يحمل اسمه مدة طويلة (٣) ، وباستثناء ذلك لانجد فى أعمال الميروفنجيين الأوائل حتى قيام رؤساء البلاط فى أقسام المملكة الكبرى : أستراسيا ونستريا وبرجنديا سوى القليل (٤) ، إذ لم يبذل الميروفنجيون الأوائل مجهودا طيبا لحفظ مظاهر الحضارة الرومانية ، والقانون الرومانى أو الالتزام بالنظريات السياسية الرومانية والادارة ، ولهذا ليس من المغالاة فى شىء القول بأن غالة تبربرت على يد الفرنجة سريعا ، بسبب قصور الميروفنجيين وقلة كفايتهم ولدينا دليل حى على ذلك من واقع كتابات شخص ينتمى إلى القرن السادس هو

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 65, p. 68, p. 189
Lot : op. cit. p. 265

(2) Heyck : op. cit. p. 3475-6

(3) Lot : op. cit. pp. 333-4

(4) Oman : op. cit. pp. 158-9

جريجورى التورى، وهو من عائلة غالية - رومانية ، وكانت له صلة وثيقة ببيت كلوفس (١) ، ولكن مع ذلك فإن مملكة الفرنجة فى غالة كانت المملكة الوحيدة - بين ممالك الجرمان - التى كتب لها البقاء والاستمرار داخل حدود الإمبراطورية الغربية، والمملكة التى ساهمت فعلا فى صنع جانب غير ضئيل من تاريخ غرب أوربا .

مرت مملكة الفرنجة اذن، فى الفترة بين وفاة كلوفس سنة ٥١١م ونهاية عهد داجوبرت سنة ٦٣٩ م بأحداث متلاحقة ، قسمت خلالها إلى ثلاثة أقسام هى أوستراسيا ونستريا وبرجنديا ، وطالبت الممالك الثلاث - بعد عهد داجوبرت - بحق كل منها فى إدارة منفصلة ولو كانت تخضع لملك واحد(٢)، وأعيد توحيدها أكثر من مرة ، واندلعت إبانها الحروب الأهليه والنزاعات الداخلية وران على الدولة ضعف وانحلال(٣) . وعلى الرغم من ذلك ظل البيت الميروفنجى باقيا على العرش ، لما اتصف به أبناء كلوفس وسلالته من عظمة المهابة والاحترام فضلا عن أنهم لم يكونوا فى نظر شعوبهم ملوكا فحسب ، بل كانوا كهنة كذلك ،ومهما ارتكبوا من منكرات فإنهم مقدسون لايجرؤ أحد على تقدمهم ، بالإضافة إلى ما نعموا به من عطف الكنيسة الكاثوليكية (٤) ، ولهذا ظلوا أكثر من ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، ينصبون على العرش وتوضع على رءوسهم التيجان

(1) The Med. World. by Cantor. p. 78

(٢) ديفز : أوربا فى العصور الوسطى ص ٤٥ .

(3) " Gregory of Tours, Hist. of the Franks " in the Med World, by Cantor, pp,80-1

(4) Lot : op. cit. p. 337

وتقدم إليهم فروض الطاعة والولاء ، بعـد أن صاروا أطيافا ملكية واهية ، وأضحت السلطة الحقيقيـة فى أيدى رؤساء البلاط (١) . والواقع أن الفـترة التى تلت وفاة داجوبرت اتصفت بضعف سلطة الملوك وازدياد قوة النبلاء ، وازدياد نفوذ الكنيسة وكثرة ثروتهـا وانغماسها فى السياسة الدنيوية ، وتدهور السلطـة العامة (٢) ، وانفلاتها فى صورة امتيازات محلية منحها الملوك لنوابهم وصنائعهم أو اغتصبها أولئك النواب لأنفسهم فأدى ذلك إلى ضياع هيبة الدولة وسلطانها تماما (٣) ، واندلاع الحروب الأهلية والمنازعات الداخلية ، التى غدت قاعـدة عامة حتى سنة ٦١٣ م ، ثم أصبح تاريخ الفرنجة بعد ذلك حتى ظهور شارل مارتل سنة ٧١٤ ، يمثل تاريخ النزاع بين العائلات الكبرى فى نستريا وأوستراسيا للفوز بمركز رئيس البلاط (٤) .

اعتلى سجبرت الثالث Sigibert III ابن داجوبرت (٦٣٨ - ٦٥٦م) عرش الفرنجة فى أستراسيا ، وكان فى الثامنة من عمره ، فأصبحت السلطة الحقيقية فى يد رئيس البلاط ، ولم يستطع هـذا الملك حتى بعد بلوغه الرشد أن يستعيد السلطة من خادمه ، وقد كان أخوه كلوفس الثانى تولى عرش نستريا تحت وصاية والدته وهو فى السادسة من عمره ، ولعب رئيس البلاط هناك أيضاً ، دورا لا يقل عن دور زميله فى أوستراسيا . وهكذا أصبح تاريخ الميروفنجيين مرتبطا برؤساء

(١) فشر : نفس المرجع السابق ص ٦٩ـ٧٠ ،

Cantor : Med. Hist. p. 146

(2) Heyck : op. cit. p. 3478

(3) Pirenne ; op. cit. p. 188, p. 191

(٤) ديفز : نفس المرجع ص ٤٥ .

البلاط ارتباطا كاملا (١) ، وحين توفى سجبرت الثالث سنة ٦٥٦ م وهو فى السابعة والعشرين من عمره تاركا ابنا صغيرا فى الثانية من عمره ، قام رئيس البلاط فى أوستراسيا جريموالد gremoald بنفى الطفل الصغير إلى دير أيرلندى ليصبح راهبا ، ونصب ابنه هو ملكا على أوستراسيا وحياه بتحية الملك (٢) غير أن الوقت لم يكن مناسبا لطرد سلالة البيت الميروفنجى ، وإحلال بيت آخر محله، فضلا عن كثرة أعداء جريموالد ومنافسيه، ولهذا سرعان ما تكالب نبلاء أوستراسيا على جريموالد ، وقبضوا عليه وأرسلوه إلى باريس حيث أعدمه كلوفس الثانى ملك نستريا (٣) ، وزاد من سوء الأحوال فى دولة الفرنجة حينذاك وفاة كلوفس الثانى بعد أشهر قليلة ، تاركا ابنا صغيرا لتصبح أقسام المملكة كلها خلوا من ملك يستطيع جمع كلمة الفرنجة ويوحد جهودهم ، فأدى ذلك إلى تحكم رؤساء البلاط من جديد ، وفى هذه المرة برز إبروين Ebroin رئيس بلاط نستريا (٦٦٠ - ٦٨١ م) (٤) .

غير أن إبروين أثبت أنه طاغية من الدرجة الأولى ، ورجل قاس يفتقر إلى الرحمة والعطف ، فقد قتل وسحق وتآمر ، وأمسك بزمام السلطة برياسته البلاط فى مملكة الفرنجة كلها ، وقاد الجيوش وقضى على المناوئين ولا سيما فى مملكة أوستراسيا . فلجأ نبلاء أوستراسيا إلى تنصيب أحد أفراد بيت رؤساء البلاط

(1) Oman : op. cit, pp. 256-7
(2) Lot : op. cit. p. 337
(3) Oman : op. cit. pp. 256-7
(4) Pirenne : op. cit, p. 195, p, 200

القديم ويدعى ببين الصغير (الثانى)(١) ، وعلى الرغم من نجاح إبروين فى إنزال هزيمة بجيش أوستراسيا فى لافو Lafaux فإنه مالبث أن اغتيل على يد أحـــد أعوانه سنة ٦٨١ م ، لتنتهى سيادة نستريا وتعود من جديد سلطة أوستراسيا(٢)، فبعد حروب أهلية امتدت أكثر من سبع سنين حددت معركة تسترى Testry سنة ٦٨٧ (ترترى Tertry) ، مصير مملكة الفرنجة ، حين هزمت نستريا على يد فرنجة الشرق بقيادة ببين ، وأجبر ملك نستريا على إجـــابة مطالب ببين وأوستراسيا (٣) .

حازت أوستراسيا الغلبة إذن فى هذا الصراع ، فى أواخر القرن السابع ، ويرجع ذلك فى الحقيقة إلى أن رئيس بلاطها كان بوسعه أن يضم من الأتباع مايزيد على مالدى منافسيه فى نستريا وبرجنديا ، فقد كانت أوستراسيا تمثل الشطر الشرقى من المملكة الواقع شمالى جبال الألب (٤) ، حيث توافـــرت الأراضى الشاسعة سواء غطتها الغابات أم كانت أراضى مهملة ، وبفضل ما تهيأ لهذه الناحية من رؤساء بلاط نشطين ، جرى استصلاح مساحات شاسعة من أراضيها ، وإنشاء قرى جديدة ، واجتذاب المزارعين وتهيئة الفرص للطموحين وراغبى الثروة من الادواق والكونتات (٥) ، فى الوقت الذى اعتمدت فيه الأجزاء الأخرى على رواج التجارة ونشاط المدن ، فلما تداعت التجارة وتدهورت مكانة المدن فى

---

(1) Cantor ; Med. Hist. pp. 207-8
(2) Lot : op. cit. p. 340-1
(3) Grant : op. cit. pp. 140-1
(4) Lot: op. cit. p. 342
(5) Heyck : op. cit. p. 3478

نستريا وبرجنديا ، حازت أوستراسيا الغلبة (١)،واجتذبت الأتباع الذين ساندوا رئيس بلاطها وآزروه فى حروبه ، وفى انتزاع الغلبة لهذا الشطر من المملكة ، هذا فضلا عن غلبة الصفة الجرمانية ، وغلبة العنصر الجرمانى على العنصر الغالى الرومانى من الناحية العددية فى هذا القسم من المملكة الفرنجية (٢) . أصبح ببين الثانى – الذى عرف ببين هريستال – رئيسا البلاط فى المملكة كلها ، فاتخذ متز Metz مقرا له،وغدا بيت ببين منذ ذلك الوقت أهم كثيرا من البيت الميروفنجى المالك ، كما غلب الطابع الجرمانى على هذه المملكة ، منذ ذلك الوقت ، أكثر من الطابع الغالى – الرومانى ، فأصبح مركز المملكة حول أوستراسيا ومتزوآخن وكولونيا ، وليس حول نستريا وسواسون وباريس وليون (٣) ،وبقى ببين رئيسا للبلاط مدة تقرب من سبعة وعشرين عاما (٦٨٨ – ٧١٥ م) ، بذل خلالها جهودا صادقة لإقالة المملكة الفرنجية من عثراتها وتجنيبها النزاع الداخلى والحروب الأهلية التى شهدتها طوال خمسين عاما (٤)، فضلا عن محاولة إعادة حدود المملكة، إلى ماكانت عليه أيام داجوبرت الأول ، بعد أن انتهكت هذه الحدود فى كل الجهات (٥) ، لقد صرف ببين جانبا كبيرا من همته لمحاربة الفريزيين ، الذين أغاروا – من مصب نهر الراين – على وادى الشلد والميز ، وأحدثوا الخراب

---

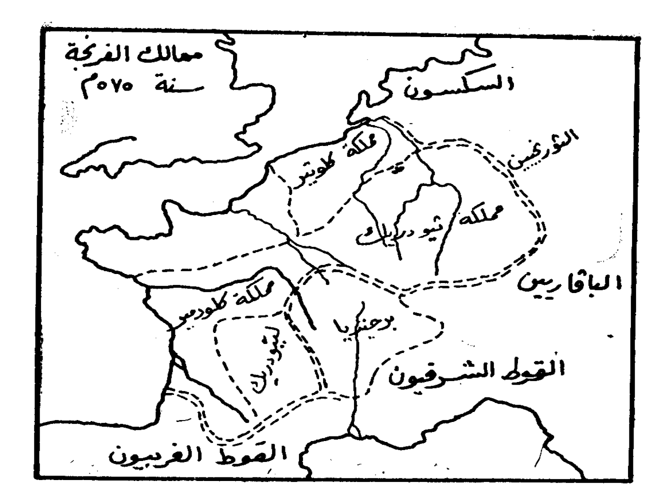
(1) Pirenne : op. cit. pp. 197–8
Keen : op. cit: p. 18

(2) Cantor : op. cit. p. 208

(3) Oman : op. cit. pp. 261–2

(4) Heyek : op. cit. p. 3479

(5) Grant : op. cit. pp. 140–1



والدمار هناك ، ونجح ببين فى إحراز انتصارات باهرة عليهم ، وأجبر دوقهم على تقديم الطاعة للملك الفرنجى(١)، وتسليم الجزء الغربى من بلاده وهو المعروف حاليا بمنطقة ريلاند وجنوب هولندا ، كما حارب الألمانى على طول نهر الراين وفى الغابة السوداء ، وأجبرهم على الاعتراف بالتبعية لمملكة الفرنجة - وإلى ببين هذا يرجع جانب من الفضل فى بداية تحويل ألمانيا إلى المسيحية (٢) .

توفى ببين الثانى سنة ٧١٥م فخلفه ابنه غير الشرعى شارل ، الذى عرف فيما بعد بشارل مارتل (المطرقة) Charles the Hammer (Martel)، بعد نزاع بين

---

(1) Lot : op. cit. p. 343

(2) Oman : op. cit. pp. 262-3

Pirenne : op. cit. p. 203

أوستراسيا ونستريا وحروب أهلية جديدة ، استمرت سنوات فى بداية عهده ، واستعان فيها ملك نستريا بأعداء المملكة المحيطين ولا سيما الفريزيين(١) ، غير أن شارل مارتل نجح فى إنزال الهزيمة بنستريا وإجبار ملكها على الإذعان ، ثم تحول إلى جيرانه المناوئين ، فأجبر السكسون على التراجع ، ودفع الفريزيين إلى الرضوخ وإعادة غرب فريزيا للمرة الثانية ، كما حارب الألمانى والباڤاريين وفرض هيبته على القبائل الضاربة حول المملكة الشرقية ، ودانت له رياسة البلاط منذ سنة ٧١٩ ميلادية (٢) . وتعتبر الأعوام الاثنان والعشرون التى قضاها شارل مارتل رئيس البلاط (٧١٩ - ٧٤١م) نقطة تحول خطيرة فى تاريخ غرب أوربا ووسطها ، فقد واصل سياسة والده ببين فى الداخل والخارج فأعاد حدود المملكة ، إلى ما كانت عليه قديما ، واهتم بنشر المسيحية بين قبائل ألمانيا الوثنية ونشر القانون ، وضرب بيد من حديد على كل محاولات الفتنة فى الداخل مثلما حقق انتصاراته فى الخارج (٣) ، ونال شارل لقب المطرقة لشدة ما نزل بأعدائه على يديه فى الداخل والخارج ، فضلا عما نزل بالكنيسة الكاثولكية من صارم ضرباته وقراراته ، وساعده على إحراز انتصاراته شدة بأس جنوده الأستراسيين الفارعين المزودين ، الذين لم تفسدهم حياة المدن (٤) ، غير أن جانبا كبيرا من شهرة شارل مارتل يستند إلى ما حققه من نجاح تجاه المسلمين فى جنوب المملكة ، فقد عبر عبد الرحمن الغافقى أواسط البرانس إلى جنوب غالة سنة ٧٣٢م ، وأنزل هزيمة ساحقة بأودو دوق

(I) Lot: op. cit p. 344

(٢) ديفز : نفس المرجع ص ٤٦—٤٨ .

(3) Grant : op. cit. p. 141

(٤) فشر : المرجع نفسه ص ٧٦

أكوتين (أقطانيا)، وأجبره على الفرار إلى ما وراء اللوار محتميا بشارل مارتل، واستولى المسلمون على بوردو وتقدموا مجتاحين المنطقة حتى بواتيه Poietiers (١). وحينذاك عبر شارل مارتل نهر اللوار قرب مدينة تور، وتقدم لملاقاة عبدالرحمن، وبقى كل منهما سبعة أيام ينتظر هجوم الآخر، وفى النهاية قرر عبدالرحمن المبادأة، فاشتعلت معركة تور - بواتيه الشهيرة التى ترتبت عليها نتائج بالغة الأهمية (٢). وعلى الرغم من أن تفاصيل ماحدث إبان هذه المعركة الحاسمة غير معروفة، فإنه يبدو أن خيالة المسلمين عجزت عن اختراق حائط مشاة الفرنجة الذين صمدوا لذلك الهجوم الخاطف، ثم تحولوا بسرعة القتال فى معركة بالغة الضراوة قتل فيها من الفريقين عدد كثير، وامتدت حتى المساء وانجلت عن مقتل عبدالرحمن الغافقى نفسه وكثير من رجاله، وانسحب المسلمون حينذاك مخلفين كثيرا من الغنائم، كانوا قد استولوا عليها من دوق أكوتين، ولبث فى ذلك الوقت أن مملكة الفرنجة فى غالة كانت أصلب عودا من مملكة القوط الغربيين التى انهارت أمام المسلمين فى أوائل القرن الثامن (٣)، فقد انسحب المسلمون إلى ما وراء جبال البرانس، وعاد أودو دوق أكوتين لاحتلال بوردو وتولوز، كما عاد شارل مارتل إلى أوستراسيا محملا بالغنائم، فذاع صيته فى أنحاء غرب أوربا، واشتهر بأنه بطل المسيحية الأكبر، وثانى مدافع عنها بعد قسطنطين (٤).

والحقيقة أن هذا الانتصار الكبير كفل الخلاص والحماية لمملكة الفرنجة من

---

(1) Omen : op. cit. p. 293

(2) Heyck : op. cit. p. 3480

(3) Oman : op. cit. p. 294

(4) Lot ; op. cit. p. 389

خطر المسلمين وإن لم يؤد إلى توقفه نهائيا ، لأن المسلمين أعادوا الكرة بعد ذلك، فاستولوا على مدن آرل وأفينون، وأقاموا بها فترة قبل أن يخرجهم منها شارل(١) ، ولكن هذا النصر منح شارل شهرة فائقة في أوربا ومكانة بارزة في الأوساط الكنسية (٢) ولا شك في أن شارل مارتل يعتبر المؤسس الحقيقي للعهد الكارولنجي، كما يعتبر أعظم رجال الفرنجة - بعد كلوفس وقبل شارلمان ، وبفضله تدعمت أركان مملكة الفرنجة ، بعد أن تداعت فترة طويلة ، وبفضله أيضا زال خطر المسلمين عن غالة ووضعت أسس الحقبة الكارولنجية (٣) .

قام شارل بعد ذلك بمحاولة ترتيب الأمور في برجنديا وإحلال أعوانه ورجاله على أدواقيها وكونتاتها ، وإكمال إخضاع فريزيا والتصدى لإخضاع دوق أكوتين الجديد سنة ٧٣٥م وكان أدواق هذه المقاطعة يطمحون دائما للاستقلال عن مملكة الفرنجة وربما منذ سنة ٦٧٥م (٤)، وتصدى شارل للمحاولات الإسلامية الجديدة في جنوب غالة ، وغزا بروفانس وشمال سبتمانيا ، ونجح في ذلك إلى حد بعيد ، واسترد بعض المدن التي استعادها المسلمون وأعاد نفوذه في جنوب غالة (٥)، ثم قضى السنوات الأخيرة من عهده (٧٣٧ - ٧٤١م) في إكمال

(I) Pirenne : op. cit. p. 207

(2) Heyek : op. cit. p. 3480

Lot : op. cit. p. 389

(3) Cantor : Med. Hist. p. 171

Lot : op. cit. p. 345

(4) Pirenne : op. cit. p. 197

(5) Heyek : op. cit. p. 3480

إخضاع السكسون وإتمام تنظيم الكنيسة المسيحية فى جنوب ألمانيا ،ومساعدة بونيفاس فى تحويل قبائلها إلى المسيحية (١) ؛ ولكنه مع ذلك رفض أن يساعد البابا جريجورى الثالث ضد اللمبارديين ، حين طلب البابا تدخله ضد ليتوبراند ، وأرسل له مفاتيح قبر القديس بطرس سنة ٧٣٩،وطلب منه أن يحل محل الإمبراطور فى المحافظة على روما ، وذلك بسبب مساعدة اللمبارديين للفرنجة أثناء حربهم ضد المسلمين من ناحية ، بالإضافة إلى أن شارل مارتل لم يكن متحمسا لأعمال حربية خارج بلاده من ناحية أخرى ، فأثار ذلك البابا وأحنقه فضلا عما حدث من استيلاء شارل مارتل على بعض أراضى الكنيسة لمنحها لأتباعه وتعيين أعوانه فى الأسقفيات الشاغرة ، ولهذا اتسعت الشقة بين الجانبين ، على الرغم من جهود شارل الصادقة فى تنظيم الكنيسة فى ألمانيا ونشر المسيحية بين قبائلها الوثنية،وتوفى شارل مارتل فى النهاية فى ٢١ اكتوبر سنة ٧٤١م ، بعد أن قسم المملكة ، بين أبنائه الثلاثة (٢) .

كان ببين القصير (الثالث) أبرز الاخوة الثلاثة دون شك ،وساعدته الظروف فى بداية عهده ، فانزاح من طريقه أصغر إخوته ،فقد أبعد إلى قلعة فى الاردن، واختار الأخ الآخر ـ بعد فترة تعاون صادق مع ببين ـ الانخراط فى الحياة الديرية سنة ٧٤٧ ، فأفسح المجال لببين لينال وحده رياسة البلاط فى المملكة ،

---

(١) فشر : المرجع السابق ص ٧٨ ؛ ديفز : المرجع السابق ص ٤٨
Grant : op. cit. pp. 142–5 , Cantor : op. cit. pp. 208–9
Seidlmayer : Currents of medieval thought p, 35
(trans, by barker)

(2) Pirenne ; op. cit. p. 208

ويقضى على كل العقبات التى أثيرت فى وجهه (١) ، ويقوم بتسوية الأمور مع الكنيسة ولاسيا فيما يتعلق بالأراضى التى انتزعها شارل مارتل منها ، ليصبح الجو مهيئا لعقد صلح مع الكنيسة سنة ٧٤٤ م تعهد فيه ببين باستمرار مساندة القديس بونيفاس فى جهوده لإصلاح كنيسة الفرنجة وجهوده فى خدمة المسيحية فى تلك البلاد ، فآذن ذلك بعهد جديد فى العلاقة بين الفرنجة والكنيسة الكاثوليكية (٢)، على أن ببين القصير مالبث أن خطا أهم خطوة فى تاريخه حين أنهى عهد البيت الميروفنجى ووضع بداية عهد بيت جديد فى تاريخ الفرنجة (٣) ، فإذا كان ببين هرستال (الثانى) وشارل مارتل لم يجرؤا على اتخاذ هذه الخطوة خشية أن يتعرضا لمصير جريموالد ، فإن ببين القصير رأى أنه ليس من الضرورى انتظار وفاة تشلدريك الثالث آخر سلالة الميروفنجيين لإنهاء عهد هذه الأسرة المتهالكة (٤) ، وبادر بجمع المجلس القومى الفرنجى سنة ٧٥١م ، وعرض عليه الأمر ، فوافق المجلس بحماسة على إزالة تشلدريك الثالث ، واختيار ببين القصير ملكا ، غير أن ببين لجأ إلى إكساب هذه الخطوة بعض الشرعية ، فقام بإرسال سفارة إلى روما يسأل البابا زكريا : « أليس من حق الشخص الذى بيده السلطة الحقيقية أن يكون له أيضاً لقب الملك ؟ » ، ونظرا لأن البابا كان يطمع فى

---

(1) Oman : op. cit. pp. 322-5

(٢) ديفز : نفس المرجع ص ٤٨

(3) Mahrenholtz : "The Empire of Charlemagne" B. H. VII. p. 3481

(4) Keen : op. cit .p. 18

مساعدة ببين ضد اللمبارديين (١) ، فقد اتجه إلى تملقه ومحاولة إرضائه فأجاب: «من حق الرجل الذى بيده السلطة الحقيقية أن يحصل على لقب الملك بدلا من أن يحتفظ بهذا اللقب الرجـــل الذى ليس له سلطة حقيقية» ، وحينذاك اجتمع مجلس النبلاء فى سواسون بنستريا فى أكتوبر سنة ٧٥١ ، وقرر أن يمنح ببين لقب ملك وأن يرسمه القديس بونيفاس لهذا المنصب ، وجرى رفعه على الترس ملكا جديدا للفرنجة حسب العادة الجرمانية القديمة (٢) ، ثم جرى تتويجه ملكا على يد البابا ستيفن الثانى فى شتاء سنـــة ٧٥٣ – ٧٥٤ م ، كما توج البابا ولدى ببين : شارل وكارلومان ، وأصبحت ذرية ببين – كما عبر البابا بنفسه – ذرية مقدسة (٣) ، وحرم البابا على الفرنجة – أن يختاروا ملكا من بعده غير بيت ببين ، لأنهم سلالة مقدسة وكهنة ملكيون ، وترتب على ذلك حصول البابوية على مساعدة الفرنجة وازدياد قوة البابوية فى إيطـاليا (٤) .

غدا ببين القصير بهذا ملكا على الفرنجة مدة سبعة عشر عاما (٧٥١ — ٧٦٨م) ، قام خلالها بأعمال جليلة ، ومد حدود المملكة إلى مناطق لم تخضع من قبل الفرنجة ، وشارك فى أحداث العصر مشاركة فعالة فتعامل مع البابوية ومنحها حمـــايته ، واصطدم باللمبارديين وقاد ضـــدهم حملتين ، جرت الإشارة إليهما من قبل ، وخضع على أثرهما أستولف وتعهد بتقديم جزية سنوية ورد ماسلبه من أملاك

---

(1) Grant : op. cit. p. 145

(2) Oman : op. cit. p. 326

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3481

(4) Ostsogorsky : op. cit p, I5I

البابوية(١) ، كما حارب بين المسلمين وأدواق أكوتين فى الجنوب ، ونجح فى الاستيلاء على كل المدن الخاضعة للمسلمين فى سبتمانيا شمالى ناربون ، وقاد بنفسه حملة سنة ٧٥٩ ضد ناربون ذاتها وكانت آخر مدينة للمسلمين وراء البرانس ، ولم يكد يلقى الحصار عليها حتى هب المسيحيون من أهلها بقتل الحامية الإسلامية فيها وفتح الأبواب لبيبين ، ثم كانت غزوه لأكوتين وحروبه ضـــد أدواقها المناوئين سببا فى إخضاع هذه المقاطعة وربطها بالتاج الفرنجى سنة ٧٦٧ ؛ وفى أثناء ذلك شن بيبين حروبا ضارية ضد السكسون ونجح فى كبح جماحهم ، وإن لم يستطع إخضاعهم نهائيا ، وتركت هذه المهمة لابنه شارل الكبير(٢) ، غير أن بيبين مالبث أن مرض مرضا طويلا وهو فى قمة مجده ، ومن فى يوم ٢٢ سبتمبر سنة ٧٦٨ بكنيسة سانت دنيس Denis قرب باريس حيث أمهله القـــدر بعض الوقت كى يقسم مملكته بين ولديه ، قبل أن يسلم الروح ، بعد أن قدم أعمـــالا جليلة لدولة الفرنجة ، وخطا بها خطوات هائلة وأرسى دعائم حقبة جديدة فى تاريخها(٣) .

أما بالنسبة لحضارة الميروفنجيين وخصائص مملكتهم ، فقـد سبقت الإشارة إلى أبرز تلك الخصائص ، والعوامل التى كفلت لهذه المملكة البقاء بغرب أوروبا بعد زوال معظم الممالك الجرمانية ومن بين تلك العوامل اتجاه الفرنجة إلى اعتناق المسيحية على مذهبها الكاثوليكى ، فقرب ذلك كثيرا بينهم وبين أهـــل البلاد

---

(1) Camb. Med. Hist. V. II, pp. 589–90
Hearder & Waley : op cit. p. 32
(2) Oman ; op. cit, pp, 326–32
(3) Ibid : p. 233

المفتوحة (١) ، فضلا عن اتجاههم إلى ملاينة السكان وعدم استعمال العنف والقسوة فى معاملتهم ، وعدم مصادرة أملاكهم أو أراضيهم ، يضاف إلى ذلك ماأدى إليه الزواج المختلط من تحطيم الحاجز الفاصل بين الجرمان والرومان (٢) ، وماحدث من مساواة سياسية بين أفراد المجتمع ، كل ذلك كان له أثر دون شك فى إزالة الهوة العميقة بين الطرفين ، لكن على الرغم من هذا ظل الفرنجة يمثلون طبقة مميزة عن بقية السكان تحتفظ إلى حد ما بخصائصها الجرمانية، ومعظم سماتها البدائية ، وإن كانت هذه الخصائص والسمات قد بدأت تتهذب رويدا رويدا بفعل المدنية الرومانية من ناحية والمبادىء المسيحية من ناحية أخرى (٣) .

وتشير رواية جريجورى أسقف تور ، الذى ينتمى إلى القرن السادس وينحدر من أسرة غالية رومانية لها صلة ببيت كلوفس (٤) ، إلى إن المجتمع الغالى انقسم على عهد الميروفنجيين إلى فئتين مختلفتين إحداهما تمثل السياسة العليا فى غالة الميروفنجية، كانت تشدها نوازع بربرية وخصائص همجية إلى حدما وهم الفرنجة، والأخرى فئة ضئيلة الأهمية قوامها التجار والصناع وسكان المدن ومزارعو القرى والريف ، ممن ظلوا يقدمون لسادتهم الجدد الضرائب والخدمات ويهيئون لهم مناخا متمدينا وبيئة متحضرة ويمدونهم بأسباب الرفاهية والترف (٥). على أنه يبدو أن الفرنجة الميروفنجيين لم يعتبروا أنفسهم ملوكا على غالة باعتبارها إقليما أو

---

(1) Lot : op. cit. p. 317

(2) Cantor : Med. Hist. p. 152

(3) Heyck: op. cit. pp. 3478-80

(4) " Gregory of Tours, Hist. of the Franks " by Cantor, Med. World, p.78

(5) Ibid. pp, 79 -82, Cantor : Med. Hist pp, 151 - 2

ولاية ، بقدر ما اعتبروا أنفسهم ملوكا على الشعب الفرنجى نفسه غير المرتبط بإقليم معين (١) ، لعل الدليل على ذلك أنه جرى انقسام غالة فيما بين أبنـاء كلوفس وأحفاده على أنها أرض يعيش فيها الشعب الفرنجى (٢) ، ولا أهمية عندهم إذا لم يكن نصيب الواحد منهم متصلا أو يؤلف وحدة مترابطـة (٣) ، وفى الأوقات التى قامت فيها وحدة سياسية أو مملكة واحدة برزت الجمعية الوطنية أو المجلس القومى العام ، ليمثل سلطة جرمانية لها وزنها ، قوامها كبار رجال الفرنجة الذين يحضرون مدججين بالسلاح ، فإذا عن أمر يتصل باعتلاء ملك جـديد العرش رفعوه على الرؤوس حسب العادة الفرنجية القديمة (٤) ، ومع ذلك اختلفت الملكية الفرنجية عن غيرها من ملكيات الجرمان ، بأنها كانت ملكية وراثية غير انتخابية ، جرى فيها تقسيم الإرث بين أبناء الملك الذكور ، فضلا عن تمتع الملك بسلطات مطلقة فى مختلف النواحى (٥) . ولقد ظل الرعايا مرتبطـين بالملك الميروفنجى بيمين الولاء وكانت فى الأصل هى الوسـيلة التى تجمع الرعايا ليتبعوا الملك فى الحرب والقتال، فتسبب هذا الارتباط فى نمو طائفة من النبلاء استندت فى البداية إلى قربها من الملك حتى إن الملك ظل يحمل اسم «ملك الفرنجة» (٦) ، ثم استمدت هذه الطائفة قوتها بعد ذلك من النفوذ الوراثى من ناحية والامتيـازات التى حصلت عليها أو اغتصبتها من ناحية أخرى ، ولقد لعبت هذه الفئة دوراً هاما

(I) Heyck ; op. cit. pp. 347I-2
(2) Keen : op. cit. p. I8, Cantor : Med. Hist. p. I49
(3) Heyck : op. cit. pp. 347I-2
(4) Oman : op. cit. p. 326
(5) Camb. Med. Hist. V. II p. I33
(6) Lot : op. cit. pp, 348-50

فى تاريخ الميروفنجيين ولا سيما الأواخر منهم(١) ، هذا فضلا عن نمو طائفة أخرى من الأعوان ، ارتكنت هى الأخرى فى البداية إلى الملك ، وأظهرت الاخلاص له ، تجديداً لدور الرفاق ، والاتباع فى العشائر الجرمانية إلا أنها مثلت فيما بعد حاشية الملك وأتباعه وحرسه الخاص ، وموظفى القصر ، ومن هذه الفئة برز رؤساء البلاط الذين ارتبط بهم تاريخ الميروفنجيين منذ وفاة داجوبرت سنة ٦٣٨(٢) .

أما بالنسبة للادارة المحلية ، فيبدو أن الميروفنجيين لم يقوموا بتعديل شىء فيها ، وظلت الأقسام الإداريه كما كانت عليه تقريبا زمن الرومان، وتولى إدارة الاقاليم رجال عرفوا بالكونتات جمعوا فى أيديهم السلطتين العسكرية والمدنية ، وقاموا بجباية الضرائب ، والفصل فى القضايا وقيادة الجيوش المحلية(٣) ، ومع ماأظهره الفرنجة من لين فى معاملة الأهالى ،فإنهم مالوا إلى تمييز أنفسهم عن السكان الأصليين أمام القضاء ، فكان الكونت مطالبا بأن يحاكم كل رجل حسب قانونه الخاص ، مع سريان مبدأ الأخذ بالثأر الذى عرفه الجرمان من قبل ، ومبدأ الدية المرضية لأهل القتيل ، وكتابات جريجورى التورى مليئة بقصص الانتقام ، التى انطوت على كثير من البشاعة والقسوة(٤) ، وكانت دية الفرنجى تفوق دية الغالى الرومانى ، لكنهم مع ذلك جنحوا إلى جعل الوظائف العامة الحكومية والكنسية مشاعا بين الجميع يتولاها الفرنجةوالأهالى دون تمييز ، كما

---

(١) نصر : المرجع السابق ص ٦٩—٧٠ .

(2) Grant : op. cit. p. 140

(3) Lot : op. cit. p. 350

(4) Gregory of Taurs, op. cit, p. 79—82

سبقت الإشارة(١) ، ونظرا لما تمتع به الكونتات من سلطات واسعة،فقد حرص الملوك الميروفنجيون على موازنة الأمر ، ومحاولة كبح جماح هذه الفئة باستخدام نواب الملك فى الأقاليم كانوا عادة من الأساقفة ، وادعى ملوك الفرنجة منـذ القرن السادس أحقيتهم فى تقليد الأســاقفة وهو الأمر الذى عارضته الكنيسة فيما بعد ، وتسبب فى صراع مرير بين البابوية والسلطات العلمانية (٢) ، فضـلا عن حرص الميروفنجيين على أن تسير الكنيسة فى ركابهم ، وأحقيتهم فى دعوة المجامع الدينية ورياستها ، لكن ملوك الفرنجة أفادوا فعلا من هذا التقليد بوضع أعوانهم ممثلين لهم فى الأقاليم ، فتمتعوا بمنزلة سامية بين الأهالى بفضل مكانتهم الروحية(٣) .

وعلى الرغم من ذلك نشأ تحالف بين الفرنجة والكنيسة ، كان له أثر بعيـد فى تاريخ غرب أوربا ،وأغدق الميروفنجيون على رجال الدين الامتيـازات والاقطاعات ، وبمرو الوقت أصبح رجال الدين من كبار الاقطاعيين، وتضخمت ثروات الأديرة ومنح الأساقفة سلطات واسعة فى مجال القضاء (٤) ، ولاحت لهم فرص التعرف على مصالح أقاليمهم وتقديم خدمات جليلة لها ببناء الكنائس الجـديدة وترميم ما يتصدع منها ، فضلا عن الحصول على تفويض الميروفنجيين النظر فى أمور الزواج والطلاق والمسائل التى لها صلة بالنواحى الدينية والروحيه، فأصبحت المحاكم الكنسية تباشر النظر فى تلك الأمور وغيرها مما كانت

(I) Heyck : op cit. pp. 3474–6

(2) Lot ; op. cit. pp. 386–7

(3) Camb. Med. Hist. V. I. p. 152

(4) Lot ; op. cit. p. 386

تباشره السلطات الرومانية القديمة (١) ، غير أنه بمرور الوقت أحل الميروفنجيون أتباعهم ورجالهم من الفرنجة محل الأساقفة من الرومان الغاليين ، فأدى ذلك إلى فساد شئون الكنيسة الفرنجية ، وتدهور ثقافات رجال الكنيسة (٢) ، وجنوح رجال الدين إلى التبعية التامة للدولة فأحنق ذلك البابوية ،وأغضب المصلحين الوافدين إلى غالة أمثال المبشر الإنجليزى القديس بونيفاس (٣) ، ومهما يكن من أمر فإن الفرنجة عموما لم يسمحوا للسلطة الدينية أن تنازعهم اختصاصاتهم أو أن تعلو فوق سلطانهم ، برغم ما أظهروه من ميل إلى محالفة البابوية ورفع شأنها فى أوروبا (٤) .

ومع اتجاه الفرنجة إلى الإبقاء على النظم الاقتصادية والمالية السائدة فى البلاد ، فإن سياستهم أدت بمرور الوقت إلى تركيز الأراضى فى أيدى فئة قليلة من السكان وإنزال جانب كبير من السكان إلى مرتبة العبودية ،ولعل ظهور طبقة النبلاء ورؤساء البلاط يمثل انتصارا لمصالح الطبقة الأرستقراطية الجديدة ، التى اعتبرت نفسها فى مركز وسط بين الملك والشعب(٥) ،كما أدت سياسة الميروفنجيين إلى ظهور النظام الاقطاعى وتركيز ملكية الأرض فى أيدى فئة قليلة من

---

(1) Heyck : op. cit., p. 3474

(2) Cantor ; Med. Hist. p. 151

(٣) ديفز : المرجع السابق ص ٤٨ ؛

Camb Med. Hist. V. II, p. 540

Cantor . Med. Hist. p. 208, Med. World. pp. 127–8

(4) Grant : op. cit. pp. 142–3

(5) Heyck : op. cit. p. 3471

الملاك (١)، وتمتع الملك بإيراد ضياعه الواسعة ، فضلا عن أن الهبات والخدمات الخاصة ، وما يورده الكونتات من ثلى الضرائب التى يجمعونها من الأهالى(٢)، ومثلت هذه الأموال حصيلة الإيرادات الملكية التى يصرف منها الملك على قصره وبلاطه وحاشيته وموظفيه دون الخدمات العامة ، ومع ذلك ظلت ثروة الملك من الأرض أقل كثيرا من ثروات نبلائه (٣). ومع أن الطابع الزراعى غلب على دولة الفرنجة نتيجة لنمو الاقطاع وظهور نظام الضياع ، الآخـــذة بسياسة الاكتفاء الذاتى وتحول جانب كبير من السكان إلى أقنان ، فإن العهد الميروفنجى شهد نشاط التجارة وتبادل السلع بين الشرق والغرب عن طريق المنافذ التجارية فى جنوب غالة ، كما شهد نشاط التجار الإيطاليين واليونانيين واليهود فى الموانى المطلة على البحر المتوسط ، فضلا عن استمرار التجارة المحلية ، ولم يؤد نمو القوة البحرية الاسلامية ابتداء من القرن السابع إلى تحطيم هـــذا النشاط كلية ، بل ظلت العلاقات التجاريه سارية وإن قلت عن ذى قبل بسبب تدهور مكانة المدن وزيادة هجمات المتبربرين فى أوربا (٤) .

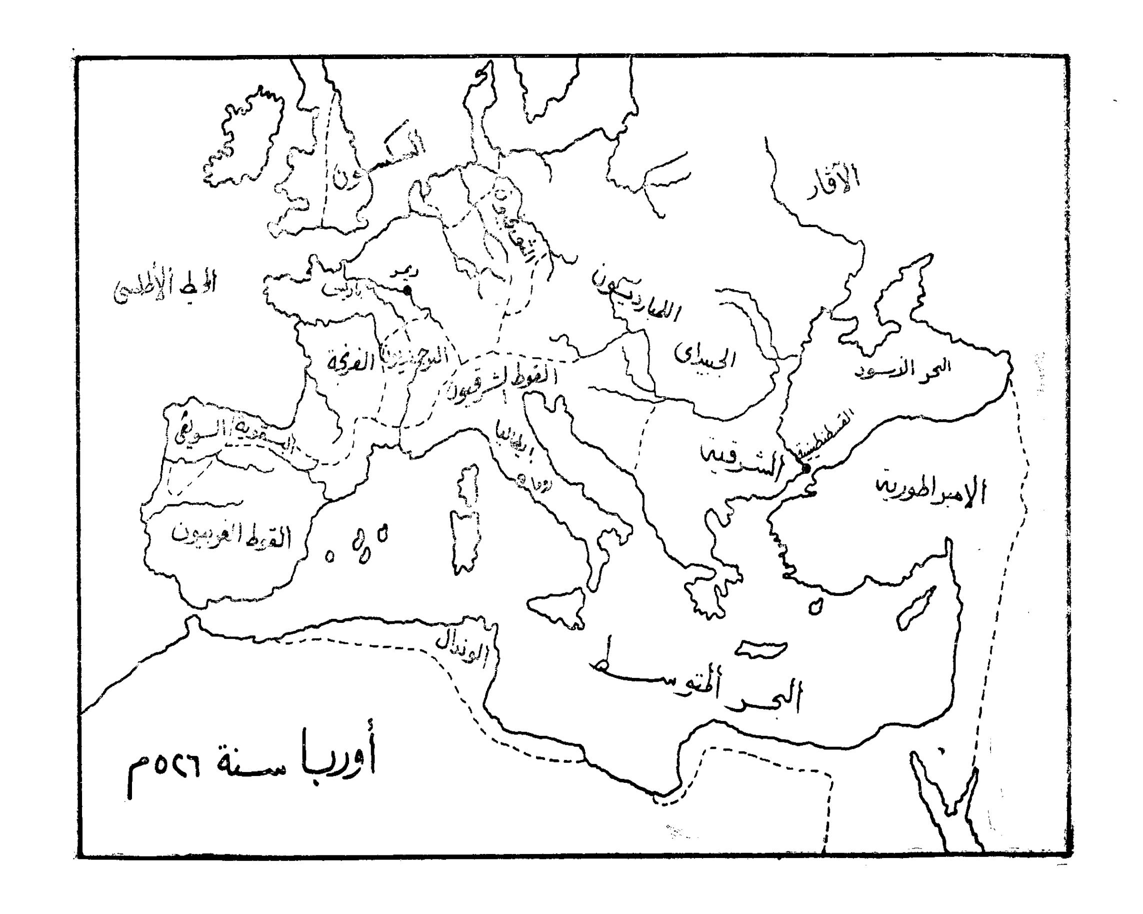
أما بالنسبة للجيش فإنه لم يكن يكلف الميروفنجيين شيئا ، إذ التزم غالبية الفرنجة بالخدمة العسكرية ، وتحمل فريق آخر من غير الصالحين للخدمة العسكرية ضرائب كبيرة ، واهتم حلفاء كلوفس بتطبيق نظام الخدمة العسكرية على كل

---

(1) Cantor ; Med. Hist. p. 149, p. 151
(2) Lot : op. cit. p. 350-1
(3) Keen : op. cit. p. 8
(4) Cantor : op. cit. p. 152
Keen : op. cit. p, 33

رعاياهم (١) من الرومان والبرجنديين والألمانى والسكسون فى نستريا ، ولم يعفوا أحداً منها حتى الفقراء ولهذا كانت جيوش الفرنجة خليطاً من المواطنين معظمهم يفتقر التدريب العسكرى ، ولم تكن لهم قيمة حربية حقيقية (٢) . وفى النصف الثانى من القرن السادس كان الملوك هم قادة الجيش بأشخاصهم أو بمن ينوب عنهم من الأدواق والكونتات ، أما التجنيد الاجبارى ، فكان نادراً ، ولهذا يعجب الانسان كيف استطاعت هذه القوات المضطربة الفوغائية ، أن تكسب المعارك الحربية ، وربما يكون السبب أن أعداء الفرنجة من قوط أسبانيا وإيطاليا والألمانى والثورنجيين والبريتون كانوا أسوأ تنظيما وأقل عدداً (٣) ، فاستطاع الفرنجة أن يتفوقوا عليهم بقوة العدد ، ولما قابل الفرنجة فرسان الآفار المسلحين جيداً ومحاربيهم المدربين كانت النتيجة الحتمية هى الهزيمة للفرنجة . غير أنه حدث فى استراسيا قرب أواخر العهد الميروفنجى أن حل الفرسان محل المشاة لتدعيم قوة الجيش ، فجاء ذلك ثورة فى نظم الجيش وانقلابا حقيقيا فى الخطط الحربية ، أعطيا شارل مارتل القوات التى مكنته من حماية مملكة الفرنجة من أعدائها وإنزال الهزائم بالطامعين فيها (٤) .

(1) Heyek ; op cit. p. 3475-6
(2) Lot ; op. cit. p. 353
(3) Ibid : p. 353
(4) Lot ; op. cit. pp. 353-4


أوربا سنة ٥٢٦م
المحيط الأطلسي
السكسون
الأقار
اللمبارديون
الجبيداى
الفرنجة
البرجنديون
القوط الشرقيون
السويف
القوط الغربيون
إيطاليا
روما
باريس
الشرقية
القسطنطينية
البحر الأسود
الإمبراطورية
البحر المتوسط
الوندال

الفصل التاسع

ممالك الجرمان فى بريطانيا

بريطانيا والتاريخ القديم - الفتح الرومانى لبريطانيا - انتشار المسيحية بين عناصر الكلت - سحب الفرق العسكرية الرومانية من بريطانيا - غزوات الجرمان لها - عنف الغزو الجرمانى لبريطانيا - بروز الممالك القبلية السبع ببريطانيا : كنت . اسكس . سسكس وسكس . إيست أنجليا . مرسيا . نور ثمبريا . عقد الزعامة لمملكة كنت - ثم لمملكة نور ثمبريا - ثم لمرسيا - ثم لوسكس - ألفريد العظيم ملك وسكس - إدوارد الأكبر - اثلستان - إدجار - اثلرد الثانى - غزو الدانيين وقيام كانوت فى الحكم - عودة بريطانيا إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية - بعثة القديس أوغسطين الصغير - أوغسطين الصغير أول رئيس لأساقفة كانتبرى .

المعروف أن الجزر البريطانية عاشت عصرها القديم فى شبه عزلة تامة عن القارة الأوربية ومؤثراتها ، وتعرضت فى القرن السادس قبل الميلاد لغزوات قبائل الكلت الجيليين، وهم من العناصر الهندو - أوربية ، الذين تدفقوا إليها من خالة بعد استقرارهم فى أجزاء مختلفة من أوربا (١)، وفى القرن الأول قبل الميلاد ، نزلها فريق من الكلت يعرف بالكلت البريتون Britons إذ انسابوا إلى جنوبها

---

(1) Rayner ; Concise Hist. of Britain. p. 1

وشرقها واستقروا فى ويلز وكورنول ، وإلى هـذا الفريق من الكلت تنسب بريطانيا (١).

ويعد الفتح الرومانى للجزر البريطانية على يد يوليوس قيصر، قرب منتصف القرن الأول قبل الميلاد (٥٥ق.م-٩٠ق.م) بداية مرحلة هامة فى تاريخ تلك الجزر، إذ ربطها بعجلة الأحداث فى القارة الأوروبية (٢). وجعلها عرضة للتأثر بالاتجاهات الحضارية فى القارة الأم ، وساهم فى صنع جانب كبير من تاريخ تلك البلاد ، وخاصة بعد أن اكتمل الفتح الحقيقى لهذه الجزر فى القرن الأول الميلادى (٣). ولقد ثارت القلاقل فى وجه الحكم الرومانى فى القرن الثانى الميلادى ، وبذل الاباطرة الرومان جهوداً فى تثبيت الفتوح الرومانية ، وإقـامة التحصينات الدفاعية ، ومن بينها سور هادريان الشهير ، وبث الحاميات لصد القبائل الاسكتلندية (الكاليدونية) وغارات الأيرلنديين (٤)، ومع ذلك قنعت روما بعد حملات الإمبراطور سفيروس فى أوائل القرن الثالث (٢٠٥ - ٢١١م) ، بحكم أجزاء واسعة من الجزر البريطانية والانصراف إلى حماية سلطانها وتركيز قوتها فيما عرف بإنجلترا وويلز(٥). وظلت الجزر البريطانية تابعة للامبراطورية

(I) Davis : " The British Isles from the earliest times to the Med, ages, " in B. H. VII, p. 3497

نصر: : تاريخ أوروبا فى العصور القديمة ص ٣٨ (مترجم) .

Trevelyan : Hist. of England, Part, 1. pp, 10-13

(2) Davis : op. cit. p. 3498

(3) Camb . Med. Hist. V, I, p. 368

(4) Rayner : op. cit, p. 6

(5) Katz : op. cit. p. 7,9, pp, 97-8

الرومانية منذ فتحها ، مدة تقرب من أربعة قرون وجهت روما خلالها الجهود للارتقاء بتلك البلاد ، فشق الرومان الطرق وشيدوا المبانى وحفروا الآبـــار ، وعبدوا الطرق[١] لجعلوها وسيلة هامة من وسائل نقل التجارة والمواصلات ، واهتموا بالريف ، وخططوا المــدن وأنشأوا الحمامات ، وشجعوا الزراعة والتجارة ، واهتموا بإنتاج بريطانيا من الرصاص والصفيح واللؤلؤ والجلود ، حتى أصبحت بريطانيا إحدى الولايات الرومانية الغنية[٢].

ولقد حافظ الكلتيون بغرب الجزيرة البريطانية على معظم مقوماتهم القبلية، ثم مالبثوا أن اعتنقوا المسيحية التى انتقلت إليهم من إيطاليا مباشرة، وسرعان ما انتشرت بينهم انتشارا سريعا وساهمت فى زيادة الروابط مع الإمبراطورية الرومانية ، وشارك رجال الدين البريطانيون فى المجامع الدينية ،التى عقدت فى القارة الأوروبية فى القرن الرابع وأدلوا بدلوهم فى السياسة الدينية فى ذلك الوقت[٣]، ثم حملوا لواء التبشير بين البكتيين والقبائل الوثنية فيما وراء سور هادريان ، وحاز بعض رجالهم شهرة واسعة فى هذا الميدان ، ولاسيما باتريك Patrick وسوكات Sucat الذين بشرا بالمسيحية فى أيرلندا[٤]، وساهما فى إقامة أديرة أيرلندية غدت نواة الديرية ، التى ذاع صيتها فيما بعد ، ونالت شهرة واسعة فـيما بين القرنين السادس والثامن .

ولقد انعكست حالة الفوضى والاضمحلال التى آلت إليها رومانى القرن

(1) Davis : op. cit. p. 3498–502

(٢) ول ديورانت ج ٣ مجلد ٣ ص ٨٥ ،ص ٥٦ ،

Camb . Med. Hist., V. 1. p. 373

(3) Davis : op. cit p. 3502

(4) Raynes : op. cit. p. 9

الخامس الميلادى على الولاية البريطانية ، كما ترتب على غزو الجرمان لغالة فى أوائل القرن الخامس أن انقطعت الصلة بين ولاية بريطانيا والدولة الرومانية ، فاضطرت روما فى نهاية الأمر إلى سحب فرقها العسكرية منها ، لمواجهة الأخطار التى أحدقت بها ولصد هجمات الجرمان على أراضيها ، وأسند أمر الدفاع عن بريطانيا البريطانيين أنفسهم(١) ، ولاسيما أهل ويلز ، فأصبح عليهم النهوض لصد البكتيين والاسكتلنديين فى الشمال وقراصنة السكسون الجرمان من الجنوب ، ولا سبيل إلى معرفة درجات المقاومة التى بذلها أولئك البريطانيون فى صد تلك الأخطار ، ما دامت أخبار تلك المحنة شبه مفقودة لم يبق منها سوى النزر اليسير(٢). وعلى الرغم من أنه ليس معروفا تماما الوقت الذى انسحبت فيه القوات الرومانية نهائيا من بريطانيا ، فإن روما لم تكن لتتخلى عن هذه الولاية بسهولة وهى الولاية الغنية ، التى ظلت مصدرا للثروة طيلة أربعة قرون ، ولكنها أجبرت فى أغلب الظن على سحب فرقها منها ، قرب منتصف القرن الخامس ، حين غدا أمن روما ذاتها موضع شك كبير ، على أثر هجمات الجرمان ، وتقدم الهون صوب الغرب(٣).

وتمثل الحقبة الواقعة بين انسحاب الفرق الرومانية من بريطانيا ، ووصول القديس أوغسطين الصغير ممثل البابا جريجورى العظيم إلى شواطئها سنة ٥٩٧م ، وهى نحو قرن ونصف من الزمان ، فترة غامضة بالنسبة لتاريخ هذه البلاد . (٤) وكانت هجمات الجرمان ولاسيما السكسون لاتنقطع على الشواطىء الشرقية من

---

(1) Cantor : Med. Hist. p. 135

(٢) نصر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٣٧

(3) Katz : op. cit. p. 92

Lot : op. cit. p. 203

(4) Rayner : op. cit. pp. 8-9

الجزر البريطانية ، وشواطىء بحر المانش ، وذلك منذ أواخـــر القرن الثالث وأوائل القرن الرابع الميلادى (١) ، غير أن سحب آخر حامية رومانية من بريطانيا سنة ٤٤٢م أدى فى الواقع إلى اشتداد موجة الهجمات الرومانية ، وتطور الأمر إلى رغبة ملحة فى الاستيطان، ومالبث الجرمان أن عزوا بقواربهم عباب الأنهـــار التى تصب فى السواحل الجنوبية والشـرقية ، واستقروا بوديان تلك الأنهار (٢) . وكان الجرمان الذين غزوا بريطانيا ،قد جاءوا إليها من شواطىء بحـــر الشمال ومن شبه جزيرة جتـلاند ، ومن شبه الجزيرة المعـروفة حاليـا بالدانمرك ، ومن البـــلاد الواقعة جنوبها مباشرة ، ومثل الانجليز والسكسون والجوت عناصر هذه المجموعة الجرمانية ، يربطهم اشتراكهم فى اللغة والعادات والتقاليد ، وعرفوا باسم الانجليز - السكسون Anglo - Saxon (٣) .

وتمثل الفترة الواقعة بين منتصف القرن الخامس ، ومنتصف القـرن السادس تقريبا مرحلة أولى فى تاريخ الغزوات الجـرمانية لبريطانيا ، توافد فيها الانجليز والسكسون فى حركة تشبه الاستعمار ، ولم يصادفوا خـلالها سوى مقاومة ضئيلة من أهل بريطانيا الرومانية خاصة فى الجنـــوب الشرقى (٤) ، وانتهى الأمر باستيطان هذه العناصر الجرمانية فى وديان الأنهار ، بينما كان البريطانيون يميلون إلى سكن الجهات المرتفعة ، ولهذا لم يحدث نزاع بين الجانبين حينذاك ، بل سادت

---

(1) Trevelyan : op. cit. pp. 57–58
Camb. Med. Hist. V. I, p. 378

(2) Trevelyan : op. cit p. 33
Camb . Med. Hist. V, 1, p. 388

(٣) ديفز : نفسه ص ٣٢ ؛ Trevelyan : op. cit. p. 30

(4) Davis : op. cit. p. 3502

فترة من السلام (١) . غير أن هذا السلام لم يستمر طويلا بسبب رغبة الجرمان فى التوسع ، ولهذا دب النزاع سريعا بين الجانبين ، ولم يعد أمام البريطانيين سوى النضال ،فترتب على ظهور الصراع بينهما أن خربت البلاد وحرقت المدن ، وحل بالسكان القتل والأسر ، وطورد من نجا منهم غربا وشمالا بغرب (٢) . ويبدو أن شخصية الملك آرثر Arther ، التى احتلت مكانا ساميا فى نفوس البريطانيين ، وصورت بطريقة فيها شىء من الخيال ،كانت لأحد القادة البريطانيين الذين برزوا أثناء الكفاح ضد الجرمان واستطاع أن يلحق بالجرمان هزائم متوالية ، وينتزع الإعجاب من قومه(٣) ، ولكن على الرغم من ذلك انتصر الجرمان فى نهاية الأمر ، ولم يكد يقترب القرن السادس من نهايته حتى كان الجرمان قد بلغوا سفرن Severn ، وحالوا بين السكان البريطانيين فى شرق الجزيرة وحلفائهم فى ويلز وشمال شرقى الجزيرة ، وفى بداية القرن السابع كان الجرمان قد استولوا على كل ما هو معروف الآن باسم انجلترا فيما عدا بعض المناطق والمدن(٤) .

واتسم غزو الإنجليز والسكسون والجوت لبريطانيا بشىء من القسوة ،واتخذ طابع العنف ، ولم يفقه فى ذلك سوى غزو الوندال لشمال إفريقية ، فعلى الرغم من أن بعض القرى ظلت بأيدى سكانها من البريطانيين ، واكتفى باسترقاق أعداد من الأهالى ولاسيما النساء ، فإن هؤلاء الغـــزاة صرفوا همهم لانتزاع الأراضى

(١) فشر : نفس المرجع السابق ص ٣٨ – ٣٩

(2) Rayner : op. cit. p. 8

(3) Bury : Later Roman Empire, II p. 201

(4) Lot : op. cit. p, 210

Katz : op. cit. pp. 104, p.114

والإمعان فى القتل والتشريد لسكانها وتحويل قراهم إلى قرى جرمانية (١)، وترتب على هذه الموجة العاتية من الغـــزو أن تقهقرت اللغة اللاتينية وتراجعت الديانة المسيحية ، وتأخرت المدن الكبيرة ، ومحيت النظم الرومانية ، وقضى على ما كان لروما من دلائل السيطرة والسلطان فى تلك البلاد (٢) ، ولكن على الرغم من ذلك ظلت الجزيرة البريطانية تحتفظ بعناصر سكانها القدامى ، فقد بقى الآيبيريون السمر والكلتيون الجبليون والكلتيون البريتون ، كل هؤلاء وأولئك لم تذهب بهم الريح أو تجهز عليهم الكارثة ، بل ظلوا يمثلون عنصرا من عناصر سكان الجزر البريطانية (٣) . وينجلى الظلام عن بريطانيا فى نهاية القرن السادس (٥٩٧م) عند مقدم القديس أوغسطين ، فتبدو وقد تغيرت معالمها ، فصارت جرمانية وثنية ، وتغير اسمها فأصبح انجـــلترا بدلا من بريطانيا ، وحل مجتمع جرمانى بدائى محل مجتمع كانى تابع للامبراطورية الرومانية ، وغدت اللغة جرمانية خالصة والإله المعبود اسمه أو دين(٤) ، والزراعة عصب الحياة فيه . وليس هناك شك فى أن ذلك يرجع فى أغلبه لعدم تأثر الانجلـــيز والسكسون والجوت بالمدنية الرومانية قبل هجرتهم إلى تلك البلاد أو بعدها (٥) ، ولهذا سكنوا القرى والكفور دون المدن، وزرعوا الأرض على نظام الحصص المبعثرة (٦) ، ونجحوا فى محو ما كان لروما من أثر ربما كان أثرا سطحيا بسبب تركيز روما على الاحتلال العسكرى دون

---

(١) نفس : نفس المرجع ص ٧٢ .

(2) Trevelyan : op. cit. p. 33, Renouf : op. cit. p. 170

(٣) نعمى : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق١ ص ٣٨

(4) Davis : op. cit. pp. 3504-5

(5) Pirenne : op. cit. p. 141

(6) Rayner ; op. cit. p. 12

حمل الوطنيين على هجر لغتهم واتخاذ العادات الرومانية وتقبل كل ما هو رومانى عن رضى واختيار (١) .

ولما كانت غزوات الجرمان لبريطانيا قد تمت تحت قيادة نفر من رؤساء القبائل وزعماء العشائر ، فقد غدا أولئك الزعماء ملوكا متوجين بعد الاستقرار ، واتخذ كل مملكة قائمة بذاتها ، واستمد قدسية من إلهه الوثنى واستعان فى شئون الحكم بمجلس من الرجال (الحكماء) يعرف باسم الوتان Witan (٢) ، وما لبث الجرمان أن انتظموا فى مجتمع طبقى على قمته البيت المالك ، ثم طبقة الجزيت Jesithe ، ثم الايرلات Earls (٣) ، ومن هذه الطبقات الثلاث تكونت فئة المحاربين ، ومن بينهم يختار أعضاء مجلس الحكماء (Witan) ، ومهمته انتخاب الملك (٤) ، من بين أفراد الطبقة الأولى Aethelings ، وتقديم المشورة له فيما يعن له من أمور الحكم . أما أهم الطبقات العاملة فهى طبقة الأحرار من الفلاحين ، ثم يليها طبقات عديدة من غير الأحرار (٥) . غير أنه مما يسترعى الانتباه أنه برغم وحدة الأصول والتجانس بين العناصر الجرمانية الثلاث التى اشتركت فى غزو بريطانيا فإن التعاون بينهم فى البداية كان مفقودا ، ولم تتوحد أهدافهم ومشروعاتهم ، وربما يرجع ذلك إلى المساحات الشاسعة من المستنقعات التى كانت تفصل بين قبائلهم ، والغابات الكثيفة التى تقطع تسلسل وحدتهم وتصدهم عن

(١) نظير حسان سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها ص ٣٥ .

(2) "Germanic Law : The Anglo-Saxon Dooms" by Cantor in Med. World. pp. 92-3

(3) Trevelyan ; op. cit. p. 91, p. 97

(4) Cantor : Med. Hist. p. 127.

(5) Painter; A. Hist. of the Middle ages. p. 82

الاتصال بعضهم ببعض (١) ، ولهذا لم تصبح انجلترا دولة متحدة إلا بعد مرور أجيال عديدة ، ومن مظاهر هـذا الانقسام وعدم التعاون ، قيام ممالك قبلية مختلفة سميت بالممالك السبع Heptarchy ، وهى الممالك التى أقامتها العناصر الثلاث المشتركة فى هذا الغـزو (٢) ، أقام الجوت مملكة كنت وكون السكسون ثلاث ممالك هى اسكس وسسكس ووسكس ، واختص الانجليز بالثلاث الباقية وهى انجليا الشرقية (ايست انجليا) ومرسيا ونورثمبريا ، ولقد تقلصت هذه الممالك إلى ثلاث ممالك فقط ، وساعدت الظروف الجغرافية على تكوين هذه الممالك ، إلا أن الحروب الداخلية عاقت الجرمان عن تطويرها (٣).

فقد اندلعت الحروب الطاحنة بين تلك الممالك ، واهتم ملوكها بإثارة البغضاء وشن الحروب فيما بينهم ، وسمت همـة بعضهم لنيل الزعامة فى تلك الدويلات الجرمانية ، وتصفية أملاك جيرانهم واحتواء ممالكهم ، فإذا أنزل أحدهم الهزيمة بالآخر ، احتوى أرضه وأضافهـا إلى مملكته أو ألزمـه بدفع إتاوة معينـة ، وإذا استطاع أحد هؤلاء الملوك إلحاق الهزائم بكل أنداده ومنافسيه ، حصل على سيادة إنجلترا كلها (٤) . وما حدث فى مملكة كنت Kent التى كونها الجوت ، وقد كانت جنة إنجلترا منذ القدم ، وأعظم جهاتها تقدما وحضارة ، يؤكد هذه الحقيقة ، فقد ظهرت مدنية هذه المملكة مزيجا من عناصر حضارية متنوعة ، وظلت على صـلة

(I) Ellis and Fisher : A Hist. of English life V. I. p. 65

(٢) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ١٢٣ ،

Davis & Archer : "The British Isles" B.H. VII. p. 3737

(3) Rayner : op. cit. p. I0–11

(٤) فشر : نفسه ص ٣٩–٤٠ ، ديفز : نفسه ص ٣٢ .

بجيرانها من البريطانيين الرومانيين ، فضلا عما قام بينها وبين شعوب أوربا من علاقات تجارية وصلات اجتماعية (١) . وشهدت هذه المملكة أوج عظمتها أيام حكم ملكها إثلبرت Aethelbert ، وكان هذا الملك صديقا للقديس أوغسطين الصغير ، واستطاع أن يفرض سيطرته على كل الممالك الأخرى (٥٦٠ - ٦١٦م) كما كان اعتناقه المسيحية إيذانا بفترة جديدة فى تاريخ البلاد (٢) فقد أخذت المسيحية تنتشر من جديد فيها ، وبدأ انفتاح الجزيرة البريطانية من جديد على القارة الأوربية (٣) ، لكن ما لبثت مملكة كنت الجوتية أن فقدت قيادتها ، وأصابها الذبول وأخلت مكانها لمملكة أخرى تقدمت الصفوف وحملت لواء الزعامة ، وتكرر ذلك أيضا فى مملكة نورثمبريا Northumberia الانجليزية التى ما لبثت أن حازت السيادة فى إنجلترا بفضل اتصالها بالمسيحية الكلتية (٤) فحلت القبائل الإنجليزية فى فى نورثمبريا وليستر وبدفورد وكامبردج ، وفى أقصى الشمال نزل البرسيون وهم فرع من الإنجليز ، وامتزجوا بالكلتيين امتزاجا وثيقا ، نشأت منه مملكة نورثمبريا التى استقامت لها ولحضارتها الكلتية زعامة الممالك الثابتة بشمال الجزيرة (٥) ، ولقد ازدهرت مملكة نورثمبريا فى القرن السابع ولاسيما تحت حكم ملكها أوزوالد Oswald وأوزوى Osway (٦) ، وظلت رائدة الممالك الجرمانية حتى سنة ٦٥٨م لكنها اضطرت بعد ذلك إلى الانزواء ، وترك القيادة لمملكة إنجليزية أخرى ،

---

(١) نظير حسان سعداوى : تاريخ انجلترا وحضارتها ص ٣٢ .

(2) Oman : op. cit. p. 193

(3) Davis : "The Britirh Isles" B.H. VII. p. 3505

(4) Cantor : Med. Hist. p. 204

(٥) نظير حسان سعداوى : نفس المرجع ص ٣٤

(6) Rayner : op. cit. p. 11

ثم كانت نهايتها على يد زعيم القراصنة الدانيين هنجوار سنة ٧٦٦م حين أكتسحها بين ما اكتسح من الممالك الانجليزية الواقعة بين التيمز والكليد فى حملة واحدة خاطفة ، فأكره أهل هذه الممالك على دفع ضريبة الذهب الدانى (١) . ثم صار لمملكة مرسيا الزعامة لفتره طويلة ، امتدت إلى قرب نهاية القرن الثامن الميلادى أى إلى نهاية عهد ملكها الكبير أوفا Offa (٧٥٧ - ٧٩٦م) (٢) ، وشهدت هذه المملكة فترة من الازدهار تحت حكم أوفا ، فنال شهرة واسعة وعامله ملوك أوربا على أنه مساولهم ، وكان قد بنى الحائط الحائلى العظيم الذى عرف بـ Offa's Dyke ليكون حداً فاصلا بين إنجلترا وويلز (٣) ، ثم ضعفت هـــذه المملكة بعد ذلك وساهمت هجمات هنجوار زعيم القراصنة الدانيين فى القضاء على هـــذه المملكة وخاصة بعد أن استولى هنجوار عـــلى نوتنجهام فى انجلترا الوسطى ، فانتقلت الزعامة إلى مملكة أخرى سكسونية هى مملكة وسكس Wessex (٨١٩ - ١٠٦٦م) التى أسسها الملك إجبرت Egbert (٨٠٢ - ٨٢٩م) (٤) ، وكانت هذه المملكة قد اخترقت فى عهد ملكها كيولن Ceaulin (٥٦٠-٥٩٢م) خطوط المقاومة التى ثبت عليها البريطانيون عشرات السنين وامتدت حدودها مابين نهرى التيمز وسفرن ، وفصلت بين بلاد الغال الغربية وشبه الجزيرة الممتد فى الجزء الجنوبى الغـــربى منها (٥) ، والواقع أن هذه المملكة غدت أعظم قـــوة سياسية فى إنجلترا قبل

---

(١) نظير حسان سعداوى : نفسه ص ٤٨

(2) Devis : op. cit. p. 3506
Trevelyan : op. cit. p. 31

(3) Rayner : op. cit. p. 11

(4) Davis : "The British Isles" B. H. VII. p. 5307

(٥) نظير حسان سعداوى : نفس المرجع ص ٣٤

حلول الغزاة الجدد من الدانيين فى القرن التاسع الميلادى (١) ، فقد تهيأ لها بفضل ملوكها الأقوياء فرصة المقاومة الباسلة ضد غزوات المهاجرين الجدد ، وهوى إليها الهاربون من الممالك المهزومة التى هدمها الدانيون ، وكان الملك إجبرت Egbert قد اختير ملكا سنة ٨٠٢ بعد استدعائه من منفاه فى بلاط شارلمان حيث حيث كان أوفا قد نفاه من قبل فقضى سنوات من شبابه فى بلاط الملك الفرنجى الكبير ، ثم عاد من جديد ليستعيد مملكته ويهزم المرسيين فى معركة إيلاندون Ellandune سنة ٨٢٥ ، وقد منحه ذلك النصر فرصة احتواء مرسيا والممالك التى حكمها المرسيون مثل كنت وسسكس وإنجليا الشرقية ، كما دانت له نورثمبريا واعتبر أول ملك يحكم كل انجلترا (٢) ، واعتبر مؤسسا لعهد القوة فى هذه المملكة السكسونية (٣) ، وتولى بعده ابنه اثيلولف Ethelwulf فقام بإصلاحات هامة فى المملكة ، أبرزها عنايته بالكنيسة الإنجليزية وتوطيد صلاتها بروما ، وقيامه بزيارة روما حاجا مصطحبا معه ولده ألفريد Alfred وهو فى الرابعة من عمره ، فبارك البابا حجتها وشملها بكريم رعايته (٤) .

تولى الملك ألفريد العظيم (٨٧١ - ٨٩٩) عرش هذه المملكة ، وكان فى الثالثة والعشرين من عمره ، أى أنه لم يكن فى سن تمكنه من إنجاز كل ما أنجزه ، وتحقيق كل ما تحقق على يديه من أعمال (٥) ، إلا أنه ومع ذلك استطاع أن

---

(١) عمر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٤٠

(2) Rayner ; op. cit. p. II

(3) Trevelyan : op. cit. p. 67, 70

(4) Rayner ; op. cit. p. 15

(5) Painter : op. cit. p. 9I

Orton ; The Shorter Camb. Med. Hist. V. I, p. 381

ينقذ مملكته من خطر الدانيين ويمنعهم من الاستيلاء عـــلى الجزيرة برمتها ، إذ أنزل بهم الهزيمة سبع مرات كانت أخراها فى واقعة إدنجتون Edington (Ethandone) سنة ٨٧٨ فأرغم زعيمهم على قبول شروط ودمور Wedmore سنة ٨٨٦ (١) . ومن بينها موافقته على التنصر، وإقراره بأن تكون الحدود الفاصلة بينه وبين مملكة ألفريد خطا يمتد عبر الاقاليم الوسطى بالجزيرة عـلى طـول الطريق الرومانى المعروف باسم واتلنج ستريت Watling-Street ، لتكـون سلطـة الدانيين إلى الشرق من هذا الخط ويضم يوركشير ولينكولن ولنكشير وايست انجليا وشرق مرسيا(٢) ثم عاد ألفريد بعد ذلك بسبع سنين فأكره الدانيين على إقرار معاهـدة أخـرى جرى بموجبها مد حدود مملكته إلى الشرق داخل أراضيهم ، فغدت لندن تحت سيطرته مستقطعا إياها منهم وقام بتعميرها من جديد بعدما نزل بها من تخريب على أيديهم (٣). وبالإضافة إلى ذلك شرع ألفريد العظيم فى تحصين وتنظيم المملكة السكسونيه ، فبنى خمسة وعشرين حصنا منيعا حول وسكس، وحفر الخنادق وبنى الأسوار حـــول مدنها الكبيرة وشحنها بالحاميات العسكرية ، وشيد أسطولا عظيما (٤) ، حاول أن يتصدى به القراصنة الدانيين ، وغزاة الفايكنج ، ونجح فى إنزال هزيمة بحرية كبيرة بالأسطول الدانى سنة ٨٩٦م ، ونظرا لعناية ألفريد الشديدة بالبحرية ، اعتبر مؤسس البحرية الإنجليزية ، التى صار لها شأن عظيم

---

(1) Trevelyan : op. cit. p. 79, Rayner : op. cit. p. 16

(2) Davis & Arther : op. cit. p. 3835

(3) Trevelyan . op. cit. p. 79

(4) Davis & Arthur : op. cit. p. 3835
Rayner : op. cit. p. 16

فيما بعد (١) . وفضلا عن هــــذا فقد أظهر ألفريد عناية كبيرة بالجيش الوطنى ، ونصب على قيادته الفرسان المحليين ، وأعاد جمع وتدوين القوانين كلها ، كما أصدر قانونا شاملا لعادات السكسون ، وأعاد كتابة قوانين الملوك الجرمان السابقين فى بريطانيا مثل أثلبرت ملك كنت وأوفا ملك مرسيا (٢) .

وكان ألفريد علما من أعلام غرب أوربا فى عصره ، لأنه لم يشأ أن يقبع داخل الجزيرة البريطانية ، وإنما مال إلى الانفتاح على القارة الأوربية، وصادق شارلمان معاصره ، وماثله فى كثير من الأوجه ، فقد كان كل منهما بطلا من أبطال المسيحية ضد الوثنية والكفر ، وكان كل منهما محاربا فذا ورجل دولة ومنظماً بارعاً وراعيا للعلوم والفنون والآداب (٣)، وكان قد زار روما وأبدى عناية فائقة بالآداب والعلوم الإنجليزية وعنى بالمدارس ، ونقل عن شارلمان كثيرا من اهتماماته العلمية وميوله الأدبية،فأنشأ مدرسة القصر بمملكته واستقدم اليها العلماء والأدباء من قلب القارة الأوربية ولاسيما من ألمانيا وفرنسا وتلقى بها أبنــــاء النبلاء العلم (٤)، واستعان بالمبرزين فى النواحى العلميــة والثقــافية لتثقيف نفسه وشعبه،واهتم بترجمة الكتب اللاتينية الشائعة إلى الإنجليزية ، ومنها أشهر مؤلفات بيدى وأورسيوس وجريجورى وبيوثيوس والقديس أوغسطين،وترجم هــــو نفسه بعض الكتب إلى الإنجليزية،وسجل تاريخ بلاده بالانجليزية،وألف كتاب

---

(1) Painter : op. cit. p. 92

(2) Davis & Arthur : op. cit, p. 3836

(3) Cantor : Med. Hist. p. 87
Rayner : op. cit. p. 16
Trevelyan : op. cit. p. 78

(4) Rayner : op. cit. p. 18

وتاريخ الأنجلو سكسون، فضلا عن اهتمامه بالأدب والنثر حتى ليعد مؤسس النثر فى الأدب الإنجليزى (١).

ولقد وضع ألفريد العظيم أسس النهضة العسكرية والعهد الزاهر لمملكة وسكس، فقد تمكن ابنه وخليفته إدوارد الأكبر Edward the Elder (٩٠٠-٩٢٤م)، بالاشتراك مع إثلرد ملك مرسيا من غزو الدانيين فى البقاع التى تمركزوا فيها فى نورثمبريا وإيست انجليا ومرسيا ، وصفى أملاكهم شرقى واتلنج ستريت (٢)، كما استطاع حفيده أثلستان Athelstan (٩٢٤-٩٤٠م) أن يصد هجوماعنيفا للدانيين فى واقعة برونابرى Brunaburgh سنة ٩٢٧م، وبلغت مملكة وسكس أوج قوتها وعظمتها على عهد ملكها إدجار Edgar(٩٥٩-٩٧٥م)، بفضل سياسته الحكيمة، وما استتبعه من التعاون بين الكنيسة والملكية السكسونية وكان لهذا التعاون نتائج بالغة الأهمية بالنسبة لتاريخ انجلترا من ناحية والقارة الأوربية، من ناحية أخرى (٣)، فقد أسفر هذا التعاون عن بعث النشاط فى الديرية فى انجلترا ، بعد أن كان الغزو الدانى قد أصابها بالذبول وأعيد إصلاح الأديرة وتنظيمها على أسس قوية ، فعادت الديرية البندكتية سيرتها الأولى (٤).

يستنتج من كل ماسبق أن مملكة وسكس حازت الغلبة على سائر انجلترا نحو سبع وسبعين سنة بعد وفاة ألفريد العظيم ، فمدت نفوذها إلى أبعد من أراضيها

---

(1) Davis & Arthur : op. cit. p. 3837
(2) Ibid : p. 3836; Trevelyan : op. cit. 81
(3) Cantor ; Med. Hist. p. 206
Rayner : op. cit. p. 18
Davis & Arthur : op. cit. pp. 3836-7
(4) Rayner ; op. cit. pp. 8-9

وحكت بلاد الدانيين بانجلترا ، كما نجحت بفضل تعاونها مع الكنيسة في النجاة من الأخطار التي هددتها ، وأعادت من جديد الحيـاة إلى الديرية في انجلترا ، وبعث النشاط في الديرية البند كتية ، بعد أن كاد الغزو الدانى يقضى على تلك الحياة وعلى الثقافة أيضا (١) ولقد شهدت مملكة وسكس على عهدملكها إثلرد الثانى (٩٨٧-١٠١٦م)، فترة ضعف واضمحلال بسبب صغر سن هذا الملك من ناحية ولمجيء الموجة الثانية من موجات الدانيين الغزاة من ناحية أخرى، وقد اشتدت وطأتها اعتبارا من بداية القرن الحادى عشر (٢)، فلجأ إثلرد إزاء تلك الأخطار إلى عقد مصاهرة سياسية مع دوقية نورمانديا ، فتزوج من ابنة رتشارد دوق نورمانديا ليستعين به على الغزاة ، فضلا عما لجأ اليه من شراء مسالمتهم بدفع مبالغ كبيرة من المال ،ففرضت الضريبة التي عرفت بذهب الدانيين أو مال الدانيين Danegeld (٣) ، وأمام ضغط الدانيين وخطرهم اضطر إثلرد في النهاية إلى الفرار إلى نورمانديا مصطحبا زوجته النورمانية وأولادهما ، وأقيم سوين ملك الدانيين ملكا على إنجلترا سنة ١٠١٣م ولما توفى هذا الملك في نفس العام ، ولى بعده ابنه ذائع الصيت كانوت Canute (٤) .

ومهما يكن من أمر، فإن تاريخ إنجلترا في تلك الحقبة يمثل تاريخ المملكة المهيمنة ، التي تحولت في ظلها الممالك الأخرى إلى كيانات أشبه بالمقاطعات ،

---

(1) Cantor : Med. Hist. p. 206
(2) Raymer ; op. cit. p. 20
(3) Trevelyan : op. cit. p. 96
(4) Cantor : op. cit. p. 207

دون أن تفقد تلك الممالك المندثرة طابعها أو وحدتها (١)، بل قنعت بعضويتها فى مملكة كبيرة واحتفظت فى بعض الأحيان بأفراد بيتها الحاكم وقد تحـــولو مع الوحدة الجديدة إلى رؤساء مقاطعات(٢)، وظلت هذه المقـاطعات تحتفظ بأشكال المؤسسات الدستورية والتشريعية القديمة ، فظـــل للمقاطعة جمعيتها الشعبية التى تتكون من محاربين يجتمعون مع الزعماء مرتين فى كل عام لبحث مايهم المقاطعة والتشاور فيما يعن لهم من أمور . وحافظت المملـكة الكـــبرى على نظامها الدستورى والتشريعى الجرمانى، فكان لها جمعية عمومية تكونت فى أغلب الأحيان من رؤساء المقاطعات وهيئة من المحاربين من رجال الملك وحاشيته، إلى جانب الأساقفة وبعض مقدمى الأديرة (٣) .

وكانت المسيحية قد تقهقرت فى الجزر البريطانية ، على أثر غزوات الجرمان، بعد أن تراجعت العناصر الكلتية، وفرت أمام الغزاة ومحيت آثار السلطة الرومانية، وغرقت البلاد فى عهد وثنى جديد ، لـكن لم يكد ينتهى القرن السادس وتستقر الأوضاع وتنبثق مملكة كنت الجوتية ، متزعمة لكافة الممالك ،حتى عادت إنجلترا من جديد إلى حظيرة المسيحية الكاثوليكية (٤) ، ولم تنتقل المسيحية إلى إنجلترا فى هذه المرة عن طريق غالة ، وإنمـا وصلت إليها من إيطاليا مباشرة على يد أشهر المبشرين فى ذلك الوقت وهـــو القديس أوغسطين الصغير مبعوث البـابا جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) (٥). فقد رأس أو غسطين الصغير بعثة مكونة

(1) Davis : op. cit. p. 3507

(2) Trevelyan ; op. cit. p. 61–62

(٣) سعداوى : المرجع السـابق ص ٣٩

(4) Davis : op. cit. p. 3505

(5) Camb. Med. Hist. V. I, pp. 538–40

من أربعين راهبا ، كان من أعضائها ثيودور الطرسوسى Theodor of Tarsus وكان أوغسطين أحد كبار الديريين البندكتيين ، ولهذا أظهر تحمسا كبيرا للتبشير بالمسيحية فى تلك البلاد على الرغم من الصعوبات التى اعترضت طريقه حتى قبل وصوله إليها ، لكن ماليث أن صادف أوغسطين حظا طيبا فى مهمة [١]، فقد كان الملك إثلبرت ملك كنت قد تزوج أميرة فرنجية تعتنق المسيحية ، واستطاعت هذه الاميرة أن تحوله من وثنيته إلى المسيحية ، فاستقبل أوغسطين فى انجلترا استقبالا حافلا ، بمجرد وصوله سنة ٥٩٧م ، وسهلت مهمته فى التبشير بالمسيحية ،وتوثقت عرى الصداقة بين الرجلين [٢]. ولم يبذل أوغسطين ورفاقه جهدا كبيرا فى مملكة، كنت، بسبب تحول غالبية سكانها إلى المسيحية ،على أثر اعتناق ملكهم لهذه العقيدة، ولأن الناس قنعوا بما شاء لهم ملوكهم من العقائد ، بل انتشرت المسيحية فى غير مملكة كنت من الممالك السكسونية والإنجليزية الخاضعة ، ومعظم ماصادف أوغسطين ورفاقه من مشقة كان فى بقية أنحاء الجزيرة البريطانية ، حيث بدأت المسيحية تتقدم تقدما بطيئا ،ونزل القديس أوغسطين فى مدينة كانتبرى عاصمة الملك إثلبرت ، وجدت البعثة التبشيرية فى إعادة بناء كنيسة القديس مارتن ، التى ترجع إلى العهد الرومانى ، فأقاموا بذلك أول كتدرائية مسيحية فى إنجلترا،وأصبح أوغسطين الصغير أول رئيس لأساقفة كانتبرى (٥٩٧-٦٠٥) [٣] وبدأت المسيحية تتقدم فى بقية الممالك الجرمانية بانجلترا فى نورثمبريا وإيست انجليا ومرسيا وسكس ، غير أن مدينة لندن أظهرت عنادا شديدا للعقيدة الجديدة ، وطردت

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 127

(2) Trevelyan : op. cit. pp. 49-50

(3) Pirenne : op. cit. p. 127

مبعوثى أوغسطين إليها ، وخيبت أمـل البابا جريجورى لجعلها مركز للمسيحية وحصنها فى إنجلترا ، بدلا من كانتبرى ، لـكن على الرغم من هـذا كان دخـول إنجلترا دائرة الكنيسة الغربية من جديد قد عوض جزءا مـن الخسارة التى منيت بها الكنيسة بعد ذلك حين استولى المسلمون على أسبانيا ونشروا الإسلام فيها(١).

وحازت الكنيسة الغربية بذلك السيادة على انجلترا ، وصارت صاحبة الأمر والنهى فى شئون المسيحية فيها ، وتولى أسقفية كانتبرى فى القرن السابع نفر من رجالها تميزوا بالحماسة والدأب على تأكيد نفوذ البابوية وسلطتها ، وأظهروا همة فى ربط انجلترا بعجلة البابوية روحيا وحضاريا (٢) ، ومن هؤلاء فيتاليان ثيودور الطرسوسى ، وكان من أصل يونانى وقـد صرف همته إبان رياسته (٦٦٩-٦٩٠م) لإنشاء المدن الأسقفية ، وجعل مدينة يورك عاصمة إقليمية روحية ، وإضفاء النظم الرومانية والثقافة الرومانية على الكنيسة الانجليزية، وعقد أول مجامع دينية عرفتها الكنيسة فى إنجلترا ، وبذل مساعيه الحيدة لدى مـلوك انجلترا لمنح الكنيسة الانجليزية الأراضى لصرف منها على الكتدرائيات والأديرة ولا غرو إذا عد هذا الرجل مؤسس الوحدة الدينية الانجليزية (٣) ولقد ترتب على عودة إنجلترا لحظيرة المسيحية وسيطرة روما على شئونها الدينية أن ارتبطت انجلترا من جديد بعجلة الأحداث الأوربية ، وعادت الصلة ثانية بينها وبين العالم اللاتينى ، وأظهر الرهبان الأوغسطيون همتهم فى تعليم الناس اللاتينية والمسيحية

---

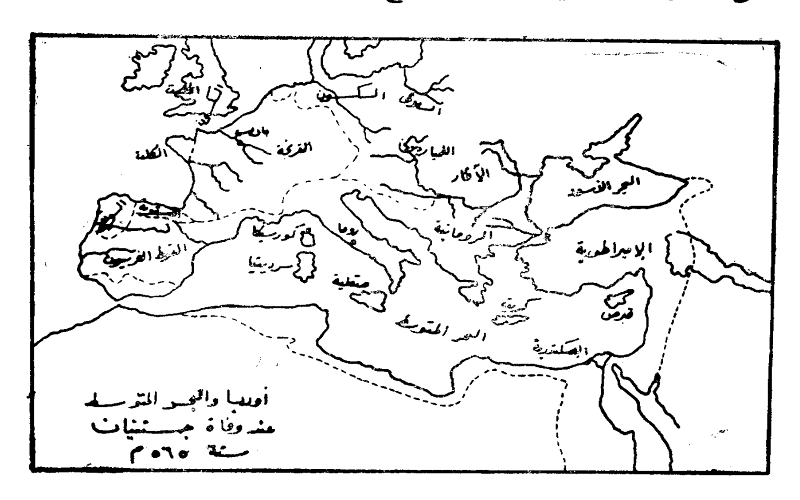
(١) سعيد عاشور : أوربا العصور الوسطى ج ١ ص ١٠٧ .

(2) Pirenne : op. cit. p. 127

(3) Painter : op. cit. p. 87 ,

صحداوى : نفسه ص ٤٢

معا ، وتعلمت إنجلترا من جديد ما القوانين المكتوبة من مزايا فى تثبيت أحوال البلاد والناس ، وصارت للانجليز نظام كنسية مرتبة على نسق النظم الإمبراطورية الرومانية أدق ترتيب (١) ، والدليل على ذلك أن أول المجالس القومية التى عقدت بانجلترا هى المجالس الكنسية وأن أول مجموعة من القوانين العامة جمعت بمملكة كنت بإرشاد القديس أوغسطين ، وفضلا عن هذا وذاك ، فإن تقسيم إنجلترا من أجل الإدارة الكنسية إلى أسقفيات ، ثم تقسيم الأسقفيات إلى أبرشيات ، إنما يرجع الفضل فيه إلى الرومان من رجال الدين ، وفضل الرومان من رجال الدين على انجلترا السكسونية لاينكره فى الواقع إلا الجاحدون (٢) .



أوربا والبحر المتوسط
عند وفاة جستنيان
سنة ٥٦٥ م

(1) Pirenne : ep. eit. p. 127

(٢) فشر : تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٤٠-٤١ .

Trevelyau : ep eit. p. 33

الفصل العاشر

مملكة اللمبارديين بإيطاليا

ظهور اللمبارديين - حالة اللمبارديين قبل غزوهم لإيطاليا من النواحى الحضارية والدينية والسياسية - تعاون ملكهم أدوين مع نارسيس ضد القوط الشرقيين - الغزو اللمباردى لإيطاليا سنة ٥٦٨م تحت قيادة الملك ألبوين بن أودين - استقرار اللمبارديين فوق سهل نهر البو واتخاذهم بافيا عاصمة - مقتل ألبوين واختيار كليفو ملكا - السلطة البيزنطية فى إيطاليا - مدى انتشار اللمبارديين فوق أرض إيطاليا - عودة اللمبارديين إلى اختيار ملك جديد فى ظل تهديد الفرنجة - التحالف بين البيزنطيين والفرنجة لمحاربة اللمبارديين ملوك اللمبارديين : الملك أوثارى - أجيلولف - خطر الآفار بالنسبة لمملكة اللمبارديين على عهد أجيلولف - أدلوالد - عهد الملك روثارى - نشاط البيزنطيين فى إيطاليا - الملك ليتوبراند - أستولف ومناهضة النفوذ البيزنطى فى شمال إيطاليا والاستيلاء على رافنا سنة ٧٥١م - إزدياد نفوذ البابوية - حروب أستولف ضد البابوية - طلب البابوية تدخل الفرنجة - غزو شارلمان لإيطاليا بعد وفاة أستولف وإنهاء المملكة اللمباردية .

ترتب على انهيار إمبراطورية الهون فى النصف الثانى من القرن الخامس الميلادى ، وعلى وفاة جستنيان سنة ٥٦٥م ، أن تغيرت الظروف بالنسبة لكثيرمن

القبائل الضاربة بشرق أوربا ووسطها ، وتبدلت أوضاع كثير من القوى ، سواء تلك التى دانت لأتيلا أو التى دارت فى فلكه ، أو التى أخلدت للسكينة فى عهد جستنيان (١) ، إذ برز الآفار فى حوض نهر الدانوب ، وبدءوا يلعبون دورا هاما باعتبارهم وارثو الامبراطورية الهونية ، وعبث الجبيداى وهم من بقايا القوط الذين ظلوا فى هذه الجهات بعد رحيل بقية القبائل إلى أسبانيا وإيطاليا(٢)، وكذلك عبث السلاف فى المنطقة، مستفيدين دون شك من الظروف الجديدة لملء الفراغ الذى تركه كل من أتيلا وجستنيان (٣) .

غير أن ظهور اللمبارديين على مسرح الأحداث يعد أبرز تلك التغيرات ، كما يعد غزوهم لإيطاليا فى القرن السادس أهم نتائج هذه التغيرات . واللمبارديون أحد الشعوب الجرمانية التى انسابت من موطنها الأول حول البحر البلطى إلى أطراف الامبراطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى ، بل كانوا آخر موجة من موجات الغزوات الجرمانية التى ساهمت فى صنع جانب من التاريخ الأوربى الوسيط (٤) ، إذ بدءوا ينسابون ببطء فى حوض نهر الراين نحو نهر الدانوب، وظهروا فى بانونيا منذ نهاية القرن الخامس، فبدأ احتكاكهم بالعالم الرومانى يزداد ، وفى السنوات التى تلت اندحار أودا كر فى إيطاليا ، كان اللمبارديون يستقرون فى أواسط الدانوب ، وأصبحوا يجاورون كلا من الجبيداى والقوط

---

(1) Heyck : "The Greal Teutonic deluge". in B.H, VII. p. 3454
(2) Oman : op. cit. p. 183
(3) Hussey ; op. cit. p. 22, Rice : op. cit. p. 79
(4) Lot ; op. cit. p. 285

الشرقيين (١) ، وطفقوا يبسطون سلطانهم على جيرانهم بالقوة تارة وبالتحالف تارة أخرى ، لكنهم لم ينازعوا الامبراطورية البيزنطية سلطانها فى بادىء الأمر بل خدموها فترة قبل أن يصبحوا أداة لزعزعة النفوذ البيزنطى فى إيطاليا (٢) ، والواقع أنه ترتب على طرد القوط الشرقيين من إيطاليا نتائج بالغة الأهمية، وكان من الأنفع للامبراطورية فعلا أن تصادق أولئك القوط، لتدرأ بهم شر عناصر أكثر بربريه ، فقد كان القوط الشرقيون أكثر الشعوب المتبربرة حفاظا على الحضارة والنظام الرومانية (٣) ، ولو لم تتصدع دولتهم فى إيطاليا لما حدثت الغزوات اللمباردية ، ولما برزت دولة البابويه بكيانها واستقلالها ولما تضاربت المصالح المختلفة فى ذلك القطر الكبير ومزقته المحن ، وألحت عليه صروف الزمان .

فلم يمض أكثر من خمسة عشر عاما على عودة إيطاليا الى حظيرة الامبراطورية حتى زحف اللمبارديون من أواسط الدانوب إلى إيطاليا مترسمين خطى ثيودريك يحفزهم صيت نجاحه ، وكان اللمبارديون أكثر الشعوب الجرمانية تخلفا ، وأقلها حظا من الحضارة (٤) ، لأنهم ظلوا بمعزل عن المدنية الرومانية ، قابعين فى ظلام الشمال فترة طويلة ، فلما بدءوا فى التدفق إلى حدود الامبراطورية ، كانت هذه قد تصدعت وانهارت (٥) ، ومن ثم ظل اللمبارديون فى نفس المستوى من الحياة

---

(1) Oman : op. cit. pp. 181-2

(2) Pirenne ; op. cit. p. 69

(٣) نعمر ؛ تاريخ أوربا فى العصور الوسطى ق ١ ص ٥١ ،
Lot : op. cit. p. 286

(4) Grant ; op. cit. p. 133

(5) Heyck ; op. cit. p. 3454

القبلية الذى رسمه تاكيتوس عن الشعوب الجرمانية فى القرن الثانى ، وكان يجرى انتخاب الملك من بين البيوت الملكية بواسطة كل الشعب اللمباردى (١) .

وكان اللمبارديون يعتنقون المسيحية الأريوسية ، ويتسمون بشىء من الغلظة والقسوة ، فأذاقوا الإيطاليين كثيرا من أصناف العذاب ، وانتزعوا منهم أراضيهم ، وأنزلوهم إلى مراتب العبودية ، وتعصبوا كثيرا لأصلهم الجرمانى وحضارتهم الجرمانية ، ومثلوا فئة أرستقراطية ممتازة ، لكنهم استعملوا اللغة اللاتينية ، وتحولوا فيما بعد من الأريوسية إلى الكاثوليكية ، التى انتشرت بينهم بعد أن اعتنقها أحد ملوكهم (٢) ، وكان أدوين Audoin هو ملك اللمبارديين المنتخب فى الفترة الهامة التى شهدت حروب نارسيس ضد القوط الشرقيين بإيطاليا ، وهو الملك الذى استطاع نارسيس أن يحصل على معونته ضد القوط ، بما بذله له من الأموال والهدايا ، فقاد أدوين بنفسه نحو خمسة آلاف محارب وانحاز إلى الجيش البيزنطى فى غزوه لإيطاليا سنة ٥٥٢ (٣) وأبلى بلاء حسنا فى معركة تاجينى Taginae ، ويبدو أن هذه الحرب هى التى أوضحت للمبارديين مدى ثروة إيطاليا وغناها ومدى ضعفها وتفككها فى نفس الوقت ، ولم يؤخر غزوهم لها نحو خمسة عشر عاما بعد ذلك سوى انشغالهم فى حروب طاحنة مع جيرانهم فى الدانوب من ناحية وكبر سن ملكهم أدوين من ناحية أخرى (٤) .

(I) Oman : op. cit. p. 182

Pirenne ; op, cif, p, 70

(٢) ديفز : أوروبا فى العصور الوسطى ص ٤٠ ؛

Cantor · Med. Hist p, I64

(3) Lot : op. cit. p, 262

(4) Oman : op. Cit. p. 182

والواقع أنه لم تقم لبيزنطة حكومة قوية فى إيطاليا على عهد جستنيان ، إذ لم يسيطر النائب الامبراطورى فى رافنا ، فى وقت من الأوقات على جميع البلاد، ولم يستطع أن يحمى حدودها البتة من هجمات الأعداء ، فتدفق اللبارديون عليها، ولم يلبثوا أن دقوا أوتادهم فى البلاد سنة ٥٦٨م (١)، فحين انتهت الحرب بين اللبارديين والجبيداى سنه ٥٦٦ ، بفضل مساعدة الآفار للباردبين ، كان ألبوين Albein ابن أدوين قد أصبح ملكا على اللمبارديين وصمم على غـزو إيطـاليا (٢) ، وقاد قومه فعلا فى صيف سنة ٥٦٨ ، واجتاز بهم جبال الألب الشرقية واخترق الأراضى الايطالية عن طريق شبه جزيرة أستريا (٣) ، ونزل بهم سهول الشمال الفسيحة ، دون مقاومة تذكر ، بل سارعت بعض المـــدن مثل أكويليـا Aquileia وميلان بفتح أبوابها واستقبال الغزاة بترحاب ، ولم تقاوم سوى بعض المدن التى نزلت بها حاميات بيزنطية مثـــل : فيرونا وبادوا وبافيا ، وسرعان ما انتشر الغزاة الجـــدد فوق سهـل البو حتى أبواب رافنا (٤) . وهكـذا لم يصادف اللبارديون سوى مقاومة ضئيلة من الحـامية البيزنطيه ، التى اعتمدت فى البداية على العواصم والثغور والمدن المسورة لصد المغيرين ، إلا أن ذلك كله لم يوقف زحف الغزاة ، فما لبثت أن دانت فيرونا ، فضلا عن ميلان وأكويليا ، فاتخذوا بافيا عاصمة لهم ، وانتشروا فوق سهل نهر البو (٥) ، بكثافة بحيث منحوا هذا

---

(١) انظر : نفس المرجع ص : ٥

(2) Helmolt : "Italy and the Lombards" in B. H, VII, p. 3460

(3) Lot ; op. cit. p. 285

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 30
Ostrogorky : op. cit. p. 72

(5) Helmolt : op. cit. p. 3460

السهل اسمه الجديد ، فغدا يعرف بسهل لمبارديا ، وفى خلال ثلاثة أرباع قرن برهن اللمبارديون على أن سلطان بيزنطة لم يكن إلا سلطانا أجوف (١) .

وعلى الرغم من مقتل ألبوين بعد سنوات قليلة من بداية الغزو ، إذ قتل فى مايو سنة ٥٧٢م ، فإن أدواق اللمبارديين سارعوا باختيار احدهم ويدعى كليفو Clepho ملكا عليهم ، فقام هـــذا باستئناف غزو شمال إيطاليا حتى حدود تسكانيا (٢) ، لكنه ما لبث أن لقى مصرعه هو الآخر على يد أحد غلمانه سنة ٥٧٣ م ، وحينذاك توقف أدواق اللمبارد لنحو عشر سنوات عن اختيار ملك جديد ، وظلت كل قبيلة تمرح فى أرباضها تحت زعامة دوقهـا المختار (٣) . ولم يفد الامبراطورية البيزنطية ما لجأت إليه من محـــاولة إعادة تنظيم الولايات الإيطالية على أساس دوقيات متعددة يجمـــع فيها الدوق بين السلطتين الحربية والمدنية ، وترتبط كلها برباط الخضوع لارخون رافنا ، على أن يجمع هذا بين السلطتين الحربية والمدنية هو الآخـر ، لكن حال دون قيـام قوة إمبراطورية واحدة فى إيطاليا ما حدث من تناثر هذه الدوقيات وتبعثرها ،الأمر الذى بالغ فى إضعافها ، ولم يؤد إلى نتيجة حاسمة فى تغيير الأمور بهذه البلاد (٤) ، ولم يكن نفوذ الإمبراطور موريس (٥٨٢ - ٦٠٢م) ساريا سوى فى نحو ثمانية أقاليم ، أولها شبه جزيرة إستريا Istria وجزر ساحل البندقية ، بما فيها من مدن قوية مثل بادوا ومانتوا ، وثانيها الساحل الليجورى Ligurian Coast بما فيه

(١) ديلز : نفس المرجع ص ٣٩

(2) Helmolt : op. cit. p. 3462

(3) Oman : op. cit. p. 186

(4) Camb . Med. Hist. V, II pp. 191–3

مدينة جنوا ، وكل المنطقة بين جبال الابنين وساحل البحر ، وثالثها الأرض المحيطة بمدينة رافنا وشريط على طول الساحل الأدرياتى يمتد من دلتا نهر البو إلى أبواب ريمينى Rimini (١) ، ورابعها الإقليم الممتد من ريمينى Rimini إلى أنكونا Ancona ، أما الإقليم الخامس فيقع فى أمبريا Ambria برغم تداخل دوقيات اللمبارديين فى بعض أجزائه (٢) ، ثم تأتى أراضى روما لتمثل الإقليم السادس ، وهى أراضى واسعة فى وسط إيطاليا وتمتد من الابنين إلى البحر ، ولا يقطعها عن دوقية نابلى وأمالفى التى تمثل الإقليم السابع سوى مدينة كابوا Capua اللمباردية ، وأخيرا تمثل كالبريا وبريتوم ولوكانيا Lucania الجنوبية وكل المنطقة الساحلية الممتدة من برنديزى Brindisi إلى بوليكاسترو ، الإقليم الثامن والأخير من أملاك الامبراطورية فى إيطاليا (٣) . وواضح أن تنظيم هذا العدد المتناثر من الأقاليم كان يحتاج إلى جهد كبير ، بل إن ضغط اللمبارديين هو الذى تسبب فى بروز قوة البابوية وجعلها سيدة أواسط إيطاليا فى القرن السابع فى ظل المصاعب الجمة التى عاقت الإدارة البيزنطية فى هذه البلاد (٤) .

وكان انتصار اللمبارديين ، فى الفترة بين سنتى ٥٧٣ و ٥٨٣ فوق الرقعة

---

(1) Lot : op. cit. pp. 287–8
Grant : op. cit. pp. 133–4
Oman : op. cit. pp. 190–1

(٢) ديل : : نفسه ص ٣٩ ؛ Oman : op. cit. pp. 190–1

(3) Prinne : op. cit. p. 70

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 30
Oman : op. cit. p. 191

الايطالية ، له دخل فى بعثرة هذه المناطق وجعلها تبدو كجزر مميزة وسط محيط مخالف ، فلقد كان المبارديون يمثلون فى ذلك الدور الشعب الجرمانى الأول، الذى لايبحث عن الملك بوصفه ركنا أساسيا فى البناء القبلى، ولكن كقائد حرب يقودهم فى المعارك ويجمع شملهم(١)،ومع ذلك فقدظل توسع المبارديين ساريا فوق الأرض الايطالية ناحية الغرب والجنوب ، فقد زحف ثلاثة من أدواق المبارد نحو الغرب واستولوا على إقليم بروفانس ليصبح جزءاً من الأملاك المباردية ، فى حين اتجه أدواق آخرون ناحية الجنوب فى قلب شبه الجزيرة الإيطالية (٢) . وإذ لم يكن لدى أولئك الأدواق خطة منسقة للغزو ، فقد أخذ كل يضغط يمينا ويسارا تاركا وراءه كثيرا من المدن الخاصة بالحاميات البيزنطية، حتى يجد مكانا صالحا للاستقرار فينزل فيه بقومه ، وهكذا كانت دوقيات المبارد ومدن الرومان متداخلة فى الأرض مشتركة فى النفوذ والسلطان(٣) ،ففى وسط إيطاليا ترك فاروالد Faroald — أول دوق لسبوليتو Spoleto — وافتا وأنكونا Ancona إلى الشمال ، واستقر فى الوادى الأوسط لنهر التيبر Tiber ، وسط حاميات إمبراطورية تحيط به من كل جانب(٤)على حين مرزوتو Zotto -أول أدواق بنفنتو Benevento - إلى أقصى الجنوب فأقام حكمه فى وادى السامنايت Samnite ، فغدا بمعزل عن بقية الدويلات المباردية (٥) .

---

(1) Oman : op. cit. pp. 186-7
(2) Lot : op. cit. p. 288
(3) Keen : op. cit. p. 5
(4) Helmolt : op. cit. p. 3462
(5) Oman : op. cit. p. 187
Pirenne : op. cit. p. 69

وفيما عدا وادى نهر إلبو الذى كان كله ملكا للمبارديين، وبرتيوم Bruttium وكالبريا التى كانت كلها رومانية ، فليس هناك جزء من الأرض لم يكن مشاركة بين الغزاة والحكومة الامبراطورية القديمة ، وحين نجحت الأمة المباردية فى اختيار ملك لها فى بافيا لم تكن سلطة هذا الملك واسعة بالنسبة للأدواق المبارد (١) ، ولم يدن أدواق سبوليتو وبنفنتو سوى برسم سلطة شكلية لهذا الملك ، كما كانت سلطته مقيدة فى سهل نهر إلبو نفسه وفى تسكانيا ، ويبدو أن ملوك االمبارديين لم يمنحوا الملكية إلا بحق أفضليتهم فى القتال وسمو مكانتهم فى الحرب (٢) . على أن الشعب المباردى لم يقبل على اختيار ملك جديد بعد فترة توقف دامت نحو عشر سـنوات ، إلا فى ظل ظروف خلقها بعض أدواق المبارد ،الذين هاجموا إقليم بروفانس سنة ٥٧٤ – ٥٧٥م،وفجروا الحرب مع الفرنجة،وهى الحرب التى امتدت سنوات طويلة (٣)، فى الوقت الذى أرسـل فيه الإمبراطور البيزنطى طبريوس Tiberius السفارات والهدايا لملوك الفرنجة يطلب مساعدتهم ضد المبارديين فى إيطاليا ، كما بعث الإمبراطور موريس سنة ٥٩٠م إلى الملك الفرنجى تشلدبرت يطلب مساعدة الفرنجة ضد المبارديين فى إيطاليا أيضا (٤) ، وكما فعل الإمبراطور هرقل حين تحالف مع داجوبرت ملك الفرنجة (٦٢٨ - ٦٣٨م) ضـد المبارديين فى إيطاليا كذلك (٥) . وهكذا ساعد

(1) Helmolt : op. cit. p. 3402

(2) Oman : op. cit. pp. 187–8

(3) Lot : op. cit. p. 285

(٤) فهمى : نفس المرجع السابق ص ٧١

(5) Oman : op. cit. p. 190

نشاط اللمبارديين فى غالة على إيجاد تفاهم بين البيزنطيين والفرنجة(١) ، وفى ظل هذه الظروف تم اختيار ملك لمباردى جـديد هو أوثارى Authari إبن كليفو سنة ٥٨٣م ، وكان والده قد قتل من قبل وظل العرش خاليـا إلى أن تم اختيار أوثارى ملكا على اللمبارديين (٢) .

ولقد شغل أوثارى (٥٨٣-٥٩٠م) بالصراع مع ملك الفرنجة Childebert II تشلدبرت الثانى طيلة الأعوام السبعة التى قضاها فى الحكم، فقد هدد الفرنجة بمعاونة نائب رافنا البيزنطى بعبور جبال الألب أكثر من ثلاث مرات، وغزوا لمبارديا فعلا مرتين (٣) ، ولكن أخطر هجمات الفرنجة ماحـــدث سنة ٥٩٠م (٤)، حين انحدر جيشان كبيران أحدهما من برجنديا قاصدا ميلان، والآخر من أوستراسيا قاصدا ترنت Trent وفيرونا ، وشق الاثنان طريقهما إلى أهدافهما وأشاعا الخراب والدمار فى أملاك اللمبارديين، لكنهما فشلا فى أن يلتقيا معـا أو أن يلتقيا بالفرق الرومانية ، التى كان نائب رافنا قد وعد بتقديمهـا. وهكذا فشلا فى الوصول إلى ملك اللمبارديين ، الذى كان قد تحصن فى بافيا ، واضطر الجيشان العـــودة إلى بلادهما (٥). على أن أهم مايميز عهد أوثارى ماحدث من زواجـه من ثيوديلندا Theodelinda ابنة دوق بافيا الكاثوليكية، التى قادت هـذا الملـك إلى المسيحية

---

(1) Pirenne : op. cit. p. 71, p, 190
(2) Oman : op. cit. p. 192
(3) Gesquet : L' Empire byzantin et La monarchie franque p. 185. Pirenne : op. cit. p. 72
(4) Helmolt : op. cit. p. 3462
(5) Oman : op. cit p, 192

الكاثوليكية ، وترتب على ذلك انتشار الكاثوليكية بين الشعب اللمباردى(١)،على الرغم من أن هذه الأميرة لم تمكث معه سوى فترة قصيرة، إذ توفى أوثارى سنة ٥٩٠م ، فاجتمع مجلس الوتان Wittan اللمباردى وفوض هذه الأرملة الحكيمة اختيار ملك جديد للمبارديين ، فأشارت باختيار أجيلولف Agilulf دوق تورين Torin ، الذى كان ابن أخ الملك الراحل ، وتزوجته فأصبح هذا ملكا جديداً فى ميلان سنة ٥٩٠ م (٢) .

حكم أجيلولف مدة تقرب من خمس وعشرين سنة (٥٩١ - ٦١٥ م) ، وعاش حتى رأى ابنه يافعا يشاركه الحكم ، وشغل كسلفه بحرب الفرنجة ، خاصة فى محاولتهم سنة ٥٩٣ ، كما نجح فى اقتطاع بعض الأقاليم الامبراطورية المبعثرة (٣) ، وضم بعض المدن الهامة ، فاستولى على ستريوم Sutrium وأورت Orte وتودر Tuder وبيروجيا Perugia وغيرها من مدن جنوب تسكانيا وأمبريا وذلك سنة ٥٩٨م ولم يوقف هذه الحروب المستمرة بينه وبين البيزنطيين سوى تدخل البابا جريجورى العظيم (٤) ، ونجاحه فى عقد صلح بين الطرفين سنة ٥٩٩م لأول مرة ، إلا أن الحرب مالبثت أن استؤنفت من جديد ، فأستولى أجيلولف فى هذه المرة على بادوا ومانتوا وبعض القلاع القوية فى المناطق المنخفضة على ساحل البندقية سنة ٦٠٢ م وبسقوط بادوا فقدت الإمبراطورية آخر مدينة قوية فى قلب الأملاك اللمباردية(٥). ونظرا لما تعرضت له الامبراطورية

(1) Lot : op. cit p. 289
(2) Oman ; op. cit. p. 193
(3) Helmolt : op. cit. p. 3463
(4) Camb . Med. Hist. V. II, pp. 200-201
(5) Oman : op. cit. p. 194

البيزنطية من خطر الفرس ، عجز الإمبراطور فوقاس ، ثم من بعده هرقل عن إرسال نجدات إلى رافنا أو روما ولهذا تركت يد أجيلولف حرة لإكمال غزوه للأملاك الإمبراطورية فى إيطاليا ، على أن هذا سرعان ما أدرك أنه ينبغى أن يمنح مملكته فترة هدوء وسلام ، وأن يصرف همته لتأكيد سلطانه على الأدواق الخارجين لا سيما ، وأن نحو ثلاثة منهم نافسوه الوصول إلى السلطة ولكنه نجح فى إخضاعهم دون كبير عناء (١) .

بيد أن الأخطار مالبثت أن هددت دولة اللمبارديين من ناحية الحدود الشمالية الشرقية من قبـل الآفار والسلاف ، ونشط السلاف وهددوا إيطاليا ، لكن تهديد الآفار كان أخطر ، إذ لم يحفلوا بما عقدوه من معاهدات مع أجيلولف وتوغلوا فى شمال إيطاليا سنة ٦٠٠ م ، وأحدثوا الخراب والدمار فى الشمال ، ودمروا البندقية وحملوا معهم كثيرا من الأسرى ومن حسن حظ اللمبارديين أن هذه الحرب لم تستمر طويلا إذ شغل الآفار بمشروعاتهم فى شبه جزيرة البلقان(٢) وعلى الرغم من هذه المتاعب فقد كان عهد أجيلولف عهد نماء ورخاء وتوسع فى حياة المملكة اللمباردية ، وعهد ازدهار وحضارة بالنسبة للمبارديين ، فقد شهدت سنواته الأخيرة تحول بقية اللمبارديين إلى المسيحية ، بعد استقرارهم فى وطنهم الجديد ، فبدءوا يبنون الكنائس والقصور ، ويقيمون بعض العلاقات الطيبة مع البابوية ، وتعلموا كيف يعيشون فى شبه سلام مع جيرانهم بعد حروب متصلة على مدى الأعوام الثلاثين الأولى لمقدمهم بإيطاليا (٣).

---

(1) Camb. Med. Hist. V. I. p. 202
(2) Hussey : op. cit. p. 23
Oman : op. cit p. 195
(3) Omon : op. cit. p. 195

خلف أجيلولف ابنه الوحيد أدالوالد Adaloald ، لكنه مالبث أن نحى عن العرش بسبب إصابته بالجنون فاختار اللمبارديون بدله دوق تورين Torin ويدعى أريوالد Arioald (٦٢٤ - ٦٢٦ م) ، الذى حكم نحو اثنتى عشرة سنة دون شىء يثير الانتباه الهم إلا أنه كان على عكس أسلافه مسيحيا أريوسيا (١)، وعند وفاته اعتلى العرش أشهر ملوك اللمبارديين وأبعدهم صيتا وهو الملك روثارى Rothari (٦٣٦ - ٦٥٢م) . فقد أكمل هذا الملك فتح شمال إيطاليا بالاستحواذ على الجهتين اللتين كانتا ، وما تزالان فى أيدى قوات الامبراطورية(٢) ،فأخضع كل منطقة الساحل الليجورى من نيس إلى لونا بما فيها المدينة الهامة جنوا ،وذلك سنة ٦٤١ م ، كما ضم أيضا مدينه أودرزو Oderzo ، آخر أملاك الإمبراطورية ناحية البندقية ، وبذل روثارى جهدا كبيرا فى استخلاص هذه المناطق (٣) . على أن شهرة روثارى مرجعها بالدرجة الأولى لجهوده فى خدمة القانون المباردى، فقد أصدر مجموعة القوانين العرفية اللمباردية سنة ٦٤٣م التى وإن كانت تتناول حياة شعب جرمانى بدائى وتعالج المسائل المتعلقة بالفدية والوراثة والتزامات التبعية وغيرها،مما يخص الحياة القبلية أكثر مما يمس شعبا متحضرا يعيش فى قلب إيطاليا، إلا أنها كانت بحق عملا هاما حفظ تراث هذا الشعب من الضياع ،وسجلا لتطور حياته وتدرجها، برغم استقراره فى وطنه الجديد (٤) .

وبوفاة روثارى سنة ٦٥٢م بدأت المتاعب فى دولة اللمبارديين الذين توقفوا عن اقتطاع الأراضى من الإمبراطورية ، وغرقوا فى الحروب الأهلية

---

(1) Lot : op. cit. p. 289
(2) Helmolt : op. cit. pp. 3463-4
(3) Oman : op. cit. p. 196
(4) Cantor : Med. Hist. p. 164

والنزاع الداخلى، ولم يمكث ابن روثارى فى الحكم أكثر من ستة أشهر (١) ، فى الوقت الذى بدأت فيه الإمبراطوريه البيزنطية تحاول استعادة نفوذها الضائع فى إيطاليا ، على عهد الإمبراطور قنسطانز الثانى (٦٤١-٦٦٨م) ، الذى قاد حملة ضد اللمبارديين سنة ٦٦٣م فاسترد بعض المدن ، وحصل على نصر عسكرى وحاصر بنفنتوم، لكنه اضطر للتراجع عنها إلى نابلى ، وقد ساهمت هذه المحاولات فى زعزعة النفوذ اللمباردى فى إيطاليا ، والتزم اللمبارديين منذ ذلك الوقت سياسة الدفاع (٢)، غير أن انشغال الإمبراطورية فى مشاكلها الداخلية وفى حرب البلغار، فضلا عن توقف نشاط اللمبارديين فى إيطاليا بالنسبة للفترة السابقة أدى إلى توقيع معاهدة سنة ٦٨٠ م التى تم بمقتضاها تقسيم إيطاليا بين البيزنطيين واللمبارديين فأشاعت قليلا من الهدوء والسلام فى هذه البلاد (٣)، وإن لم تقض على العداء المستحكم بين الطرفين ؛ وذلك قبل أن ينتهز اللمبارديون فرصة المحن ليوحدوا صفوفهم بقيادة ملكهم الشهير ليتوبراند (٧١٢—٧٤٣م) ، الذى نجح فى تأكيد سيادته على الأدواق اللمبارد فى الشمال ، وكان كاثوليكيا مخلصا اهتم بالنواحى الدينية وبنى الأديرة وأظهر نزعة تقوى وورع (٤).وقد استأنف ليتوبراند العمل ضد الدولة البيزنطية ،فاستولى على بعض المدن التابعة لها مثل بولونيا ورمينى ، وحرص على إلا يفجر صراعا كبيرا بينه وبين البابوية لما عرف عنه من تحمس الكنيسة، ولما أظهره من تقوى وورع،فدفعه ذلك إلى عقد معاهدتين مع البابوية

---

(1) Lot : op. cit. p. 290

(2) Ostrogorsky : op. cit, p, 109

(3) Pirenne : op, cit p, 72 .

(4) Lot : op. cit. p. 290

سنة ٧٣٠م ، ثم سنة ٧٤٢م (١).

وبعد وفاة ليتوبراند سنة ٧٤٣م، اعتلى العرش اللمباردى ثلاثة ملوك أهمهم استولف Aistulf (٧٤٩-٧٥٠م)، الذى انتهز فرصة انشغال الإمبراطورية البيزنطية - على عهد الإمبراطور قسطنطين الخامس - بالنزاعات الداخلية والحركة اللاأيقونية والتصدى للبلغار والفرس، فاستولى على مدينة رافنا فى إيطاليا (٢) ، ووضع نهاية للنفوذ البيزنطى فى شمال ووسط إيطاليا سنة ٧٥١م (٣). وهكذا بلغ المد اللمباردى مداه على عهد هذا الملك وخاصة بعد أن فشلت حملات الفرنجة فى إيطاليا فى القرن السابع ضد اللمبارديين ، وانتهت الحروب المستمرة معهم، وهى التى كان آخرها سنة ٦٦٢-٦٦٣م (٤) ، غير أن البابوية كانت قد قويت وأخذت مكانتها منذ عهد جريجورى العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) لتصبح القاسم الأعظم للقوى السياسية فى إيطاليا ، بعد أن منحها الشعب تأييده على أثر انهيار السلطة الإمبراطورية وتصدعها فى البلاد (٥) . ثم كان سقوط رافنا فى أيدى اللمبارديين عاملا هاما فى تحررها من سلطة بيزنطة وانتهاجها سياسة الاستقلال ، إذ لم يعد ثمة مايدعوها لمداراة الامبراطورية البيزنطية والسير فى ركابها ، بعد ضياع نفوذها وهيبتها فى كل شمال إيطاليا ووسطها ، فضلا عن الخلاف الناشب بينهما حول عبادة الصور والأيقونات (٦) .

---

(1) Oman : op. cit. p. 287
(2) Oman : op. cit. p. 327
(3) Ostrogorsky : op. cit. p. 151
(4) Pirenne : op. cit. p. 72. p. 191
(5) Hearder & Waley : op. cit. p. 27.31
Lot : op. cit.pp. 297–306
(6) Ostrogorsky : op. cit. p. 151, Pirenne : op. cit. p. 70

غـــير أن ازدياد نفوذ البابوية لم يرض الملك الطموح أستولف ، كما أن امتداد أملاكها فى إيطاليا هـدد المملكية اللمباردية ، ولهـذا نشط أستولف لضم بعض أملاك البابوية ، ولم يحفل بتهديد البابا بتوقيع عقـــوبة الحرمان عليه أو الاستعانة بالبيزنطيين ، فاتجه البابا نحو الفرنجة وطلب مساعدتهم، لاسيما بعد أن نصب بيبن القصير نفسه ملكا مكان الملك الميروفنجى سنة ٧٥١م(١)فلبى بيبن مطالب البابا ، وقاد جيوشه مرتين لحرب اللمبارديين فى إيطـاليا ، الأولى سنة ٧٥٤م والثانية سنة ٧٥٦م ، فأنزل الهزيمة فى المرتين بجيوش اللمبارديين ، وأجـــبر استولف على احترام البابوية ،وإعادة ماأخـــذه منها من أملاك ،ثم كانت وفاة أستولف فى نفس العام سنة ٧٥٦م إيذانا بتفكك المملكة اللمباردية فى إيطاليا ، وعاملا هاما فى ازدياد نفوذ البابوية (٢) ، ومالبث شارلمـــان أن حارب اللمبارديين وانتصر على ملكهم انتصارا حاسما ووضع نهـاية للبيت اللمباردى فى إيطاليا ، بعد أن حكم ملوكه مائتين من السنين،واتخذ شارلمان لنفسه تاج المملكة اللمباردية وأمر أن يذهب آخر ملوك اللمبارديين إلى أحد الأديرة ليقضى حياته فى صومعة من صوامع التنسك (٣) :

وهكذا ظلت إيطاليا طوال تلك الفترة نهبا للقوى المختلفة ومطمعا للطامعين حيث أسس اللمبارديون مملكتهم،واستعاد البيزنطيون سطوتهم فى بعض جهاتها ، وظهرت قوة البابوية وأخذت مكانتها الهامة فى البلاد، ولمـا استولى المسلمون على صقلية فى القرن السابع أصبحوا يمثلون قوة أخرى فى جنوب إيطاليا (٤) ، ولمـا

---

(١) فشر : نفس المرجع السابق ص ٨٢

(2) Oman : op. cit. p. 331

(٣) فشر : نفسه ص ٨٥

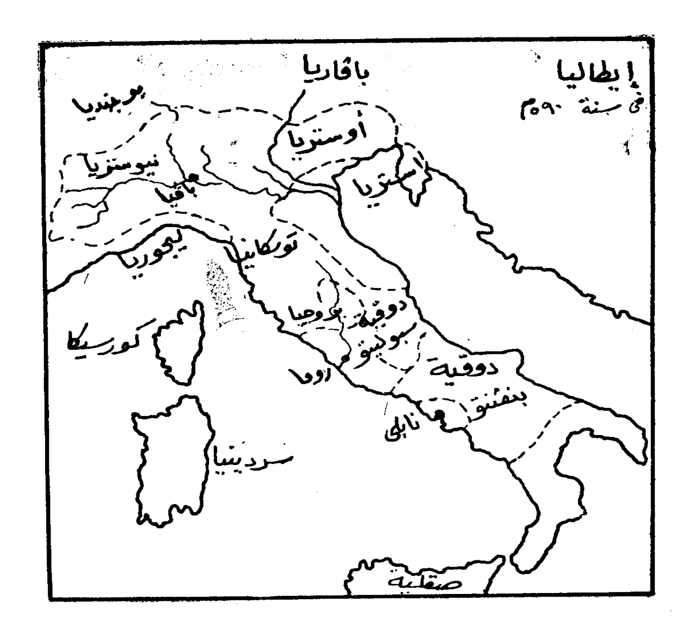
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 185
Pirenne ; op. cit. p. 158

سادت العلاقات بين البابوية وبين بيزنطة فى القرن الثامن، تجمد وضع البيزنطيين فى إيطاليا ، وانطلقت البابوية إلى جانب اللمبارديين ، واضطرتها الظروف إلى البحث عن بديل تعتمد عليه بدل بيزنطة،فاتجهت إلى الفرنجة بفـــالة (١)،فأقام الكارولنجيون دولة البابوية فى إيطاليا عزيزة قوية ، وأزالوا من أمامها خطر اللمبارديين وأدى ذلك إلى استحالة تأسيس دولة موحدة فى إيطاليا حتى أواخر القرن التاسع عشر (١٨٧٠م) (٢) ، فضلا عما أحدثه ذلك من اتساع الهوة بين روما وبيزنطة واتساع المجال أمام البابوية لتصبح دولة سياسية مستقلة ـ ، ولهذا أفتقرت إيطاليا طويلا للوحدة السياسية وظلت نهبا للمطامع ومسرحا للصراع فترة طويلة من الزمن .

---

(١) فشر : نفس المرجع ص ٧٥

(2) Hearder & Waley : op. cit, p. 28


إيطاليا
فى سنة ٥٩٠م
باڤاريا
بورجنديا
أوستريا
نيوستريا
باڤيا
ستريا
توسكانيا
ليجوريا
دوقية
سبوليتو
دوقية
روما
كورسيكا
بنفنتو
نابلى
سردينيا
صقلية

الباب الثالث

ممالك النورمان بأوربا

الفصل الحادي عشر

غزوات الفيكنج

من هم الفيكنج ـ اسكنديناوه وحوض البحر البلطى ـ صفات الفيكنج وميزاتهم ـ أسباب غزوات الفيكنج فى أوربا ـ وجهة كل فريق منهم ـ الأدوار التى مرت بها غزوات الفيكنج ـ غزو الفيكنج لانجلترا: ألفريد العظيم والدانيين . انجلترا والدانيين حتى الفتح النورمانى ـ غزو الفيكنج لايرلندا ـ أيرلندا والنرويجيين ـ الفيكنج السويديين ـ غزوات الفيكنج فى روسيا شرق أوربا ـ دوقيات الفيكنج السويديين فى روسيا ـ دوقية كييف ـ الفيكنج والامبراطورية الكارولنجية : على عهد شارلمان ـ لويس التقى ـ الممالك الفرنجية بعد عهد لويس التقى ـ هجمات الفيكنج على فرنسا ـ الفيكنج وشارل البسيط ـ ظهور رولو ـ دوقية نورمانديا ـ تأثر النورمان بمظاهر الحضارة الأوربية ـ حضارة الفيكنج ـ المجتمع الفيكنجى ـ نظمهم السياسية ـ مجتمع أيسلندا الفيكنجى ـ تراث الفيكنج الأدبى ـ الديانة المسيحية .

الفيكنج Vikings أو الشماليون أو النورثمن Northmen هم مجموعة الشعوب التى سكنت شبه جزيرة اسكنديناوه وشبه جزيرة الدانمرك وحوض بحر البلطى، من السويديين والنرويجيين والدانيين (الدانمركيين) ، ويرجع أصلهم للعنصر

الجرمانى أو التيوتونى المعروف (١) ، وإن أدت عزلتهم فى موطنهم إلى كثير من الاختلافات بينهم وبين عناصر الجرمان الأول الذين غزو أوروبا من قبل . ولقد ظل الفيكنج على وثنيتهم وتمسكهم بعبادة قوى الطبيعة ، وآلهة ترمز لها مثل إله الرعد وإله الخصب وآلهة الحروب وغيرها ، كما أدت عزلتهم وتطرف وضعهم الجغرافى إلى عدم تأثرهم بالمؤثرات الاتينية ، التى لعبت دورا هاما فى تطوير الجماعات الجرمانية الأولى (٢) ، ولهذا ظل الفيكنج متبربرين بدائيين يحافظون على بنائهم الاجتماعى ، ويتمسكون بنظمهم فى الحكم مثلما يحافظون على دياناتهم الوثنية (٣) .

وكانت اسكنديناوة وحوض البحــــر البلطى قد اكتنفها الهدوء والعزلة ، أكثر من قرنين من الزمان فيما بين القرنين السادس والثامن الميلاديين، على الرغم من أن اسكنديناوه كانت قد دفعت بموجات متلاحقة من القبائل الجرمانية إلى المسرح الأوربى قبلاته صخبا وحربا وضجيجا، غير أن الأمر ما لبث أن تبدل فى السنوات الأخيرة من القرن الثامن حيث خرجت من هذه البلاد آخر موجة من موجات الجرمان وآخر هجرة كبيرة من هجراتهم (٤) ، ويبدو أن السكون الذى ران على تلك البقعة الناشطة طوال القرنين المذكورين ، جاء بعد حروب طويلة بين الفيكنج والسكسون ، كان لها أثرها فى إحداث حالة هدوء وجمود على شبه الجــــزيرة طوال تلك الفــــترة ، ثم ما لبث أن تبدل ذلك السكون قرب نهاية

(1) Cantor : Med. Hist. p. 121. p. 236

(٢) نفس نفس المرجع ص ١١٣

(3) Schjoth : "The lands of the Northmen" in B. H. VII. p. 3532

(4) Oman : op. Cit. pp. 414-15

القرن الثامن ليعود الصخب من جـــديد لاسيما فى الفترة التى شهدت حكم العاهل الفرنجى الكبير شارلمان (١) .

وعلى الرغم من أن الفيكنج احتفظوا بكثير من صفات الجرمان ونظمهم ، فإن تأخرهم فى الخروج إلى داخل القارة واستقرارهم لفترة أطول ببلادهم ، كان له أثر فى تميزهم عن الجماعات الجرمانية الأخرى بصفات ومزايا أخرى ، لعبت الطبيعة دورا هاما فى تكوينها وتشكيلها ، فقد قست الطبيعـــة على بلادهم كثيرا ، إذ اكتنفتها غابات ومستنقعات وجبال وأحراش ، فضلا عما بين سواحلها من خلجان عميقـة وفيوردات عميقة (٢) ، فلم يدع ذلك كله للفيكنج مجـــالا رحبا يعيشون فيه ، بل أجبرهم على العيش على رءوس تلك الخلجان والفيوردات ، وعلى شريط ساحلى بالغ الضيق كثير التعاريج (٣) ، كل ذلك جعلهم شعبا أكثر ميلا للمغامرة والحروب ، بارعا فى أمور الملاحة وبناء السفن وصيد الأسماك ، وأضفى على حياتهم شيئا من القسوة والعربدة ، وجعلهم أكـثر رغبة فى توجيه نشاطهم نحو القرصنة البحرية بدلا من الإغارات البرية (٤) ، فاشتهرت سفن الفيكنج بأنهـا كانت سفنا هائلة قليلة العمق مبنية بنـاء قويا ، كما كانت قواربهم الصغيرة مكشوفة وطويلة ومدببة من نهايتيها ، ودعمت كل حافتيها بصف من الدروع ، وكانت تسير بالمجـــداف أو الشراع (٥) ، وطافوا بهـذه السفن سواحل أوربا

(1) Ibid : p. 415
(2) Haskins : The Normans in European Hist. p. 29
(3) Trevelyan : op. cit. p. 71
(4) Schjeth : op. cit. p. 3532
Grant : op cit. p. 154
(5) Haskins ; op. cit, p. I

وجابوا بها المحيط المتجمد الشمالى وشمال المحيط الأطلسى ، ووصلوا إلى البحر المتوسط (١) .

ولقد حاول المؤرخ المحدث هاسكنز Haskins تفسير غزو الفيكنج لأوربا فى ظل مفاهيم العصر ، وكذلك المفاهيم الحديثة ، فذهب إلى القول بأن ثمة تغيرا هاما شهدته شبه جزيرة اسكنديناوة والدانمرك وحوض بحر البلطى ، حين ظهرت ملكيات مستقلة وحكومات مركزية اتجهت إلى محاولة جمع الفيكنج على فكرة الولاء لنظم الحكم الجديدة ، وربطهم بقوانين وقوالب مستحدثة (٢) ، حين بزغت الملكية فى النرويج فى القرن التاسع على أثر جهود هارولد صاحب الشعر الأشقر وانتصاراته على الأمراء المحليين ، وحين ظهرت أيضا الملكيات فى كل من السويد والدانمرك فى القرن التاسع (٣) ، غير أن طبيعة هذه الشعوب وانطلاقها وحبها للمغامرة ، لم يترك فرصة للاستجابة لهذه الأمور ، فاندفع أغلبهم فى إغارات متتالية على سواحل أوربا لاشباع نهمهم للحرب والقرصنة والمغامرة (٤) ، هذا فضلا عما حدث فى بداية القرن التاسع من ازدياد سكانى فى تلك البلاد ، شدد الحاجة إلى ديار جديدة وأراضى جديدة تستوعب تلك الأعداد الهائلة من الفيكنج وتمدهم بالغذاء والكساء وتشبع نهم الجيل الجديد للحصول على طرق جديدة وحياة جديدة ، هذا كله بالإضافة إلى الدوافع الاستعمارية الأزلية ، (٥)

---

(1) Canter : op. cit. p. 236
(2) Haskins ; op. cit. p. 29
(3) Pirenne : op. cit. p. 239
(4) Schjoth : op. cit p. 3532
(5) Haskins ; op, cit, p. 29

بالإضافة إلى ما حدث من تحطم قوة الفريزيين على يد الفرنجة أيام شارلمان ، وكان الفريزيون يمثلون قوة بحرية وتجارية عظيمة فى شمال أوروبا ، كما كانوا بمثابة حاجز بين الفيكنج والقارة الأوربية ، فلما تحطمت هذه القوة أصبح الطريق ممهدا أمام الفيكنج لغــــزو أوروبا (١) ، وكان قضاء الفرنجة على قـوة الفريزيين والسكسون الذين مارس الفيكنج معهم بعض التجارة أثره فى تعريض تجارة الفيكنج لأضرار جسيمة ، فأدى هذا بالفيكنج إلى محاولة الحصول على أسواق جديدة وعملاء جدد لاستمرار تجارتهم (٢) .

غير أنه يبدو أن مجرد الحاجة إلى الغذاء والكساء وشق طرق جديدة فى الحياة والتعلق بحب المغامرة والقرصنة والنزوع إلى التجــارة ، كل ذلك لايبرر الهجرة الكبرى للفيكنج فى القرن التاسع ، وإنما الأرجح ما ذهب إليه هاسكنج من أن التغيرات السياسية التى طرأت على المجتمع الفايكنجى كان لها دخل كبير فى تلك الهجرة التوسعية الكبرى (٣) ، يضاف إلى ذلك أن الهدوء الذى ساد شبه جزيرة اسكنديناوة ، أدى إلى توافر عدد الرجــال وتعاظم القوة المقاتلة فيها ، لاسيما فى النرويج مع ضيق فى الرزق وشتاء طويل مظلم وظروف مواتية للاغارة على الممالك المتناحرة والملوك الضعاف بغرب أوروبا (٤) ، هذا فضلا عن أن حملات شارلمان ضد السكسون قد فتحت عيون الدانيين على خطربات يتهددهم من هذه الجهة لاسيما وأنهم قد بذلوا قليلا من المساعدة للسكسون فى بعض مراحل الحرب ، وكان عليهم أن يعملوا على حماية أنفسهم من الفرنجة بعد أن تأكد خضوع السكسون

(1) Oman : op. cit. p. 45
(2) Keen : op. cit. p. 25
(3) Haskins : op. cit. p. 29
(4) Cantor : op. cit. p. 237

تلك الدولة ، بل إن القتال بدأ بين الجانبين براً وبحراً أثناء هجمات الفرنجة على السكسون ، حتى أن الراهب القديس جال أبدى أسفه على أن شارلمان لم يقهر الدانيين كما قهر السكسون وترك خطر أولئك الدانيين يستفحل فيما بعد[١] ، وإذا كانت الرغبة الملحة فى ممارسة التجارة وفتح أسواق جديدة ، قد حلت الفيكنج على ارتياد شواطىء أوروبا والجزر المتناثرة ، فإن ثمة أموراً أعطت لهذه الحركة أبعاداً جديدة ، وأضفت عليها جانباً عدوانياً ، ولا سيما وقد تأكد لهم سلامة ارتياد البحر وصلاحية السفن المستخدمة للقرصنة ونقل الفيكنج إلى الميادين الجديدة[٢] ، والاسترشاد بالنجوم فى الرحلات الطويلة إلى غير ذلك من المغريات ، يضاف إلى ذلك ما أظهره الفيكنج من تعصب دينى شديد تجلى فى هجومهم على الأديرة واستباحتها ونهب ما حوته الكنائس من تحف ونفائس[٣] .

وعلى الرغم من أنه ليس هناك ثمة اختلافات بين النرويجيين والسويديين والدانيين (الدانمركيين) بحكم أنهم جميعاً من الفيكنج ، وبحكم اشتراكهم جميعاً فى الغزو والهجرة ، فإن نشاط النرويجيين الذين قطنوا الجانب الغربى من اسكنديناوه اتجه إلى غرب أوروبا والجزر الغربية ، ووصلوا إلى انجلترا وأيرلندا ثم إلى أمريكا الشمالية[٤] ، فى حين اتجه السويديون القاطنون بشرق اسكنديناوه إلى شرق أوروبا وبلاد الصقالبة وسهول أوروبا الشرقية والبحر الأسود[٥] ،

---

(1) Haskins : op. cit. p. 31

(2) Schjoth : op. cit. p. 3532

(٣) نشر : المصدر نفسه ص ١١٦ ، Trevelyan : op. cit. p. 73

(4) Keen : op. cit. p. 25, Trevelyan : op. cit. p. 77

(5) Keen : op. cit. p. 25

واتجه الدانيون نحو الجنوب والغرب إلى ألمانيا وفرنسا وانجلترا وأيرلندا (١).

ولقد تميزت إغارات الفيكنج فى دورها الأول ، الذى شمل معظم النصف الأول من القرن التاسع، بأنها كانت إغارات تهدف إلى السلب والنهب والقرصنة، وتتم فى فصل الصيف وتنتهى غالبا بالعودة بالمنهوبات ، قبل حلول فصل الشتاء ، كما كانت تضم جماعات صغيرة نسبيا تعمل غالبا لحساب أحد الأمراء(٢) ، إلا أن الأمر انقلب فى النصف الثانى من ذلك القرن ، فتطورت إلى حركة توسعية استيطانية كانت تتم بجماعات كبيرة أو جيوش تعمل لحساب أمير أو مجموعة من الأمراء ، حيث كان الفيكنج يحملون معهم نساءهم وأطفالهم يبتغون الاستقرار بالبلاد التى يغزونها أو بقرب مصبات أنهارها أو فى الجزر القريبة من شواطىء تلك البلاد (٣) ، وقد مثل الفلاح النرويجى عصب هذه الإغارات حيث طمح فى استغلال الأراضى المفتوحة فى الزراعة والرعى على نحو ما عرفه فى بلاده ، وهكذا كانت هذه الإغارات تنتهى فى أغلب الأحيان إلى الاستقرار الدائم(٤)، فقد استعمروا أيرلندا لفترة عند منتصف القرن التاسع ، وبقوا لأول مرة فى شيبى Sheppy عند مصب نهر التيمز فى انجلترا بعد انتهاء الشتاء ، ولم يعد ثمة

---

(1) Canter : op. cit. pp. 236-7

(2) Schjoth : "Grant days of the Northmen" B. H. VII p. 3539

Trevelyan : op cit. pp. 75-76

(3) Grant : op. cit. p. 154

(4) Haskins : op. cit. p. 33

من يجرؤ على مدافعتهم كما لم يعد ثمة مايفعله الناس إلا أن يضيفوا إلى صلاتهم — على حد تعبير مؤرخ قديم — دعاءا جديدا « إحمنا أيها الإله من غضب رجال الشمال » كما يذكر المؤرخ هاسكنز(١) ، وحوالى ذلك الوقت أيضـــا بدءوا فى الاستقرار فى غرب فرنسا وفى الجزء الذى عرف بعد ذلك باسم نورماندیا ، بعد أن ظلوا يغيرون لفترة طويلة على المنطقة الواقعة بين نهرى الراين والوار (٢) ، ويتميز آخر أدوار الغزو الشمالى بمقاومة أهل البلاد لهم ونجاحهم فى طرد الفيكنج من أجزاء كثيرة ، ويبدو أن قسوة الفيكنج المتزايدة والمذابح البشرية الرهيبة ، فضلا عن الإغارة على الكنائس والأديرة واستباحتها ، ونهب ثرواتها قد أوجد شعوراً طاغيا ضد هؤلاء الغزاة تبلور فى مقاومة عنيفة قادها بعض أمراء القارة والجزر البريطانية ، فنجحوا منذ أواخر القرن التاسع فى وضع حد لجانب كبير من عبث هذه الشعوب المتبربرة (٣) .

بدأ الفيكنج إغاراتهم على انجلترا منذ أواخر القرن الثامن الميلادى فى الفترة الواقعة بين سنتى ٧٨٧ وسنة ٧٩٤ ، فكانت إنجلترا من أولى البلاد التى تعرضت لإغاراتهم ولاسيما على ساحلها الشمالى الشرقى والشرقى (٤) ، ثم توقفت غاراتهم فترة لتستؤنف من جديد قبيل وفاة الملك اجـــبرت سنـة ٨٣٩م ملك وسكس Wessex الشهير ، إذ تعرضت سواحل إنجلترا الجنوبية والغربية لموجة عاتية من

---

(1) Haskins : op. cit. p. 34

(2) Keen : op. cit. p. 25

(٣) نفس : نفسه ص ١٢١

(4) Oman : op. cit. p. 415

موجاتهم (١) ، أخذت تمتد جهة الشرق ، وتلقى بثقلها ضد مملكة وسكس السكسونية وأجزاء متفرقة من الجزيرة ، وما لبث الفيكنج أن مالوا نحو الاستقرار (٢) ، فمخرت سفنهم عباب نهر التيمز قرب منتصف القرن التاسع ، واستولوا على لندن وكانتربوري ، ورغم ماتعرضوا له من هزيمة على يد السكسون ، فقد تحولوا من الإغارات الصيفية إلى الاستقرار ، فقضوا الشتاء لأول مرة في شيبي عند مصب نهر التيمز سنة ٨٥٥م (٣) ثم استبدت بهم فكرة الفتح والاستيلاء فاجتاحوا في الفترة بين سنتى ٨٦٦ - ٨٧١م معظم الممالك الانجليزية ولاسيا نورثمبريا ومرسيا وإيست انجليا ، ولم يكن بوسع أحد التصدى لهم سوى الملك ألفريد Alfred العظيم ملك وسكس (٨٧١ - ٩٠٠م) ، الذى انعقدت عليه آمال إنجلترا لحفظ استقلالها بعد ضياع لندن وكانتربوري (٤) ، فأبلى ألفريد العظيم بلاء حسنا فى حربهم واستطاع أن يلحق بهم عدة هزائم ويجبرهم على عقد صلح سنة ٨٧٥ ، تعهدوا بموجبه إعلان ولائهم له وإتباعهم لدولته ، نظير تنازله لهم عن جزء من نورثمبريا ومرسيا وإيست انجليا باستثناء لندن ، ومع أنهم أظهروا الإذعان ولم يقيموا لهم ملكا بل ولوا أمورهم بعض النبلاء العسكريين ، إلا أنهم أظهروا روحا عدائية شديدة تجاه السكان ، فطردوا الفلاحين من أرضهم ، وقاموا بفلاحتها هم ، وبالغوا فى إظهار القسوة والعنف (٥) .

---

(1) Schjoth : op. cit. p. 3554
(2) Trevelyan : op. cit. p. 77
(3) Haskins : op. cit. p. 33
(4) Cantor : op. cit. p. 325
Trevelyan : op. cit. p. 71
(٥) فهمر : نفسه ص ١١٧ ، ص ١٢٠ .
Rayner : op. cit. p. 16

فترتب على ذلك اندلاع الصراع بينهم وبين ألفريد من جديد ، وبعد قليل من المصاعب التى صادفت ألفريد واضطر بسببها إلى التقهقر بصعوبة إلى الغابات والأراضى الجرداء للاحتماء بها (١) ، نجح فى إنزال هزيمة ساحقة بهم فى أدنجتون (Ethandun) سنة ٨٧٨م وأرغمهم على طلب صلح جديد فى نفس العام ، وفى هذه المرة قبل قائدهم وأتباعه اعتناق المسيحية وتم تعميدهم (٢) ، إلا أن أمد هذا الصلح كان قصيرا ، إذ جدد الدانيون هجماتهم سنة ٨٨٤م ، وحينذاك تصدى لهم ألفريد وأرغمهم على توقيع صلح ثالث سنة ٨٨٥ ، تحددت فيه بصفة نهائية الأراضى التى ينزلون بها ، وكلها شمالى خط يمتد من مصب نهر التيمز حتى شستر ، وهى المنطقة التى سميت بأرض الدانيين Daneland ، على حين أضحى الشطر الأكبر من مرسيا ولندن فى حوزة ألفريد (٣).

وقبل وفاة ألفريد العظيم بسنوات قليلة تصدى لموجة جديدة من موجات الفيكنج حين هاجمت أساطيلهم ساحل انجلترا الجنوبى الشرقى سنة ٨٩٢م ، والجزء الشمالى من كنت ، ونجح ألفريد فى إجبارهم على الانسحاب فى الوقت الذى عاث فيه الدانيون القاطنون فى إنجلترا فسادا فى الجهات القريبة ، ولولا يقظة ألفريد وحنكته لغدوا خطرا كبيرا على البلاد (٤) ، وإذا كان لألفريد من فضل ، فلأنه

(1) Baskins : op. cit. p. 34
(2) Schjoth : op. cit. p. 3554
Grant : op. cit. pp. 172-3
Rayner ; op. cit. p. 16
(3) Trevelyan . op. cit. p. 79-80
Cantor ; Med. Hist. p. 270
(4) Schjoth : op. cit. p. 3554

نجح لأول مرة فى جمع الممالك الإنجليزية على هدف واحد من خلال مقاومة عنيفة الدانيين وإبعاد ما تبقى من انجلترا بعيدا عن متناول قبضتهم ، فنجح فيما فشلت فيه الكنيسة من توحيد الإنجليز وجمعهم على هدف واحد ، فضلا عن اصلاحاته التعليمية والكنسية التى أضافت كثيرا إلى الناحية القومية (١) ولذا عد عهده بالغ الاهمية بالنسبة لتاريخ الأمة الانجليزية قاطبة (٢)،وعند وفاته سنة ٩٠٠م تجرأ خلفاؤه وأخذوا يستردون البلاد من الدانيين جزءا جزءا ، وكلما تقدموا صوب الشمال وحرروا جزءا ، أقاموا فيه معقلا تحول بمرور الوقت إلى مدينة صغيرة حتى انتهى الأمر بتوحيد انجلترا كلها تحت حكم ملك واحد هو الملك إدجار (٩٥٩-٩٧٥م) الذى يمكن وصفه بأنه كان بحق ملكا لإنجلترا (٣) .

وفى النصف الثانى من القرن العاشر بدأ النظام الاقطاعى يقوى فى كيان المجتمع الإنجليزى فى الوقت الذى تولى فيه ملوك ضعاف ، لم يكن بوسعهم السيطرة على النبلاء من جهة والتصدى للدانيين من جهة أخرى (٤) ، فلما وصلت موجة جديدة سنة ٩٨٠م أبدى ملك وسكس استعداده لدفع الأموال للدانيين ليرحلوا عن البلاد ، ومن ثم تقرر فرض ضريبة ذهب الدانيين Danegeld يدفعها الأهالى وإن لم تؤد إلى طرد الدانيين نهائيا ، إذ ما لبثت انجلترا أن تعرضت لموجة عاتية من موجات الفيكنج ، قدمت فى هذه المرة فى شكل غزو اسكندناوى يمثل الأمة الاسكندناوية المترابطة وأسفرت هذه الموجة عن هروب الملك الانجليزى

(I) Sauthern : The making of the Middle ages p. 167, p.185

(٢) نفس المرجع : نفسه ص ١٢١ ، Cantor : Med. Hist. p. 207

(3) Trevelyan : op cit. p. 81

(4) Canter : op. cit. p. 207

Ethlerd إثلرد إلى نورمانديا ، وقيام كانوت ابن ملك الدانيين على عرش انجلترا سنة ١٠١٦م (١) ، وغدا هذا الملك يحكم انجلترا والنرويج والدانمرك ، وأدى ذلك إلى فصل إنجلترا عن القارة الأوربية وربطها بعجلة إمبراطورية اسكنديناوية ، وظل كانوت فى حكم انجلترا إلى سنة ١٠٣٥م ، واتخذ لندن عاصمة تجارية لإمبراطوريته ، كما ظل يحصل ضريبة الدانجيلد Danegeld (٢) ، لينفق منها على أساطيله ، ولم يعد عرش انجلترا إلى البيت المالك القديم إلا فى سنة ١٠٤٢م حين نجح إدوارد الثالث « المعترف » (١٠٤٢-١٠٦٦م) ، وهو ينتمى إلى بيت ألفريد العظيم ، فى استرداد عرشه بعد فترة قضاها فى المنفى لدى قريبه دوق نورمانديا (٣) ، وبعد وفاته سنة ١٠٦٦ تذرع وليم دوق نورمانديا ببعض الحجج للاستيلاء على إنجلترا منها قرابته لملكها الراحل ، وادعاؤه الحصول على وعد من إدوارد المعترف بأن يرثه بعد وفاته ، وما لبث وليم أن نزل على الشاطىء الجنوبى الشرقى لإنجلترا ، وأنزل الهزيمة بهارولد ملك إنجلترا الجديد فى موقعة هاستنجز سنة ١٠٦٦م وفتح انجلترا وضمها إلى نورمانديا ، ولقب منذ ذلك الوقت بوليم الفاتح (٤) .

وكانت أيرلندا أيضا هدفا مبكرا لإغارات الفيكنج النرويجيين ، فتعرضت لهجماتهم المتتابعة منذ أواخر القرن الثامن ، وبالذات منذ سنة ٧٩٥م ، بعد أن ظلوا يهاجمون الجزر القريبة منها فيما بين سنتى ٧٩٥-٨٠٦م ، وتحولوا إلى مهاجمة

(1) Trevelyan : op. cit. pp. 98-9

(٢) نفس المرجع ص ١٢٣ ، Schjoth : op. cit. p. 3556

(3) Haskins : op. cit p. 74

(4) Trevelyan : op. cit. pp. 116-7

أيرلندا نفسها وإلى محاولة الاستقرار فيها فى السنوات الأولى من القرن التاسع ، ففى سنة ٨٠٧م نزلوا لأول مرة فى أيرلندا فيما يشبه « الفيضان العظيم من الأجانب الى إرن Erin ، حتى أنه لم يبق ثمة نقطة واحدة خالية من الأسطول أو السفن(١) » ، ثم راحوا يشقون طريقهم إلى أواسط الجزيرة وإلى جنوبها الغربى ، وفى غضون ربع قرن من نزولهم أيرلندا كانوا قد عاثوا فى معظم جهاتها فسادا ودمروا حضارتها، واتخذوا لهم قواعد على سواحلها وخلجانها الكثيرة ، وأغاروا من هذه القواعد على بقية أنحائها وعلى القارة الأوربية والجزيرة البريطانية(٢) ، ولم تنج الأديرة من عبثهم حيث استباحوها ونهبوا ما فيها ، وقضوا على الحياة الديرية فيها ، فترتب على ذلك فرار رهبان أيرلندا إلى الجهات الأخرى ولاسيما إلى ألمانيا وفرنسا والفلاندرز (٣) .

وإذا كان النرويجيون هم الذين نهضوا بهذا الدور فى أيرلندا فى النصف الأول من القرن التاسع ، فإن أول غزوات الدانيين لهذه الجزيرة ، حدثت قرب منتصف ذلك القرن (سنة ٨٤٩) ، ولعل أغرب ما فى الأمر أن صراعا رهيبا نشب بين هؤلاء الدانيين وبين النرويجيين من أجل السيطرة على الجزيرة فى الوقت الذى هب فيه الأيرلنديون يذودون عن بلادهم ، فحدثت فوضى شاملة فى البلاد لم تنته إلا بوصول أولاف Olaf ابن ملك النرويج سنة ٨٥٢م ليضع حدا لهذا الصراع(٤) ، ويقيم علاقة جديدة بين الفريقين الشماليين ، وظلت كلمة الشماليين هى العليا فى

(1) Oman : op. cit. p. 4.5
(2) Camb. Med. Hist. V. III, p. 317
(3) Cantor : op. cit. pp. 203-4
(4) Camb . Med. Hist. V. III, p. 317

الجزيرة حتى بعد رحيل أولاف عنها إلى النرويج سنة ٨٧٣م ، وساد نوع من الوفاق بين الطرفين ولاسيما وقد بدأ الأيرلنديون يعملون على طرد الغزاة جميعا من بلادهم ، ويهاجمون المراكز التى اتخذها الشماليون فى أيرلندا لاسيما دبلن وذلك طوال القرن العاشر (١) ، ثم نجح الأيرلنديون بعد محاولات متتابعة فى إنزال ضربات كبرى بالشماليين منذ أوائل القرن الحادى عشر ، وفى سنة ١٠١٤م توجوا أعمالهم بإلحاق هزيمة ساحقة بالشماليين وأجبروهم على اتباع سياسة الدفاع ، ثم أخذ الشماليون منذ ذلك الوقت يذوبون تدريجيا فى الشعب الأيرلندى لينتشر بهم ذلك المحيط رويدا رويدا (٢) .

أما بالنسبة للفيكنج السويديين ، فقد أوغلوا شرقا إلى أعماق روسيا فى هجرة أقرب إلى السلم منها إلى الحـــرب ، وتنزع إلى التجارة أكثر مما تهدف إلى النهب والتدمير والغزو ، واحتك هؤلاء الفيكنج بالصقالبة والسلاف الذين أطلقوا عليهم اسم روس Rus أى الأحمر (٣) ويبدو أن انهيار قوة الآفار فى القرن التاسع قد فتح الطريق أمام هؤلاء الفيكنج السويديين للوصول إلى حوض نهر الدنيبر وسواحل البحر الأسود وتأسيس دولة روسية فى شرق أوربا (٤) ، ولهذا أضحت روسيا هى أرض السويديين ، ومن هذا الحدث يبدأ تاريخ روسيا المدون ، أى أن السويديين هم الذين وضعوا أسس الدولة الروسيه (٥) ، ونظرا لأن السويديين

---

(1) Schjoth : op. cit. p. 3540
(2) Schjoth : op. cit. p. 3540
(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 327
(4) Ostrogorsky : op. cit. p. 162
(5) Haskins : op. cit. p. 30

عافوا الزراعة والرعى ونزعوا إلى التجارة ، فقد تألفت روسيا فى القرن التاسع من مجموعة مدن تجارية كبرى نهضت بعضها على نهر الدنيبر وروافده ونهر الفلجا الأعلى وبعض البحيرات الكبيرة ،وأوغل السويديون شرقاحتى بحر قزوين واتخذوا طرقا متعددة أهمهـــا طريق نهر الفستولا إلى الدنيبر إلى البحر الاسود ومنه إلى البسفور (١)، ونظرا لان السويديين كانوا أقل الشماليين حبا للنهب والتخريب فقد برعوا فى النواحى الإدارية والتنظيمية والسياسية ، فأصبحوا سادة روسيا ، واتخذوا لهم مستعمرات فى جنباتها ولاسيا مدنها التجارية الكبرى مثل نوفجرود، كما استولوا على كييف واتخذوا منهـا دوقية فيكنجية روسية ، فأصبحت مركزا هاما للفيكنج فى شرق أوربا (٢) ، ثم مالبث أن اتسع نفوذها فشمل جانبا كبيرا من السهل الروسى ، ولم يمض وقت طويل حتى نفذت المسيحية وتيارات المدنية من القسطنطينية إلى هؤلاء الفيكنج (٣) .

وإلى جانب مااتصف بـه أولئك السويديون الذين نزلوا روسيا من حب التجارة، كانوا أيضا محاربين أشداء ، اتخذ منهم الأباطرة البيزنطيون جنـــدا مرتزقة ، وفرقا للحرس الإمبراطورى،غير أن هؤلاء السويديين أعطوا التجارة كل اهتمامهم ، وكثيرا ماأشعلوا الحروب بسببها لاسيا مع القسطنطينية لتحكمها فى المضايق وتجارة البحر الأسود (٤) ، غير أن الجانبين مالبثا أن أدركا أن التعاون

---

(1) Trevelyan : op. cit. p. 75
Schjoth : op. cit. pp. 3539-40
(2) Keen : op. cit. p. 25
(٣) نفس : نفس المرجع ص ١١٥
(٤) نفسه ص ١١٥ — ١١٦ ؛
Schjoth : op. cit. p. 3539-40

بينها أجدى وأنفع، ولهذا انسابت قوارب السويديين الفيكنج من مياه الدنيبر إلى البحر الأسود تحمل منتجات الشمال من الفراء والأخشاب والأسماك واللحوم والشمع والرقيق، وتعود حاملة منتجات الشرق من المنسوجات والتوابل والحلى والزجاج والبخور وغيرها (١) .

على أن أهم إغارات الفيكنج فى أوربا هى التى قاموا بها ضد الامبراطورية الكارولنجية فكانوا أحد الأسباب الرئيسية التى زعزعت هذه الإمبراطورية وساهمت فى تداعيها ، وذلك على الرغم من أن هؤلاء الفيكنج الذين غزوا فرنسا فى القرن التاسع ، كانو قليلى العدد ، وأن غزوهم لم يكن يمثل طوفانا مثل غزو العناصر الجرمانية الأولى ، لكنه سبب رعبا وفوضى أدت إلى لجوء كثير من الرجال إلى النبلاء المجاورين يلتمسون الحماية ويقدمون الخدمة العسكرية فى مقابلها (٢) ، وكان الراهب القديس جال على حق حين أسف على أن شارلمان لم يقض على الدانيين بعد فراغه من أمر السكسون وقد جاء فى إحدى الروايات المعاصرة أن شارلمان رأى بنفسه إحدى إغارات الدانيين على سواحل دولته، وأنه أسف لذلك كثيرا والتفت إلى أتباعه قائلا : «لقد تأثرت لذلك كثيرا ... وإنى لأشعر بالحزن والأسف عندما أنظر إلى الأمام ، وأرى كم من الضرر سيلحقه أولئك بذريتى وخلفائى وشعوبهم »(٣) . وهكذا كانت إغارات الفيكنج على الإمبراطورية فى حياة شارلمان نفسه وحاول أكثر من مرة وقف خطرهم تارة بإعداد أسطول قوى يحمى السواحل الغربية لدولته وتارة أخرى بالاتفاق معهم

(I) Schjeth : op. cit. p. 3539-40

(2) Cantor : op. cit. p. 237

(3) Viking. trans. by keary. p. 131
Haskins : op. cit. p. 32

وإحـــلال السلام معهم ، ولـكنه فيما يبـدو لم يوفق ، إذا ظلت غاراتهم تروع شواطىء الامبراطورية فى كل عام تقريبا (١) .

وقد حـدث فى عهد لويس التقى أن نزل الدانيون على طـول ساحل فريزيا وفلاندرز ابتداء من سنة ٨٣٥م ، حيث عاثوا فسادا فيها ودمروا ونهبوا بعض مراكزها منتهزين فرصة الحـــروب الأهلية الدائرة بين أفراد البيت الكارولنجى (٢) ، وزاد من غلوائهم أن لويس التقى حاول مسالمتهم واتقـاء شرهم بمنحهم قطعة من الأرض قريبة من دورشتاد فى فريزيا ، ولـكن كل ذلك لم يؤد إلى وقف مطامعهم ، وبعـد وفاة لويس التقى وإبان الصراع الذى اندلع بين أبنائه، انساب أول أسطول الشماليين فى نهر السين سنة ٨٤١م،واستولوا على روان ثم تقدموا فى نهر اللـــوار ودمروا مدينة نانت Nantes سنة ٨٤٢م ، وقضـوا الشتاء لأول مرة فى إستريا فى جزيرة قرب مصب نهــــر اللـوار فى نوارموتيه Noirmoutier (٣) ، أثناء قيام الإخوة بعقد اتفاقية فردان ، وفى نانت قتلوا البطرق أمام مذبح الكنيسة،وعلى مرأى من جمهور المصلين،وفى غضون عامين نهبوا مدينة هامبورج ، وانسابوا سنة ٨٤٥م فى أسطول كبير فى نهر السين ودمروا باريس (٤) ، وبعد ذلك بعـامين استولوا على مدينة بوردو أهم مـدن جنوب فرنسا بعد أن دمروها وظلوا يحتلونها عدة سنين (٥) ، وهكذا فتحت لهم

---

(1) Omau : op. cit. p. 416
(2) Ibid : p. 400
(3) Haskins : op. cit. p, 33
(4) Schjeth : op. cit. p. 3550
(5) Omau : op. cit. pp. 420-21

الأنهار الطريق إلى جوف الإمبراطورية (١) ، فأوصلهم نهر الراين إلى كولونيا، وأفضى بهم نهر السوم إلى إميان وأوصلهم نهر السين إلى باريس وروان ونهر اللوار إلى تور وأورليان ، وإن أبدت هذه المدينة الأخيرة مقاومة عنيفة لغزو الدانيين سنة ٨٥٤ ، كما سلكوا أيضا أنهار الإلب والويزر weser والميز Meuse والشلد Scheldt والجارون ووصلوا إلى جنوب أسبانيا إلى الوادي الكبير (٢) .

وهكذا تعرضت الممالك الفرنجية الثلاث لضربات الفيكنج وإن كانت مملكة شارل الأصلع في أقصى الغرب هي التي أصابها كثير من الضرر بسبب طول سواحلها من جهة وكثرة أنهارها من جهة أخرى ، فضلا عن انشغال ملكها في نزاعات داخلية ، ولهذا لجأ شارل الأصلع أكثر من مرة لمحاولة صرفهم عن مملكته بعقد الصلح معهم تارة وبدفع الإتاوات تارة أخرى دون جدوى (٣)، أما مملكة لوثر وهي المملكة الوسطى ، فقد كان حظها هي الأخرى سيئا لأن الفيكنج دأبوا على الإغارة على سواحل فريزيا في كل عام تقريبا حيث اتخذوا فيها قواعد دائمة نفذوا منها إلى أعماق المملكة ، وهددوا المدن الكبرى بما فيها العاصمة ذاتها (آوخن) أو اكس لاشابل ، في الوقت الذي لم تجد فيه محاولات لوثر لوقف تقدمهم بتحصين جزيرة والشرن Walcheren قرب مصب نهر الراين ضمانا لمسالمتهم وصرفهم عن مملكته(٤) ، وإذا كانت مملكة لويس الجرماني أحسن هذه الممالك حظا فإن السبب في ذلك يرجع إلى أن السكسون كانوا عقبة كؤد أمام

(1) Keen : op. cit, p. 25
(2) Haskins ; op. cit. p. 33
(3) Cantor : op. cit. p. 237
(4) Haskins ;op. cit. p. 33

الفيكنج ، فضلا عن وعورة الطرق وعدم صلاحية كثير منها لضربات الغزاة، وإن لم تسلم هذه المملكة مرات من الإغارات والنهب والتدمير (١) .

ولقد زاد خطر الفيكنج بالنسبة للامبراطورية الكارولنجية فى النصف الثانى من القرن التاسع لاسيما بعد وفاة أبناء لويس التقى الثلاثة لوثر ٨٥٥ ثم لويس الجرمانى سنة ٨٧٦م ، ثم شارل الأصلع سنة ٨٧٧ ، وإبان النزاع بين أفـراد البيت الكارولنجى على الملك (٢)، وبلغ من استهانة الفيكنج بقوى الكارولنجيين، أنهم عبروا فيما بين سنتى ٨٥٩-٨٦٢ مضيق جبل طارق ، وأغاروا على سواحل إفريقيا وعلى ساحل فرنسا الجنوبى وجزائر البليار (٣) ، وساحل مرسيليا ، ثم اندفعوا فى نهر الرون شمالا حتى وصلوا فالنس ، بينما قامت جـماعة منهم تحت قيادة قائد جسور بنهب المدن الإيطالية لونا ، ربما معتقدين أنها مدينة روما(٤)، وفى الفترة بين سنتى ٨٧٩م و ٨٨٥ اشتدت وطـأة الفيكنج كثيرا بالنسبة للامبراطورية ، فاجتاحوا أودية أنهـار الشلد والسوم ، كما اجتاحوا فريزيا وفلاندرز ، وكل المنطقة بين الراين واللوار ، ولم تؤد هزيمتهم عـلى يد ملك فرنسا لويس الثالث سنة ٨٨١ إلى وقف خطرهم (٥) ، فقد اضطر شارل السمين فى العام التالى - فى محاولة لصرفهم عن مملكته - أن يدفع لهم إتاوة كبيرة وأن يمنحهم فريزيا يقيمون فيها ، وأن يزوج ابنته من زعيمهم ، وتابع ملك فرنسا وخليفته

(1) Oman : op. cit. p. 419

(2) Camb. Med. Hist. V. III pp. 320-1

(3) Schjoth : op cit. pp. 3548-9

(4) Haskins : op. cit. p. 33

(5) Oman : op. cit. pp. 438-9
Grant : op. cit. p. 155

لويس الثالث (كارلومان) سياسة شارل السمين فى دفع إتاوة كبيرة الفيكنج ، حينما غزوا شمال فرنسا فى العام التالى (٨٨٣ م) ، وكلها كانت تصرفات مهينة لم تزد الغزاة إلا طمعا وضراوة (١) ، جعلت أحد المؤرخين الإخباريين المعاصرين ينعى فى كتابته قائلا : «كل الرجال قد فروا .. ولم يصح أحد منهم قف وحارب من أجل بلدك وكنيستك ، وأبناء وطنك ، وبالعار ما كان يجب أن يدافعوا عنه بالسلاح افتدوه بالمال» (٢) ، وهاجم الفيكنج المدن مثلما هاجموا الكنائس والأديرة (٣) ، وفى الوقت الذى استطاعت فيه بعض المدن أن تقاوم بأسوارها المحصنة وقلاعها الشامخة ، فإن دور العبادة المسيحية لم يكن لها من حماية سوى قدسيتها وحرمتها ، ولهذا تعرضت للسلب والنهب والتدمير ، وكان الرهبان يهلكون فى أديرتهم ونادرا ما كانوا يتمكنون من النجاة بأنفسهم وبقليل من الحجج والوثائق الهامة ليعودوا بعد ذلك فلا يجدون سوى كومة من الخرائب المتفحمة والريف المقفر (٤) ، ولقد اختفت كثير من المنشآت الدينية تماما خلال تلك الغزوات ، وفى نورمانديا نادرا ما بقيت كنيسة تنتمى للفترة السابقة على القرن العاشر ، ونظرا لأن الأديرة كانت فى ذلك الوقت المراكز الرئيسية للتعليم والثقافة فى كل غرب أوربا فقد كان فقدها فى الحقيقة فقدا للحضارة والمدنية (٥) ، وفى سنة ٨٨٥ م هاجموا باريس فى نحو ٧٠٠ سفينة وأربعين ألف مقاتل ، فصمدت المدينة عدة

---

(1) Camb. Med. Hist. V. III p. 322
(2) Haskins ; op. cit. p 34
(3) Keen : op. cit. p. 25
(4) Haskins ; op. cit. p. 35
(5) Ibid. p. 35

أشهر بقيادة الكونت أودو Odo (١) وبينما حضر شارل السمين ، الذى كان قد استطاع توحيد الإمبراطورية قبل ذلك بعام ، وعند وصوله تابع سياسته فى مسالمة الفيكنج وشراء صلحهم بدفع مبلغ كبير من المال قدره سبعمائة رطل من الفضة ، وسمح لهم بقضاء الشتاء فى برجنديا ، حيث استباحوها وأنزلوا بها كثيرا من الخراب والدمار (٢) ، غير أن نجاح باريس فى الصمود أمام هذا الهجوم قد رفع من مكانتها مثلما رفع قدر حاكمها أودو ، وهكذا ستصبح باريس منذ ذلك الوقت مركز الثقل فى فرنسا وتناهض حاضرة الكارولنجيين بل سيختار ملوك فرنسا من بين حكامها (٣) .

لم يستطع شارل السمين أن يحتفظ بوحدة الإمبراطورية سوى ثلاث سنوات من سنة ٨٨٤ إلى ٨٨٧م ، ثم مالبث أن نحى عن العرش سنة ٨٨٧ ، واختير أودو ملكا على فرنسا ، فأثبت هذا كفاية وشجاعة حين انتصر على الفيكنج بعد عدة أشهر من تتويجه عندما عادوا لتهديد باريس (٤) ، ثم لجأ أودو بعد ذلك إلى سياسة المفاوضة والمهادنة معهم محاولا أن يصرفهم عن مملكته ، غير أن ما نزل بالفيكنج فى سنة ٨٩١م من هزيمة ساحقة على يد أرنولف ملك المملكة الفرنجية الشرقية (٥) ، قد جعل أودو يتراجع عن سياسة المهادنة ويتابع سياسته الصلبة

---

(1) Schjoth : op. cit. p. 3550
(2) Oman ; op. cit. pp. 442-3
(3) Ibid . pp. 444-5
(4) Grant : op. cit. p. 196
(5) Schjoth ; op. cit. p. 3550

تهاجمهم ، ولهذا نجح فى إلحاق هزيمة كبيرة بهم فى العام التالى سنة ٨٩٢م بل استطاع أن يأسر زعيمهم وينكل به ويقتل أعدادا هائلة منهم ، ولكن كل هذه الهزائم لم تنجح فى القضاء على خطر الفيكنج، الذين ظلوا من القوة بحيث استطاعوا تهديد أجزاء كثيرة من فرنسا وحوض نهر السين (١) .

ولقد هيأت الظروف الداخلية فى فرنسا الفيكنج جواً مناسبا لاستئناف غاراتهم وهجماتهم ، وذلك بعد اندلاع صراع رهيب بين أودو وبين شارل البسيط وريث البيت الكارولنجى ، الذى استدعاه نبلاء فرنسا من منفاه فى إنجلترا ليسترجع ملكه ويقصى أودو ، فاستمرت الحروب بين شارل وأودو عدة سنوات لم تنته إلا سنة ٨٩٨ م حين توفى أودو ليستعيد شارل البسيط حكم الجانب الغربى من المملكة الفرنجية الذى ظل يحكمه حتى سنة ٩٢٩م(٢) ، وفى هذه الفترة أبدى شارل البسيط همة كبيرة فى محاربة الفيكنج وساعده على ذلك ما أظهره الأهالى من مقاومة عنيفة وما ظهر من إصرار المدن والأديرة والكنائس على على التحصن وما ظهر من شدة المراس فى حرب الغزاة (٣) ، وعلى الرغم من ذلك فقد ظل الفيكنج مستقرين فى الحوض الأدنى لنهر السين وبرز من بينهم زعيم يدعى روللو Rollo ، حاز شهرة كبيرة بعد ذلك لأنه نجح فى الحصول على المنطقة التى عرفت بعد ذلك بنورمانديا ، ليقيم فيها أتباعه وليصبح تاريخها قطعة من تاريخ النورثمن (النورمان) فى فرنسا (٤) ، وكان الفيكنج قد اتخذوا من روان قرب

---

(1) Oman : op. cit. p. 498-9
(2) Ibid. p. 499
(3) Schjoth : op. cit. p. 3550
(4) Keen : op. cit. p. 25

مصب نهر السين مركزاً لهم يغيرون منه على المنطقة القريبة بين نهر ابت وحدود بريتانى ، كما أخذ رولو يهاجم بايو وما حولها ، منذ أواخر القرن التاسع ، فلم يسع شارل البسيط ، إلا أن يهادن رولو ويفاوضه سنة ٩١١م شريطة منحه قطعة أرض للاستقرار فيها هو وأتباعه (١)، وهى الممتدة من نهر ابت حتى بريتانى ، أو ما عرف باسم أرض النورمن (نورمانديا)(٢) ، ولم تكن هى نورمانديا التى عرفت بعد ذلك بحدودها المعروفة، وإنما كانت تمثل المنطقة الواقعة على جانبى نهر السين أو ما عرف بعد ذلك باسم نورمانديا العليا ، إذ أن النورمان لم يحصلوا على وسط نورمانديا إلا فى سنة ٩٢٤م ،على حين لم تسقط فى أيديهم كونتنتين Contentin، وأفرانشين Afranchin إلا فى سنة ٩٣٣م (٣) ، ومهما يكن من أمر فقد قبل شارل البسيط التنازل من الإقليم نظير اعتراف رولو بالتبعية له وتعهده باعتناق المسيحية ، بل ذهبت رواية معاصرة إلى القول بأن رولو قد أظهر ولاءه للملك على الطريقة الإقطاعية ولكنه اكتفى بوضع يده بين يدى الملك دون أن يركع أمامه وهو أمر يتنافى مع اعتزاز رجال الشمال بأنفسهم ، ولهذا أناب أحد أتباعه القيام بهذا الإجراء(٤) ، ويبدو أن شارل كان يهدف من وراء هذه المنحة اتقاء شر الفيكنج من جهة والاستفادة من دوق نورمانديا القوى فى مناوأة كونت باريس من جهة أخرى(٥) ، فضلا عن

(1) Grant ; op. cit. p. 196
(2) Cantor : op. cit. p. 254
Oman : op. cit. p. 501
(3) Haskins : op. cit. p. 28
(4) Ibid : p. 27
(5) Schjoth : op. cit. p. 3550

قطع اتصـــال باريس بالبحر من جهة ثالثة حسما لأى تمرد تقوم به ، وما لبث الفيكنج الذين كانوا قد انتشروا فى أنحاء فرنسا أن هرعوا إلى نورمانديا للانضواء تحت راية رولو ، لتبدأ صفحة صاخبة فى تاريخ هذا الإقليم(١) .

وكان النورمان - وهى لفظة محرفة عن النورثمن - أكثر الشعوب الجرمانية استعدادا للافادة من مظاهر الحضارة اللاتينية وثقافة الشعوب الأوروبية ، ولم يمض أكثر من قرن من الزمان ، حتى كانوا قد استجابوا لمؤثرات الحضارة التى غدوا بقربها(٢)، فاعتنقوا المسيحية بدلا من الوثنية ، واستبدلوا بلغتهم الشمالية اللغة الفرنسية ، وغدوا فرنسيين فى ثقافتهم ونظمهم ، واستعاضوا عن ذكرياتهم الشمالية الصاخبة بتقاليد الشعوب اللاتينية وإن احتفظوا إلى حد ما ببعض سماتهم القديمة ، لاسيما العنف والحماسة والحيوية والميل القتال(٣) ، لكن الشىء الذى يسترعى الانتباه أنهم أظهروا وازعا دينيا عميقا حين جعلوا من أنفسهم حمـــاة المسيحية ، واهتموا ببناء الكنائس وشغفوا ببناء المدن وتشجيع العمران ، وأظهروا حماسة بالغة فى استصلاح الأراضى وزراعتها ، ولعل احتفاظهم بحيويتهم وميلهم الدائب للحرب هو الذى جعلهم ينهرون فى غضون قرن ونصف على انجلترا ويستقرون بها(٤) ، ويقيمون لهم حكما ثابتـا فى جنوب إيطـاليا وصقلية ، ثم يدلون بدلوهم فى الحروب الصليبية ، ولهذا حاولت البابوية الإفادة منهم فى إقرار أمورها فى إيطاليا ، وطرد البيزنطيين منها واستعادة صقلية إلى حظيرة المسيحية

---

(1) Oman ; op. cit. pp. 502-3
Keen ; op. cit. p. 25

(2) Cantor : op. cit p. 254

(3) Haskins : op. cit. p. 30

(4) Trevelyan : op. cit. p.113

وتأمين سلامة البابوية ، وطبقا لهذا أقطعت البابوية دوقية أبوليـــا لروبرت جويسكارد النورمانى، وكافأت أخاه روجر على استعادة صقلية من أيدى المسلمين بتعيينه نائبا بابويا بالجزيرة (١) .

ولقد بدا لكتاب ذلك العصر أن أولئك الشماليين ، لم يكونوا سوى برابرة ، ليست لهم حضارة مادية أو أدبية لأنهم كانوا قراصنة نزعت من قلوبهم الرحمة والشفقة ، وابتعدوا عن التقوى والورع ،أولئك الذين لم يبكوا على ذنوبهم أو خطاياهم ، ، الذين لم تكن رحلاتهم سوى غارات سلب ونهب هوجاء وغارات خراب ودمار(٢) ، غير أن أولئك الكتاب كانوا غالبا من القساوسة والرهبان، الذين تعرضوا أكثر من غيرهم لأهوال الفيكنج ، الذين أضيروا أكثر من غيرهم بهجمات رجال الشمال وأحزنهم ضياع المراكز الثقافية والعلمية والدينيـة بغرب أوربا ، ولهذا خرجت كتاباتهم ممزوجة بالمرارة طافحة بكثير من الآلام والأحزان، لكن هناك جانب آخر من الصورة لم يتباطأ الدارسون الاسكندناويون من تأكيده ، هو أن رجال الشمال كانت لهم حتى ذلك الوقت ثقافتهم الخاصة(٣)، التى تقدمت تقدما حسنا فى جانبها المادى واشتهرت بمهارة فنها وخصبها فى ميادين الشعر والقصة(٤) . فعلى الرغم من أن حضارة الفيكنج تبدو فعلا من وجهة نظرنا حضارة صغيرة وحديثة العمر ، لكنها غالباً تخفى وراءها تاريخا يمتد نحو خمسة

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 293
Hearder & Waley : op. cit. p. 37-8

(2) Haskins : op. cit. p. 35

(3) Pirenne : op. cit. p. 239

(4) Haskins ; op. cit. p. 36
Trevelyan : op. cit. p. 72

عشر قرنا(١) ، وامتازت فى جانبها المادى بالوفرة والخصب ، كما عكست حياة الثراء والرفاهية ، وتشهد بذلك الدروع والسيوف المطعمة والعقود والمشاجب والقلائد التى عثر عليها بين مخلفاتهم ، وتشهد بوفرة انتاجها وبحسن صنعتها ، كما تشهد بالتقدم والمهارة اليدوية فى الفنون والصناعة(٢) .

وينتظم المجتمع الفيكنجى من حيث بنائه الاجتماعى فى طبقات ثلاث : العبد Thrall ، وفلاح الأرض Charl أو Carl ، والنبيل Earl ، وتغلب النبالة والشرف على الكارل والإيرل ، ومنهما تكونت جموع الذين ذهبوا إلى البحر ، ومن صنعوا كثيرا من نشاط هذا الشعب الجرمانى . أما من الناحية السياسية فكان المجتمع الفيكنجى مجتمعا أرستقراطيا ، لكنها كانت أرستقراطية يتساوى فيها جميع النبلاء ، ليس لنا لورد ولكننا جميعا متساوون ، (٣) ، وتجلى مجتمع الفيكنج السياسى فى أيسلندا وهو المجتمع الذى وصفه لورد برايس Bryce بأنه كان ، مثالا منقطع النظير لمجتمع تألقت قوة إبداعه وثقافته ذاتيا بعيداً عن المؤثرات المادية ، (٤) ، وكانت له حكومته الديمقراطيــة الحرة ذات السلطات التشريعية والقضائية فى مجتمع لامركزى ممتاز تسود فيه المساواة والاستقلال الذاتى ، وله حظه من القانون والإدارة وعدد كبير من المحاكم التى لا يلغى أحكامها أية سلطات(٥) ، وفى مستعمرة أخرى للفيكنج قرب مصب الأودر ظهر مجتمع

(I) Schjeth ; " The Lands of the Northmen ", B. H. VII, p. 3530

(2) Haskins ; op. cit. h. 37

(3) Haskins ; op. cit. p. 42

(4) Bryce ; Primitive Iceland. p. 263 (Oxford 1901)

(5) Haskins ; op. cit. p. 43

يسوده نظام عسكرى شديد الصرامة لايسمح بعضويته إلا الرجال ذوى الشجاعة الفائقة بمن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين (١) .

وهكذا لم يكن الفيكنج برابرة بالمعنى المقصود ، لأن حضـارتهم تقدمت فى جانبها المادى مثلما تقدمت فى جانبها الأدبى ، فلدينا تراث عظيم لثروة الفيكنج الأدبية وصلت إلينا فى الترجمات المختلفة لساجات Sagas ، والقصص الاخبارية وكذلك القصائد الأدبية Eddic Poems التى تنم عن ثروة أدبية وفـيرة وإحساس أدبى مرهف (٢) ، وخاصة ساجات أيسلندا فى القرن الحـادى عشر التى يمكن وصفها بأنها قصص مزجت بين التاريخ والخيال فى حديثها عن الأعمال العظيمة لكبار المحاربين الاسكندناويين ، وتمثل كل من سـاجا Gunnlaug and Harftu نموذجا لهذا النوع من القصص الأدبية العظيمة (٣) .

أما بالنسبة لاعتناق الفيكنج المسيحية ، فعلى الرغم من أن المؤرخ المحدث كانتور Cantor يذهب إلى القول بأن هؤلاء الفيكنج لم يدركوا المسيحية الغربية حتى القرن العاشر ،مستشهدا على ذلك بميلهم الدائب لنهب الأديرة والإغارة على الكنائس(٤) ، فإنه من الثابت أنهم عرفوا المسيحية منذ اتصالهم بالفريزيين وممارستهم التجارة معهم ، غير أن الكنيسة الغربية لم تكن لتصبر على استمرار وثنية

---

(1) Ibid. p. 43

(2) Corpus Poeticum Boreale. I, p. 281

وانظر مقتطفات منها فى كتاب Hoskins المذكور ، ابتداء من ص ٣٩ وانظر أيضا Trevelyan فى كتابه المذكور p. 75.

(3) The Med. World. 300–1300, by Cantor. p. 163

وقد ترجمت ثلاث من هـذه الساجات على يد M. Schlauch ، H. Scargill (Princeton 1050. pp. 40–41) .

(4) Cantor : Med. Hist. pp. 236–7

الغالبية العظمى من هذا الشعب الجرماني (١) ، ولهذا أخذت البعثات التبشيرية ترتاد شبه جزيرة اسكنديناوة منذ مطلع القرن الثامن الميلادي، فأخذت المسيحية تتقدم تقدما محسوساً في ربوع تلك البلاد ، ولهذا لم يكن الفيكنج الذين غزوا أوروبا حينذاك يجهلون المسيحية تماما ، وإن بدا أغلبهم يتمسك بالوثنية حتى بعد فترة من استقرارهم في مستعمراتهم الجديدة(٢)،ويبدو أن استمرار انتشار المسيحية بين هؤلاء الفيكنج بطريقة تدريجية كان له أثره فيما أظهروه من تقدم في ميادين الحضارة من جهة وفيما حدث في سلوكهم العام من تهذيب من جهة أخرى ، وإن كان تهذيبا تدريجيا .

(I) Schjoth : " Denmark and its sister States " B. H. VII. pp. 3559-60

(2) Ibid, p. 3559

الفصل الثاني عشر

مملكة نورمانديا فى غالة

غزو النورمان لنورمانديا وتأسيس مملكتهم فيها ـ دور رولو فى إرساء قواعد المملكة الجديدة ـ استمرار الصلات بين نورمانديا وبلاد الشمال ـ اعتناق النورمان المسيحية الكاثوليكية ـ وضع نورمانديا بالنسبة لغالة وبداية تحول النورمان إلى مواطنين فرنسيين ـ أشهر أدواق نورمانديا ـ وليم دوق نورمانديا السادس ـ السنوات الأولى من عهد هذا الدوق ـ علاقات وليم الخارجية ـ علاقته بأنجو ـ علاقته بملك فرنسا ـ التنظيمات الداخلية ـ فى نورمانديا فى القرن الحادى عشر : ازدهار نورمانديا . نورمانديا مجتمعا إقطاعيا . القضاء النظام الإدارى . الشئون المالية ـ سياسة وليم تجاه الكنيسة ـ نورمانديا وانجلترا ـ غزو وليم لإنجلترا سنة ١٠٦٦م ـ أثر وليم الفاتح فى التاريخ الإنجليزى ـ إمبراطورية وليم العظيم ـ الظروف التى تم فيها فتح انجلترا على يد النورمان ـ وليم وملك انجلترا الجديد « هارولد » ـ معركة هاستنجز الشهيرة سنة ١٠٦٦ وانتصار وليم فيها ـ نتائج الفتح النورمانى .

كان الشماليون أو النورثمن قد غزوا نورمانديا بغالة منذ سنة ٨٤١م ، ولم تتوقف غاراتهم حتى سنة ٩٦٦م ، وكان منح رولو Rolle وأتباعه إقليم نورمانديا

سنة ٩١١م أبرز أحداث تاريخ النورمان بهذه البلاد ، ونقطة البداية فى تأسيس المملكة النورمانية بفالة ، كما جاءت سنة ٩١١م فى منتصف قرن وربع من الغزو والاستقرار لرجال الشمال فى ذلك الإقليم (١). فبعد سلسلة من المغامرات النورمان بفالة ، رأى الملك الفرنجى شارل البسيط ، أن يمنح رولو الجزء الشرق الذى عرف فيما بعد باسم نورمانديا ، كإقطاع له ولرجاله نظير ارتباط هذا بالتبعية له وحلفه يمين الولاء (٢)، فمنح رولو الإقليم الواقع على جانبى نهر السين ، الذى عرف فيما بعد بنورمانديا العليا ، وإن حصل النورمان بعد ذلك ، فى سنة ٩٢٤ على وسط نورمانديا ثم الجهات القريبة فى كوتنتين Cotentin والأفرانشين سنة ٩٣٣م (٣).

أما عن رولو نفسه فلقد كان قرصانا كبيرا بموطنه بشبه جزيرة اسكنديناوة، ويبدو أنه تعرض لغضب الملك هارولد هناك، فهرب ، وأخذ يمارس التجارة فى بعض الجزر القريبة وفى غالة ، ثم أصبح بارلا أعظم بين أتباعه ، ثم تألق نجمه بعد غزوه لنورمانديا وحصوله عليها كإقطاع (٤)، وهناك رواية لإحدى الساجات « Saga » المحلية تجعل منه « مواطنا نرويجيا» ، بينما حاول بعض الباحثين الدانمركيين إثبات أنه دانمركى، على حين سعت بعض الأبحاث لإثبات أنه من أصل سويدى، لكن يبدو أن النظرية النرويجية ـ فى مجموعها ـ أكثرها قبولا واحتمالا، لاعتمادها على رواية إحدى الساجات الموثوق بها ، مع بعض الشواهد والقرائن الأخرى

---

(1) Haskins: The Normans in European History. pp. 26–7

(2) Schjeth:"Great days of the Northmen". in B.H. VII. p.3550

(3) Haskins : op, cit. pp, 27–8

(4) Cantor : Med. Hist, p, 254

المدحية(١)، وعلى كل حال كان استقرار رولو وأتباعه فى نورمانديا بداية جديدة للشعب الاسكندناوى فى ذلك الإقليم (٢).

ويجب أن ننوه بادىء ذى بدء أن الصلات بين نورمانديا والشمال لم تنته بالمنحة التى قدمت لرولو سنة ٩١١م ، إذ ينبغى ألا نعتقد أن المملكة النورمانية الجديدة كانت بجرد نجم سيار أطلق فى فراغ ليتحرك منفصلا وبعيدا فى فلك جديد ، ولكنها اعتبرت فى الواقع مستعمرة جديدة ونقطة متقدمة للشعب الاسكندناوى فى الجنوب ، تغذيها أعداد وجماعات جديدة من المهاجرين والمستعمرين من الوطن الشمالى ، فى الوقت الذى جرى اعتبارها أيضا بقعة تتباعد شيئا فشيئا عن الشمال ، لتدخل ضمن نظام سياسى جديد بفرنسا الفرنجية وجاراتها(٣). والواقع أن شارل البسيط ربما أعتقد أنه بهذه المنحة إنما ينشىء إقطاعا جديدا ، لقائد النورمان ايجعله أحد أفصاله ويربطه معه برباط التبعية الإقطاعية ، بينما كانت هذه المنحة بالنسبة لرولو – وهو خالى الذهن من الأفكار الاقطاعية – بجرد منحة كاملة يمتلكها هو ورفاقه كأرض يحتويها فى وطنه ، وطبقا لذلك لم يجر اندماج بين هذه المستعمرة الجديدة وما يحيط بها ، لأن رجال الشمال ظلوا يتدفقون عليها ويحولون بينها وبين الذوبان فيما حولها ، ويعطونها الفرصة لتأكيد وجودها وإبراز سماتها بعيدا عن جاراتها . وهكذا أخذت نورمانديا تشكل ببطء كيانها كبلد إفرنجى وكمستعمرة دانمركية لتبدو كدوقية شبه مستقلة

---

(1) Haskins : op. cit. p. 28

(2) Hallam : View of the State of Europe during the Mid. ages. p. 16

(3) Haskins : op. cit p, 44-5

تلعب دورها فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر (١).

وعلى الرغم من أن رولو قد تنصرسنة ٩١٢م ، وجرى تعميده وفقا للمسيحية الكاثوليكية وتسمى باسم روبرت Robert (٢) ، وقرن توبته وهدايته بالمنح السخية من الأراضى للكنائس والأديرة فى وطنه الجديد ، وأن ابنه وليم (Long-Sword) كان من طراز أكثر رسوخا فى المسيحية والفرنجية ، فإن هناك ثمة إشارات تنبىء عن بعض ردود الفعل الاسكندناوى والوثنى لدى الشعب النورمانى ، بالإضافة إلى بعض القرائن التى تؤكد استمرار بعضهم - لاسيما حديثى العهد - فى عبادة الآلهة الوثنية مثل الإله ثور Thor والإله أودين Odin ، فى وادى نهر السين (٣) ، فضلا عن أن دستور رولو الذى أمكن الإلمام بصورة عامه عنه ، كان بصفة أساسية اسكندناوى الطابع (٤) ، غير أن رولو هذا نجح فى إقرار الأمور بنورمانديا ، وقام بتقسيم الأراضى بين أتباعه وأصدر القوانين وحفظ النظام فى دوقيته (٥).

وببداية القرن الحادى عشر ، وبعد أن توقفت الهجرة الإسكندناوية ، استطاعت نورمانديا أن تعتمد على نفسها ، ووقفت على أقدامها منفردة ، كما أن تاريخها أخذ ينسلخ عن الفترة التى غصت بالأساطير والقصص الغامضة ويصل إلى أصول ثابتة وشواهد تاريخية معروفة (٦) ، ولم يمض قرن واحـــد على بداية

---

(1) Haskins : op. cit. p. 45
(2) Schjoth ; op. cit. p. 3550
(3) Haskins: op. cit, pp. 45–6
(4) Ibid. p. 46
(5) Schjoth : op. cit, p. 3550
(6) Haskins ; op. cit. p; 40

الاستقرار بنورمانديا ، حتى كان النورمان قـــد تكيفوا مع البيئة المجاورة ، واندمجوا إلى حد بعيد فيها ، بل حاز دوق نورمانديا منزلة سامية بالنسبة لغيره من أتصال ملك فرنسا (١) ، حتى ليذهب ميتلاند Maitland ، أنه ببداية القرن الحادى عشر أصبح النورمان فرنسيين فى لغتهم وفى قوانينهم لـكنهم كـانوا معتزين كثيرا باستقلالهم الداخلى وعلى استعداد ليحاربوا الفرنسيين إذا تعرض ذلك الاستقلال للخطر ، وطبقـــا لهذا المفهوم اعتبر النورمان دولتهم عضوا فى مجموعة الدول الداخـــلة فى طاعة ملك باريس ، مع تمتعها بالاستقلال الداخلى والحكم الذاتى (٢) ، وكانت لغة حديثهم هى الفرنسية ولغة كتابتهم هى اللاتينية ، وأسلوب وثائقهم القانونية هو أسلوب المحكمة الفرنسية العليـــا باستثناء بعض المصطلحات الفنية فى قانونهم التى كانت لها أصول اسكندناوية (٣).

استقر النورمان إذن بنورمانديا ، واتخذوا من روان عاصمة ، وبدءوا فى الاندماج فى البيئة المجاورة ، وتحولوا إلى الحديث بالفرنسية ، كل ذلك دون أن يفقدوا حماسهم للقتال وحبهم للمغامرة(٤) وطبقوا القانون الفرنجى ، ولعل تحول النورمان إلى الفرنسية هو الذى جعـل الدوق الثانى من أدواق نورمانديا وهو وليم الأول يضطر إلى إرسال ابنه إلى بايو Bayeux ، ليتعلم اللغة الاسكندناوية.

---

(1) Cantor : op. cit. p. 254

(2) Pollock & Maitland : Hist. of English law, p. 66

(3) Haskins : op. cit. p. 66

(4) Schjoth : op. cit. p. 3550

لأنها لم تكن لغة حديث فى روان (١) ، فضلا عن أن أثر هذه اللغة الشمالية كان ضئيلا فى فرنسية نورمانديا ، واللهجة المحلية النورمانية ، وإن اقتصر هذا الأثر الشمالى الاسكندناوى على التأثير فى لغة البحر والاصطلاحات البحرية وحديث البحارة والصيادين الفرنسيين ، كما أثبت ذلك مؤرخ البحرية الفرنسية بوريل دى لا رونسيير Bourel de la Ronciere (٢). وتتجلى هذه الفترة المبكرة من تاريخ مملكة نورمانديا أو دوقية نورمانديا ، بظهور الدوق الرابع من أدواقها وهو ريتشارد الطيب Ridhard the good وابنه روبرت الذى عرف بروبرت العظيم ، وهو الدوق الخامس من أدواق نورمانديا والذى قدرله أن يموت وهو عائد من الأراضى المقدسة بعد قيامه بالحج ، إذ توفى فى آسيا الصغرى سنة ١٠٣٥م ، وكان روبرت هذا والدا لدوق نورمانديا الشهير وليم العظيم الذى عرف فيما بعد بوليم الفاتح (١٠٣٥ - ١٠٨٧م) (٣).

والواقع أن وليم — دوق نورمانديا السادس — كان أشهر أدواق تلك الإمارة على الإطلاق ، لما تحقق على يديه من أعمال كان أبرزها إنشاء إمبراطورية نورمانية مدت سيطرتها إلى انجلترا (٤) ، وشغل وليم فى سنى حياته الأولى بنضاله مع أفصاله الإقطاعيين ، وجيرانه فى غالة ، وما حدث من أموربينه وبين ملك فرنسا ، إذ انتهز الأفصال النورمان فرصة وفاة الدوق روبرت ، وأشعلوا الثورة من جديد ضد ابنه وليم حتى عمت الفوضى ، وانتشر الاضطراب فى

---

(1) Haskins : op. cit. p. 49

(2) Ibid . p, 49

(3) Ibid . pp. 52–3

(4) Sehjoth : op, cit. pp. 3550–3

أنحاء المملكة النورمانية (١)، وبلغت هذه الفوضى ذروتها بثورة البارونات سنة ١٠٤٧م ، حين أشعل هذه الثورة وقادها اثنين من الأفصال فى نورماندیا السفلى ، واضطر وليم إلى الهرب فى حالة سيئة ولاذ بالملك الفرنسى ، ونجح بمعونته فى تكوين جيش قاتل به الثوار وألحق بهم الهزيمة ، واستعاد مكانته فى الدوقية ، ثم أسر فى النهاية بنفى قادة الثورة والزج ببعضهم فى السجون (٢) ، وبانتهاء هذه الثورة بدأت نورماندیا تنعم بفترة سلام داخلى وازدهار حقيقى فى ظل دوقها الشاب وليم العظيم غير أن المصاعب مالبثت أن تزايدت بالنسبة لسياستها الخارجية ، مع نمو قوة هذا الدوق ، فقد كان دوق نورماندیا هذا وكونت أنجو Anjou فصلين لملك فرنسا ، ولكن علاقات كل منها بالآخر كانت تتسم بالاستقلال التام ، وباستثناء بعض اتفاقات الصداقة الخاصة ، كانت العلاقات بينهما يشوبها عادة العداء والضغينة (٣) .

على أن العلاقات الخارجية مع جيران نورمانديا نالت اهتماما كبيرا من وليم ، لاسيما وقد تميزت تلك العلاقات بالكفاح والنضال فى سبيل تأكيد الذات، والحفاظ على استقلال الإمارة ، ففى الشمال وجدت فلاندرز ، وفى الشرق كانت المملكة الفرنسية ذاتها ، وفى الجنوب كانت هناك مقاطعتى ماين وأنجو ، وفى الغرب كانت هناك بريتانى ، ومن حسن حظ نورمانديا على عهد وليم أن « البريتون» Briton كانوا يعيشون فترة تفكك وانحلال جهة الغرب(٤) ، على حين كان الفلمنكيون فى فلاندرز قد اندمجوا فى إحدى الاقطاعيات الفرنسية القوية ،

(1) Cantor : Med. Hist. p. 256

(2) Haskins : op. cit. p. 60

(3) Ibid : p. 61

(4) Ibid. p. 61

وكانت علاقاتهم بنورماندیا فی مجموعها علاقات صداقة ، وتوطدت أواصر الصداقة فی تلك الفترة بزواج وليم من ماتيلدا ، ابنة كونت فلاندرز ، وهی إحـــدى الزيجات الملكية القليلة فی ذلك العصر ، التی قامت عـــلى أساس المحبـة واقترنت بالصدق والولاء والإخلاص . غير أن الحال اختلفت مـع أنجـو التی كانت قـد بدأت كولاية حدود أقيمت فی مواجهة بريتون الوار الأدنی ، متخذة من قلعة أنجرز Angers مركزا لها وحصنا ، ومـــع أن أنجو ظلت صغـيرة نسبيا فی مساحتها إلا أنها نمت كواحدة من أقوى الدول فی غرب فرنسا ، وزادت خطورتها فی ظل حاكمها جيوفرى المطرقة Geoffrey the Hammer ، واتسعت رقعتها بعد حدودها إلى ناحيتی الشمال والشرق ، حيث اصطدمت بدوقية نورماندیا على عهد دوقها العظيم وليم ، وكانت أنجو حينذاك تحت حكم جيوفرى هذا ، فدخل فی صراع مرير مع وليم ، وتميزت العلاقات بينهما بالحـروب (١) . وكان مصـدر النزاع الكبير بين وليم وجيوفرى ، هو إقليم ماين Maine ، الذى يقع متوسطا بينهما ، فضلا عن قيام الأنجويين بالاستيلاء على بعض القلاع النورمانية ، واستمرت محاولات النورمان ضد إقليم ماين فترة إلا أن أهم مدنه لم تسقط فی أيدی النورمان إلا بعد وفاة جيوفرى سنة ١٠٦٣ ، لتكتمل بذلك وحدة نورماندیا مـع ماين ، الوحـدة التی استمرت خلال الجزء الأكبر من التاريخ النورمانی (٢) .

اما بالنسبه لعلاقة وليم مع ملك فرنسا ، فقـد كانت أكثر تعقيـدا ، فليس هناك جدال من الناحية القانونية ، أن دوق نورماندیا كان فصلا إقطاعيا للملك الفرنسی ، تحكمه وتربطه به التزامات الصـداقة والخدمة النابعـة مـن أداء دوق

(1) Full Rechin ; "Chroniques des Comtes d'Anjou". d. 378
Haskins ; op. cit. p. 62

(2) Ibid p. 63

نورمانديا بين الطاعة والولاء للملك الفرنسي . حقيقة أنه كثيرا ما انتهكت مثل هذه الصلات الإقطاعية في مجتمع القرن الحادي عشر والثاني عشر ، إن لم تكن قد نزعت تماما ، لكننا نقابل في هذه الحالة بتناقضات خطيرة بين ما هو نظرى وما هو واقع فعلى (١) ، فموقع نورمانديا في وادى نهر السين وقربها من الدولة الملكية ، قد أوجد فرصا لاتنتهى للاحتكاك ، ولقد تجنب الطرفان في أول الأمر ولمدة نحو قرن من الزمان توتر العلاقات وتدهورها ، فعقدت معاهدة صداقة ومحالفة تستند إلى المصالح المشتركة بينهما (٢) ، وجاء هيو كابيه إلى عرش فرنسا بمعونة دوق نورمانديا ووجد خلفاؤه في الجيوش النورماندية الدعامة والسند لهم (٣) ، وعند رحيل روبرت إلى الشرق بغية الحج وضع ابنه الصغير (وليم) تحت وصاية الملك هنرى ، كما أنقذ الملك هنرى الدوق وليم من بارونانه سنة ١٠٤٧ ، كما قام وليم بتجهيز نصف جيش الملك في حملة ضد أنجو في السنة التالية(٤) . غير أن هذه العلاقات الطيبة مالبثت أن تبدلت قرب منتصف القرن الحادى عشر، ولابد وأن نمو قوة وتأثير نورمانديا في المنطقة يعطى تفسيرا كافيا لهذا التغير ، ولذلك عضد الملك هنرى الثورة الداخلية ضد النورمان سنة ١٠٥٣م كما حاول القيام بغزو شامل لنورمانديا في نفس السنة ، بينما حرق وخرب ودمر ونهب ماصادفه في طريقه في قلب الممتلكات النورمانية سنة ١٠٥٨م، غير أن لجوء النورمان إلى التريث وحسن توقيت الهجمات المضادة قد بدد جهود الملك ،

(1) Ibid. p. 63–4

(2) Mahrenholtz : " France throughout the middle ages " B. H. VII. p. 3764

(3) Cantor : Med. Hist. p. 254

(4) Haskins : op. cit. p. 65

لكن وليم رفض أن يقوم بهجوم مباشر ضد مليكه ، الذى ظل يعامل من قبله باحترام شخصى بوصفه لورده الاقطاعى(١) ، وحتى بعد أن أصبح وليم نفسه ملكا ظل فى أغلب الظن يقدم الخدمة الحربية التى كان يؤديها للملك وهو دوق ، وعلى كل حال غدت مسألة الخضوع والتبعية مسألة شكلية إلى حد بعيد حينذاك ، لأن وضع وليم وهو دوق كان أكثر قوة من ملك فرنسا نفسه (٢) ، وقد ظل العداء بين ملوك فرنسا وبين النورمان إلى أن وجد هؤلاء متنفسا فى انجلترا يرضى طموحهم ويشبع حبهم للمغامرة والتوسع فخفت حدة العداء بين الطرفين إلى حد كبير (٣) .

ولاشك أن نورماندیا قد ازدهرت تحت حكم روللو وخلفائه ، وأصبحت أعظم أقاليم فرنسا فى الناحية الزراعية والتنظيمية (٤) . وكانت نورماندیا مجتمعا إقطاعيا إذ كان اللورد يمتلك الجانب الأكبر من الأرض بمقتضى الإرث الاقطاعى ، وتؤدى له الخدمة الحربية ، وتزايدت سلطة اللورد بالنسبة لأتباعه ، كما تزايدت سلطات البارونات على من هم أدنى ، وليس فى كل هذا شىء يميز نورماندیا عن البلاد المجاورة فى شمال فرنسا ، فكما أن المجتمع الاقطاعى كان مجتمعا لامركزيا ، فمن المتوقع أن نجد سلطات الحكومة أساسيا ، فى أيدى اللوردات المحليين(٥) ، وفرضت الخدمة الحربية المستحقة لدوق نورماندیا على شكل وحدات غير مرنة

---

(1) Ibid . p. 65

(2) Haskins : op. cit. p. 65

(3) Mahrenholtz : op. cit. p. 3771

(4) Schjoth : op. cit. p. 3550

(5) Haskins : op. cit. p. 68

تتكون من خمسة أو عشرة فرسان ، وكان تحديد أعداد من يقوم بالخدمة الحربية يجرى طبقا للتقاليد والعرف ويجعلها التزاما منتظما (١) ، وظلت هذه القيود لها خطورة زائدة بالنسبة لقوة البارونات الحربية ، وكانت القلعة هى رمز وأساس السلطة الاقطاعية ، ومن ثم فقد حرم الدوق بناء القلاع والحصون بدون إذن منه ، وكان يطلب أن تسلم إليه كلما احتاج إليها ، ولم تكن الحرب الخاصة والثأر أمرا ممنوعا تماما ، وإنما كانت مقيدة بأحكام (٢) .

أما بالنسبة للقضاء ، فعلى الرغم من الامتيازات الكبيرة التى كان يتمتع بها البارونات ، فقد بقيت للدوق سلطات شرعية واسعة ،وكانت هناك أماكن معينة تحت حمايته الخاصة ، وفى جرائم عامة كان المذنب يوضع تحت رحمته. أما بالنسبة النظام الإدارى ، فعلى الرغم من أنه ظل فى كثير من الوجوه بدائيا ، فإنه كان يجارى الدوق ويتمشى مع سلطته (٣) ، إذ كان للدوق النورمانى نواب عموميون يشرفون على شئون الحكومة المحلية .فكان الفيكونت Vicomte ، هو الذى يرأس فرق الدوق العسكرية ويحمى قلاعه ويحفظ النظام ويقيم العدل ويجمع العوائد الدوقية (٤) .

أما فيما يختص بالشئون المالية ، فقد تفوق الأدواق النورمان على ملوك فرنسا فى هذه الناحية ، ووصف المؤرخون المعاصرون ملك فرنسا بأنه كان أقل

---

(1) Cantor : Med. Hist. pp. 255–6

(2) Haskins : op. cit. p. 68

(3) Trevelyan : op. cit. p. 104

(4) Haskins : op. cit. p. 69

قوة من كبار أفصاله » (١) ، وبأنه كان يعيش مثلهم من دخل مزارعه ومكوسه ومدفوعات فلاحية وعمل أقنائه ، ومن الضرائب المقنعة التى كانت تقدم له على شكل هدايا ومنح يجبيها من الأساقفة ومقدمى الأديرة فى الجهات المجاورة،وجبى الدوق النورماني كثيرا من دخله من المزارع والغابات والطواحين وحقوق صيد الأسماك والاحتكارات والمكوس المحلية ، فضلا عما التزم به كل فيكونت من ضرائب محددة . وهكذا تفوقت الدوقية النورمانية فى التنظيمات المالية والضرائبية (٢) .

أما عن سياسة وليم تجاه الكنيسة ،فعلى الرغم من المنزلة التى احتلها رجال الدين فى النصف الأول من القرن الحادى عشر عقب انتعاش الكنيسة بحركة الإصلاح الديرية الكلونية واحتلالها لمركز روحى وفكرى بارز فى تلك الفترة ، فإنها لم تكن مع ذلك القوة أو السلطة العليا فى نورمانديا (٣) ، فكان الدوق هو الذى يعين أساقفتها ومعظم مقدمى أديرتها ، ويجلس فى مجامعها الإقليمية ، ويعيد النظر فى أحكام محاكمها ، ولم يدع وليم أدنى شك فى أنه كان السيد الأعلى، إذ انتهج نهجا استقلاليا عن البابوية كما فعل من قبل أدواق نورمانديا (٤) ، الأمر الذى أنذر بصدام ونزاع مع الكنيسة ، غير أن وليم خرج من ذلك النزاع منتصرا وأجبر البابا هلدبراند العظيم نفسه على الاستسلام (٥) .

---

(1) Luchaire : "La quatre premiers Capetiens" im Lavisse : Hist. de France, II, p. 176

(2) Haskins ; op. cit. pp. 70-1

(3) Trevelyan : op. cit. pp. 105

(4) Cantor : op. cit. p. 255

(5) Haskins : op. cit. p. 71

وعلى الرغم من تحـــول النورمان إلى اللغة الفرنسية والعادات الفرنسية ، واتجاههم إلى العناية بالفنون والآداب ، إلا أنهم لم يفقدوا حماسهم للحرب وحبهم للمغامرة ، ولقـــد حاول النورمان الاحتفاظ بكثير من سماتهم على مر العصور ، حتى أن سكان نورمانديا الحـاليين يختلفون إلى حـدما عن بقية سكان فرنسا فى المظهر العام وفى الصفات والخلق ، وفى الطباع والمـزاج ، فهم دائمـــا يظهرون اهتماما كبيرا بالتجـارة والبحرية وكانت نورمانديا باستمـرار مـوطن البحارة والمكتشفين (١) .

وهكذا كان امتداد الحدود النورمانية وتكوين الامـبراطورية النورمانية نتيجة حتمية لنمو هذه الدوقية نموا متعاظما فى النظم الداخلية ، إذ غـدا الدوق النورمانى يحكم مملكة قوية متماسكة جرى تنظيمها داخليا تنظيماً رائعـا (٢) ، وحازت حكومتها سلطة قوية حازمة فوق كل السـلطات ، فإذا كانت انجلترا التى ضمتها نورمانديا ، قد تمـــيزت فى تلك الفترة بالضعف ، فإن ذلك ليس كافيا لفهم هذا الحدث ، وإنما يجب أن يؤخذ فى الاعتبار قوة نورمانديا وحسن تنظيمها (٣) .

ويعتبر الحدث الرئيسى فى التاريخ النورمانى ، بعد قدوم الشماليين هو غزو النورمان لإنجلترا ، وكما أن العـلاقات مع الشمال كانت أهم مـلامح القرن العاشر بالنسبة لنورمانديا ، فإن العلاقات مع انجلـترا المفتوحة هى أبرز مـلامح القرن الحادى عشر ، ونقطة التحول فى هذا هو الفتح الذى حدث منه ١٠٦٦ م على يـد

(1) Schjoth : op. cit. p. 3552

(2) Ibid : pp. 3550–3

(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

وليم ، الذى عرف بعد ذلك بوليم الفاتح (١) . وكان وليم حفيدا للدوق الرابع من أدواق نورمانديا «ريتشارد الطيب» وابنا لدوقها الخامس «روبرت العظيم» الذى توفى بآسيا الصغرى سنة ١٠٣٥م أثناء عودته من الحج إلى بيت المقدس ، كما سبقت الإشارة ، وكان روبرت والد وليم معاصرا للملك انجلترا الكبير كانوت Canute (٢) ، وحظى روبرت بشهرة ذائعة فى أوروبا قاطبة فى أوائل القرن الحادى عشر ، حتى أنه أعطى نورمانديا فترة ازدهار ورخاء وعصر عظمة وقوة فى ذلك الوقت (٣) ، ومن بعده نال ابنه وليم شهرة بزت شهرة أدواق نورمانديا جميعا .

والواقع أن وليم لم يكن فاتحا وقاهرا فى ميدان الحرب فحسب ، بل كان أيضا حاكما عظيما ، سواء اتخذنا مقدرته على الحكم معيارا لذلك أم اتخذنا نتائج منجزات عصره معيارا لذلك ، فليس هناك حاكم كان له مثل هذا الأثر العميق فى التاريخ الإنجليزى (٤) ، ويصفه ادوارد فريمان بأنه كان مجدد نورمانديا وفاتح انجلترا ، الذى يحق له أن يوضع فى المرتبة الأولى بين عظماء الرجال فى العالم» (٥). والحقيقة أن وليم كان قائدا قديرا ، كما كان داهية فى الحرب ، مثلما كان دبلوماسيا بارعا وحاكما محبوبا من رعاياه وأتباعه ، ورجل دولة يمتاز على الرغم

---

(1) Haskins : op. cit. p. 52

(2) Trevelyan : op. cit. p. 98

(3) Haskins : op. cit. pp. 52–3

(4) Schjeth : op. cit. pp. 3550–3

(5) Edward A. Freeman : Hist. of the Norman Conquest. II pp. 164–7

مما شابه كل ذلك من بعض القسوة والحزم والارادة العنيدة التى لا تلين (١) . ومن صفاته التى أوردتها ملحمة من القرن الحادى عشر ، يتضح أن وليم الفاتح أظهر كثيرا من آيات التقوى والورع ، إذ أسس ديرا عظيما فى الموضع الذى تم له فيه فتح انجلترا ، وأقام به رهبانا وجعله فى غاية الثراء ، كما جرى من عهده بناء دير كانتبرى الشهير ، وكثيراً من الأديرة غيره فى أنحاء مختلفة من انجلترا ، وفوق ذلك ملئت إنجلترا بالرهبان ، (٢) . وبلغ من شدة هيبة وليم فى انجلترا أن ضرب على أيدى العابثين واللصوص وأقر الأمور بانجلترا حتى غدا بوسع أى شخص أن يسافر على طول المملكة وعرضها محملا بالذهب ، دون أن يتعرض للأذى أو يزعجه أحد فى رحلته ، ولم يكن أحـــد يجرؤ على قتل آخر مهما كان حجم الضرر الذى تعرض له من قبله ، وبسط وليم سيطرته على جهات كثيرة فى انجلترا : فحوى بريتانى (٣) ، أرض البريتون Briton وشيد بها القلاع وضم إليه جزيرة مان Man ، وخضعت له اسكتلندا ، بالاضافة إلى دوقية نورمانديا ، وإقليم ماين Maine فى غالة (٤) ، لكنه قرن كل تلك الأعمال العظيمة بشيء من العسف وحب المصادرة ، وأظهر ميلا للاستيلاء على الأموال وتمها وجمعها عظيما فى هذه الناحية ، حتى اشتكى الأغنياء وتذمر الفقـــراء ، ولكنه لم يحفل بأحد منهم (٥) ، وفى النهاية توفى وليم الفاتح ولم يكن قد تعدى الستين سنة من عمره ،

(1) Freeman : op. cit. II. p. 166
(2) " translated by giles [London 1847] pp. 461–3
Haskins : op. cit, pp. 56–8
(3) Mahrenholtz : op. cit, p. 3769
(4) Haskins : op. cit. pp. 56–7
(5) Cantor : op. cit. p. 257

بعد أن حكم انجلترا بعد فتحها قرابة عشرين عاما .

هذا ويجب أن ندرك أن نجاح النورمان فى فتح انجـــلترا لم يكن بسبب ضعف انجلترا بقـدر ما كان بسبب قوة نورمانديا ، التى غـدت قرب منتصف القرن الحادى عشر، أقوى من أى من جاراتها فى القارة الأوربية ، بل أقوى من ملكيتها الفرنسية ذاتها (١) ، وكان لابد لنورمانديا أن تتوسع جهة الغرب وتتجه نحو انجـــلترا بالذات ، وتشير الدلائل إلى أن وليم العظيم بدأ يهتم بشئون انجلترا ابتداء من سنة ١٠٥٠م وتطلع الى حيازة التـاج الإنجـليزى منذ ذلك الوقت (٢) ، بسبب التشابه الدائم بين كل من نورمانديا وإنجـلترا واستيـلاء العنصر الشمالى على مقاليد السلطة فى كل ، فضلا عن التقارب بين البلدين فى كثير من المجالات لاسيما فى النواحى التجارية ، بالإضافة إلى حدوث مصاهرات سياسية بين الأسرتين الحاكمتين فى كل منها إبان القـــرن العاشر (٣) ، إذ تزوج الملك الإنجليزى إيـلرد Ethelred من إما Emma أخت دوق نورمانديا وتربى ابنها ادوارد المعترف The Confessor فى البـلاط النورمانى ، حتى أصبحت عاداته وعواطفه نورمانية أكثر منها إنجليزية(٤) ،وحين اعتلى العرش الانجليزى ادوارد سنة ١٠٤٢م فتح الطريق لنمو سريع المؤثرات النورمانية فى الكنيسة والدولة معا ، الأمر الذى اعتبره المؤرخ فريمان البدايات الحقيقية للغـــزو النورمانى لإنجـلترا (٥) ، وحيث أن ادوارد المعترف توفى سنة ١٠٦٦م دون

(1) Schjeth : op. cit. pp. 3550–3
(2) Cantor ; op. cit. p. 257
(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846
(4) Trevelyan ; op. cit. p. 107
(5) Freeman : Norman Conquest, II. p. 166
Haskins : op. cit. p. 73

عقب ، فقد اقتربت هذه الحقبة فصلا من نهايتها ، اذ تنازع على العرش بعده اثنان : أحدهما هارولد بن جودوين Godwin أكثر ايرلات انجلترا قوة (١) ، والآخر وليم ،وكان هارولد قد أحجم عن تقديم أى مطلب بوراثة العرش قبيل وفاة إدوارد حتى يبدو أنه حصل على تأييد الملك قبل وفاته ، فضلا عن أنه جمع إلى جانب ذلك بين قوة البأس والظهور بمظهر الرجل الأول أو القائد الأول فى المملكة،أما وليم فبوصفه ابن خال الملك المتوفى فقد دعم مطلبه فى العرش بالاستشهاد بنص مبكر أو تصريح نسبه إلى إدوارد بأنه الوريث الشرعى الوحيـــد لعرش انجلترا (٢) ، فضلا عن استشهاده بقسم أو يمين قال إنه استخلصه من هـارولد ، ولقد مكنت هذه المناورة الأخيرة وليم من أن يظهر كمحارب ضـــد من نقض العهود وتنكر للوعود، ومنحته هذه المناورة ميزات كثيرة وتتطلع إلى معـونة البابا ألكسندر الثانى الذى رفعت اليه القضية لدراستها (٣) .

وكان هارولد قد اختير ملكا بواسطة مجلس الحـكماء Witan ، عقب وفاة إدوارد مباشرة ،وبدا له أن ذلك كان إجراء قانونيا ينطوى على تأييد كبير(٤)، على الرغم من أن ذلك لايرتبط بفكرة قومية أو ولاء ذاتى ، لأن القومية لم تكن تعنى شيئا فى ذلك العهـد ، لاسيما بالنسبة لإنجلترا المجزأة المقسمة التى نالها شىء كبير من التخريب إبان الغزو الدانى ومن جراء النزعة الانفصالية الداخلية،فضلا

(1) Trevelyan : op. cit. p. 111
(2) Davis & Arthur : "England before the Norman Conquest" B. H. VII. p. 3846
(3) Haskins ; op. cit. p. 74
Gantor . op. cit. pp. 337-8
(4) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846

عن أن مفهوم «الأجنبي» كان لايزال غير واضح فى أذهان المعاصرين ، ولا زال عهد الملك كانوت ماثلا فى الأذهان ، يؤكد أن انجلترا لم تكن تخشى أن يلى عرشها ملك مولود فى الخارج (١). حقيقة كانت المنافسة بين هارولد ـ نصف الدانى ـ ووليم النورمانى تجرى كما لو كانت بسبب التعصب للقومية إلا أنها لم ترق مطلقا إلى مرتبة الكفاح القوى (٢). وكان وليم قد قضى الفترة بين وفاة ادوارد المعترف وتتويج هارولد أى من يناير سنة ١٠٦٦ إلى عبور القتال الإنجليزى فى سبتمبر سنة ١٠٦٦م فى الاستعدادات لغزو إنجلترا (٣) ، وإذ كانت هذه الحملة ضخمة لايمكن أن تنهض بها التزامات الخدمة الحربية من أفصال وليم ، فقد لجأ هذا إلى استثارة حماس النورمان وحبهم للمغامرة ، وبراعتهم فى استخدام الأسلحة ، ووعدهم بالأراضى الواسعة والغنائم الكثيرة ، ولم يجد غضاضة فى تسجيل أسماء فرسان من أجزاء أخرى من فرنسا من بريتانى وفلاندرز وبوتو Poitou ومغامرين أيضا من أسبانيا البعيدة وصقلية (٤) .

نزل النورمان فى أواخر سبتمبر سنة ١٠٦٦ ، على الساحل الإنجليزى عند بفنسى Pevensey ، وساروا إلى هاستنجز Hastings (٥) ، حيث التقوا فى ١٥ أكتوبر بفرق هارولد التى أنهكها النصر الكبير الذى حققته على النرويجيين عند قنطرة ستامفورد Stamford (٦) ، والتى كانت تحتل حينذاك تلا محصنا جيدا يبعد

---

(1) Haskins : op. cit. p. 74
(2) Canter : op. cit. p. 337
(3) Trevelyan : op cit. pp. 114-7
(4) Haskins : op. cit. p. 75
(5) Schjoth : op. cit. p. 3552
(6) Davis & Arthur : op. cit. p. 3840
Haskins : op. cit, p. 75

عن هاستنجز وإلى الداخل نحو ثمانية أميال على طريق لندن ، ووقف فى مقدمتهم الحراس المهرة House – Carles يحميهم حائط متين من دروعهم تدعمهم فرق الثينات thegns ، والفرق الأخرى المسلحة تسليحا جيدا ، ومن ورائهم وبجانبهم وقف المجندون من أبناء الريف مسلحين بالرماح والمراوات الحجرية وأسلحة الفلاحين ، وكان لديهم قليل من رماة السهام ، ولم يكن لديهم فرسان على الإطلاق ، إذ لم يكن الإنجليز حتى ذلك الوقت قد تعلموا أن يحاربوا وهم ركوب على الخيل أى أنهم لم يدخلوا فى جيوشهم نظام الفرسان (١) ، غير أن سفح التل كان محميا جيدا من هجمات خيالة النورمان ، أما الخطوط النورمانية فكانت تتكون أولا من رماة السهام ، ثم مشاة الجنود المسلحين بأسلحة ثقيلة ، ثم أخيرا الفرسان المدرعين ، وقد قدر بعض المؤرخين عدد جنود هذه الحملة النورمانية بما لا يقل عن اثنى عشر ألف جندى ، نصفهم على الأقل من الفرسان (٢) ، ويقوم تجمعهم الرئيسى حول وليم والعلم الذى تلقاه من البابا ، بعد أن كان وليم قد حصل على بركات البابا وتمنياته الطيبة لإتمام هذا المشروع (٣) .

وبعد هجوم تمهيدى قام به رماة السهام والمشاة النورمان تقدم الفرسان نحو الصفوف الإنجليزية ، إلا أنهم سرعان ما ارتدوا عن التل بسبب عنف المقاومة يتبعهم جموع من الإنجليز ، غير أن وليم برز عارى الرأس ليراه جنوده ، فأحدثت

---

(1) Cantor ; op. cit. p. 336

(2) Oman ; England before the Conquest, p. 641
Round ; Feudal England p. 265, pp. 289–92
Trevelyan : op. cit. p. 115

(3) Davis & Arthur ; op. cit. p. 3845

رؤيته أثرا فى نفوس الجند فالتأم صدعهم واتحـــدت جموعهم (١) ، وحيث أن الكتل الانجليزية كانت تقف صامدة خلف حائطها المدرع ، فلم يكن هناك سبيل إلى كسر هذا الخط سوى خدعة الهروب المصطنع أو التظاهر بالانهزام ، حيث يعود الجنود النورمان بسرعة ليحيطوا بجموع الإنجليز فى أثرهم ويجزءونهم إلى جماعات صغيرة ، فى الوقت الذى أحـــدثت سهام النورمان الثغرات فى الحراس الإنجليز House carles ،ونفذ من هذه الثغرات فرسان النورمان صوب حرس الملك المسلحين بفئوس الحرب ، ولم يلبث أن اشتد وطيس القتال وأظلمت الدنيا فوق سماء المعركة وتكاثر القتلى (٢)، وجرح هارولد جرحا قاتلا بسهم من السهام، وانفل حرسه وتفرقت جموعه . وهكذا قررت هـذه المعركة مصير إنجلـــترا وقدرها ، واتخذ النورمان طريقهم مباشرة إلى لندن مقر حكم هارولد (٣) ، وتم إسكات جيوب المقاومة بعد ذلك، وتوج وليم ملكا على انجلترا يوم عيد الميلاد، فتم بذلك إلحاق انجلترا بنورمانديا (٤) .

وكان أبرز نتائج الفتح النورمانى بالنسبة لانجليترا ، أنه حـــول انجلترا جهة الجنوب وزج بها دفعة واحدة فى التيار الرئيسى للشئون الأوروبية والمشاكل السياسية لأوروبا ، والعلاقات الكنسية والتأثيرات الثقـافية ، بعـد أن كاد الغزو الدانى يفصل بينها وبين القارة ويشدها بعيدا إلى الشمال (٥) ، فضلا عن أن هـذا

---

(1) Haskins ; op. cit p. 79
(2) Trevelyan : op. cit. p. 117
(3) Davis & Arthur : op. cit. p. 3846
(4) Haskins ; op. cit. p. 82
(5) Trevelyan ; op. cit. p. 102
Haskins : op. cit. p. 82

الفتح ، جعل إنجلترا جزءا من فرنسا ومنحها لغة فرنسا وأدبها وفنها أيضا ، وأصبح قانونها إلى حد كبير قانونا فرنجيا ، وغدت مؤسساتها الاقطاعية أكثر نضوجا وكمالا ، مع أن الاتصال بينها وبين فرنسا جرى خلال نورماندیا،وحل إليها التأثير الفرنسى فى شكل نورمانى (١) ، ولاشك أن هـــذا التأثير برز فى الميادين التى تفوق فيها النورمان بصفة خاصة لاسيما فى مجال الحكومة ، والنظم الاقتصادية والاجتماعية ، إذ تطابق الإقطاع الانجليزى والإقطاع النورمانى(٢) ، كما أن الملكية النورمانية هى التى كان لها وزنها وأثرها، وهى التى حولت الدولة الانجلو - سكسونية المفككة إلى الأمة الإنجليزية . وهكذا لم تتحول انجلترا إلى دولة أوربية إلا بعد أن دفعت الثمن بجعلها بلدا نورمانيا (٣) .

ولقد اعتبر فتح انجلترا العمـــل التتويجى لتاريخ النورمانى ، حقيقة كان ذلك النجاح راجع فى أغلبه إلى حسن الحظ ،ولعدم وجود الأسطول الانجليزى ولتوفيق السياسة الفرنسية وللأخطاء التى وقع فيها الانجليز (٤) ، لكن لابد أن يؤخذ فى الاعتبار قوة وحسن تنظيم نورماندیا وشخصية قائدها وليم الذى كان دبلوماسيا ومحــاربا وقائدا قديرا ورجل دولة عظيما وبفضل نظمه وذكائه استطاع أن « يحول هزيمة الإنجليز إلى بداية صنع الأمة الإنجليزية » (٥) ولقد شاركه فى مواهبه وقدرته السياسية بارونانه النورمان إذ تعاون الجميع فى بناء

---

(1) Haskins : op. cit. p. 82

(2) Trevelyan : op. cit. p. I03

(3) Haskins : op. cit. p. 82

(4) Davis & Arthur : "The Norman period in England" in B. H. VII. p. 2857

(5) Haskins : op. cit. p. 83

الدولة فى إنجلترا ، وأمدتهم هذه التجربة الجديدة بحقل خصب لمزاولة قدراتهم السياسية ومهارتهم العظيمة فى الحكم ، وهى القدرات التى كانت قد ظهرت قبل ذلك بجلاء فى نورمانديا (١) .

ويفتح انجلترا على يد وليم العظيم يبدأ عهد جديد فى حياة النورمان ، وتبدأ مرحلة جديدة فى تاريخ نورمانديا ، إذا بدأ النورمان يؤسسون امبراطورية عظيمة توسعت فيما حولها وضمت انجلترا وأنحوا وبدأت حقبة جديدة فى تاريخ النورمان فى العصور الوسطى .

(I) Schjoth : op. cit. p. 3552

الفصل الثالث عشر

مملكة النورمان بجنوب إيطاليا وصقلية

تأسيس المملكة بجنوب إيطاليا - دور أبناء هوتفيل فى تأسيس المملكة - قدوم روبرت جويسكارد إلى إيطاليا - جويسكارد يرسى دعائم حكم النورمان هناك - موقف البابوية من نشاط النورمان - توقيع اتفاقية بين البابوية والنورمان - النورمان وجزيرة صقلية - أحوال الجزيرة حتى الغزو النورمانى لها - الغزو النورمانى لصقلية - سقوط بالرم فى أيدى النورمان - دور ابن عباد فى التصدى النورمان - مقتل ابن عباد واستسلام الجزيرة للنورمان - وفاة روجر الأول سنة ١١٠١م - عهد سيمون - روجر الثانى (١١٠٧ - ١١٥٤م) السنوات الأولى من حكمه - سياسته الداخلية - سياسته تجاه مسلمى مملكته - علاقاته الخارجية - وفاة روجر الثانى - السنوات الأخيرة من عهد مملكة الصقليتين.

كان للنورمان دور هام وخطير فى التاريخ الأوربى الوسيط ، وكان أثرهم واضحا فى جهات مختلفة من أوروبا ، ففى الوقت الذى لعبت فيه نورمانديا دورا بارزا فى غرب أوروبا ، وأخذت تتطلع إلى تكوين إمبراطورية نورمانية تضم إنجلترا وأجزاء أخرى من غالة كأنجو وماين وبريتانى (١)، اتجه بعض

---

(1) Haskins : op. cit. pp. 61-3

النورمان إلى نقل نشاطهم إلى جنوب إيطاليا وصقلية لتكوين مملكة نورمانية جديدة فى تلك الجهات .

وكانت إيطاليا تتنازعها عدة قوى منذ أواخر القرن الحادى عشر ، من البيزنطيين واللمبارديين والامبراطورية الرومانية المقدسة ، فضلا عن البابوية التى حاولت تأكيد سيطرتها على أجزاء كثيرة من إيطاليا ، وتشبث المسلمون بسيطرتهم على بعض المعاقل فى الجنوب الغربى لإيطاليا (١)، وجزيرة صقلية برغم محاولات بيزنطة طردهم منها ، لاسيما وقد سقطت فى أيدى المسلمين مدينة سرقوسة عاصمة الجزيرة سنة ٨٧٨م (٢٦٣ هـ) (٢) ، وظلت بعض الدوقيات اللمباردية باقية فى جنوب إيطاليا فى بنفنتو وسالرنو وكابوا (٣). ولقد سهلت تلك الفوضى بجنوب إيطاليا النورمان عملية تأسيس مملكة لهم هناك ، وذلك حين استمان ميلز وهو مواطن من مدينة بارى Bari بأربعين حاجا نورمانيا نزلوا فى موقع جارجانو ، وهم فى طريق عودتهم من الأراضى المقدسة من الساحل الشرقى لإيطاليا حيث مزار القديس ميخائيل، القيام بثورة ضد السلطات البيزنطية مستغلا فرصة توغل المسلمين فى تلك الجهات (٤) ، ورحب هؤلاء الحجاج بمساعدته وحملوا معه جندا مرتزقة . وإذ تمكن ميلز من الانتصار على قوات بيزنطة بمعونتهم (٥) ، ذاعت شهرة النورمان كثيرا فى إيطاليا كمحاربين أشداء، وجنود لهم قوة بأس ومراس فحظوا برضاء البابوية وحازوا إعجابها .

---

(1) Cantor : Med. Hist. p. 164

(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 211

(3) Oman : The Dark ages, pp. 446–7, p. 450

(4) Hearder & Waley : Italy from the Classical times to the present days. p. 37

(5) La Monte : The world of the middle ages. p. 270

ولقد نقل هؤلاء الحجاج إلى ذويهم بعد عودتهم إلى نورمانديا ، صورة ماشهدوه بجنوب إيطاليا من فوضى واضطراب ، فهوى إلى جنوب إيطاليا كثير من النورمان للعمل كجند مرتزقة فى جيوش الأدواق والأمراء المتنازعين هناك ، وكان أبرز دور لعبوه حينذاك، انحيازهم إلى جانب دوق نابلى «سرجيوس» سنة ١٠٣٠م ضد الأمير اللمباردى فى كابوا (١) ، الأمر الذى جعل دوق نابلى يكافىء زعيم النورمان «راءولف» بمنحه قطعة أرض غنية كانت تسمى أرض اللافا Terra di Lava ليقيم بها مع قومه إقامة دائمة ، وفى تلك المنطقة أسس النورمان مدينة أفرسا Aversa سنة ١٠٣٠م، وهى التى غدت أول مركز دائم لهم فى جنوب إيطاليا ونقطة انطلاق نحو تأسيس مملكة جديدة (٢) . وطوال النصف الأول من القرن الحادى عشر أخذ النورمان يتكاثرون بجنوب إيطاليا، ويتركزون فى البقعة التى منحت لهم (٣) ، وفى مدينة أفرسا ، واشتهر من زعمائهم فى ذلك الوقت ثلاثة من الإخوة من أسرة «هوتفيل» Hauteville هم وليم وهمفرى ودروجو ، وهم من بين اثنى عشر ولداً لتانكرد هوتفيل ، وكان روبرت جويسكارد الابن السادس من بينهم (٤) ، ونال أبناء هوتفيل شهرة ذائعة، بفضل شجاعتهم ومهارتهم فى القتال وحبهم للمغامرة وشدة بأسهم ، ولهذا استعان بهم البيزنطيون فى محاولتهم سنة ١٠٣٨م لطرد المسلمين من جزيرة صقلية (٥) ، لاسيما وقد اضطربت أحوالها واختلف المسلمون فيها وترددوا بين الولاء للفاطميين أو الولاء للزيريين بشمال إفريقية، ولقد ترتب على ازدياد نفوذ النورمان حينذاك، وضعف

---

(1) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 169
(2) Hearder & Waley : op. cit, p. 37
(3) Camb. Med. Hist. V. III, p. 268
(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 37
(5) Camb . Med. Hist. V. 5, p. 118

سلطة بيزنطة ، أن غدا وليم هوتفيل ـ أحد الإخوة الثلاثة ـ أميرا على النورمان فى أبوليا سنة ١٠٤٢م ، فاتخذ ملفى Melfi مركزا له ، وبعد وفاته سنة ١٠٤٦ نصب أخوه دروجو أميرا على أبوليا (١) .

ومالبث أن قدم إلى جنوب إيطاليا قائد نورمانى آخر من أسرة هوتفيل أيضا هو روبرت جويسكارد ، وكان أحد أبناء هوتفيل من زوجة ثانية ، أى أنه لم يكن أخا شقيقا لوليم وهمفرى ودروجو ، وكان وصوله إلى جنوب إيطاليا فى أوائل سنة ١٠٤٦م ، غير أن إخوته غير الأشقاء لم يرحبوا به ، ولم يعطوه سوى قطعة صغيرة من الأرض لم تكن لترضى طموحه (٢) ، ولهذا تحتم عليه أن يعتمد على نفسه لتحقيق أهدافه ، فلجأ إلى استعمال القسوة وممارسة النهب والسلب هو وعصابته ، ففرض نفسه على جموع النورمان بجنوب إيطاليا ، ثم عقدت له الزعامة على جميـــع أقرانه سنة ١٠٥٧م ، ثم أصبح دوقا لمقاطعة أبوليا (٣) ، وجرى الاعتراف به من قبل البابا ، إذ أقر له بحكم دوقيات أبوليا وقلوريا وصقلية ، إذا تمكن من فتحها مقابل تأدية مبلغ من المال ، وذاعت شهرة روبرت جويسكارد كقائد حربى ماهر وسياسى بارع ، على الرغم مما اتصف به من قسوة وتعسف ، وعدم احترام العهد ، وقيامه بأى عمل فى سبيل الوصول إلى أهدافه (٤). ولقد وضع روبرت نصب عينيه تصفية بقايا النفـــوذ البيزنطى بجنوب إيطاليا والحصول النورمان على إمرة البلاد ، بل إنه تجرأ وهاجم القسطنطينية نفسها سنة ١٠٧١ م والصقالبة القاطنين على سواحل البحر الأسود ، وربما بتشجيع من البابوية ، التى

---

(1) Haskins ; op. cit. p. 201

(2) Ibid. p. 201

(3) Keen ; A Hist. of Med. Europe. p. 69

(4) Hearder & Waley : op. cit, p. 37

باركر من قبل حروب النورمان ضد المسلمين بأسبانيا (١) .

ولقد دأب النورمان حتى قبل عقـــد الزعامة لروبرت جويسكارد على العبث بجنوب إيطاليا والقيام بأعمال تتسم بالعنف والغدر والقسوة ، فأحدثوا كثيراً من الخراب والدمار في تلك البقاع ، وتسببوا في ازدياد استياء البابوية وحنقها عليهم ، فضلا عن أنهم أخذوا يحاربون مرة فى صف القوات البيزنطية ومرة مع الأمراء اللمبارديين ، وذلك فى سبيل تحقيق مطامعهم والقضاء على القوى المتنازعة ليصفوا لهم الجو ، فيتم لهم التهام جنوب إيطاليا دون غيرهم (٢) . وكان من مظاهر استياء البابوية وحنقها على النورمان أن أقدم البابا ليو التاسع على إرسال جيش لمحاربتهم سنة ١٠٥٣م لوضع حد لعبثهم بالجنوب ، غير أن النورمان نجحوا فى إلحاق هزيمة ساحقة بهذا الجيش فى Civitate ، بل وقع البابا نفسه فى يد النورمان أسيرا (٣) ، ولكنهم أظهروا كثيراً من الاحترام لذلك البابا وسارعوا بإطلاق سراحه ، فأكدوا بذلك عميق تدينهم ومبلغ ورعهم ، فى الوقت الذى واصلوا فيه مشروعاتهم العدوانية فى الجنوب ، دون أن يتتبعوا فـــلول جيش البابوية أو يحاولون إنزال ضربات أخرى بالبابوية (٤) ، وتشجع روبرت جويسكارد وغزا كالابريا كلهـــا تقريبا سنة ١٠٥٧م . وهكذا أثبت النورمان فى Civitate أنهم قوة لا يستهان بها فى جنوب إيطاليا ومن العبث التفكير فى طردهم منها (٥) .

---

(١) باركر ، الحروب الصليبية ترجمة د. العريني ص ١٦ ؛
Ostrogorsky : op. cit. p. 334
عبد المنعم ماجد ، العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٢١

(2) Cantor : Med. Hist. pp. 280-I

(3) Denis Mack Smith : A Hist. of Sicily, Med. Sicily p. 13

(4) Hearder & Waley : op. cit. pp. 37

(5) Grant : op. cit. p. 106

على أن البابا نيقولا الثانى (١٠٥٨ - ١٠٦١م) ؛ كان أكثر واقعية فى تعامله مع النورمان ، إذ تأكد أنه من الأوفق مهادنتهم ، والاستفادة من وجـــودهم بجنوب إيطاليا ، لإقرار الأمـــور هناك واتخاذهم حلفاء ، خاصة وقد تكاثرت أطماع القوى المختلفة فى أملاك البابوية ، وتكالب الأباطرة على محاولة الحد من نفـوذها بإيطاليا(١) ، كما يبدو أن الكردينال هلدبراند الذى صار بابا فيما بعد تحت اسم جريجورى السابع (١٠٧٣-١٠٨٥م) لعب دورا بارزا فى عقد تلك الصفقة الرابحة مع النورمان ، إذ انتقل إلى كابوا بنفسه سنة ١٠٥٩م ، وتفاهم مع النورمان فى عقد تلك الاتفاقية ، ثم مالبث أن وقـع الاتفاق معهم نهائيـا فى ملفى ، وفيه جرى الاعتراف بشرعية حكم النورمان لجنوب إيطاليا نظير اعترافهم بالتبعية البابوية ودفع مبلغ من المال لها والتعهد بمساعدتها حربيا إذا تعرضت لخطر(٢). والواقع أن هذه الاتفاقية كانت نقطة انطلاق النورمان بجنوب إيطاليا إذ برزت دوقية أبوليا النورمانية ، التى غدت الخطـوة الأولى فى تأسيس مملـكة نابولى ، وترتب على هذه الخطوة التمهيد لفصل جنوب إيطاليا عن شمالها والاستئثار بحكم هذه الجهات ، وطرد البيزنطيين منها (٣) ، والتطلع إلى فتح صقلية ، وتكوين إمبراطورية صغيرة تضم جنوب إيطاليا وصقلية ، وقد أمكن فعلا طرد البيزنطيين من مدينة بارى بعد حصار امتد نحو ثلاث سنوات ، ليتخلص النورمان من إحدى القوى التى نازعتهم السيادة فى تلك الجهات سنة ١٠٧١م (٤) . وإذا كانت البابوية قد وجدت فى النورمان حليفا قويا لجأت اليه حينما ساءت الأمور بينها

---

(1) Haskins : op. cit. p. 202

(2) Hearder & Waley : op. cit. pp. 37-8

(3) Camb. Med. Hist. V. 5, pp. 170-80

(4) Ostrogorsky : op. cit p. 305

وبين الإمبراطورية ، فإنها سرعان ما تنبهت إلى خطـــورة نشاط النورمان فى الجنوب لاسيما بعد أن استولوا على كل جهات جنوب إيطاليا وصفوا الجيوب الداخلة فى نطاق ممكتهم وطردوا البيزنطيين منها وحووا دوقية بنفنتو ، التى كانت تتبع البابوية (١).

ولقد حاول البابا جريجورى السابع أن يتدارك ذلك الخطر ويحد من نفوذ النورمان فى الجنوب عن طريق الاستعانة بحليف آخر هو وليم كونت برجنديا، إلا أن هذه المحاولة لم تثمر ، ولم يحفل روبرت جويسكارد بذلك ، بل مضى فى خططه فى الجنوب فغزا سالرنو وأمالفى ضاربا عرض الحائط بما أظهره البابا من تبرم واستياء(٢) ، وما لبث أن اشتد صراع البابا مع الامبراطور حول حركة الإصلاح ونظرية التفوق والسمو ، فآثر البابا تسوية مشاكله مع النورمان وتطلع إلى مساعدتهم ضد الإمبراطورية (٣)، فأقر روبرت جويسكارد على مابيده من أملاك سنة ١٠٨٠م وتطلع إلى قيام النورمان بمساعدته ضد خطر الامبراطورية ولهذا مضت خطط النورمان فى طريقها المرســوم لابتلاع المنطقة كلها وتثبيت أقدامهم فيها(٤) . وبتصفية الوجود البيزنطى وابتلاع الجيوب الداخلة فى أملاك النورمان فى جنوب إيطاليا ، وفتح جـزيرة صقلية يوشك النورمان أن يحققوا مشروعهم لإقامة مملكة ثابتة لهم بتلك الجهات . فعنـد وفاة روبرت جـويسكارد سنة ١٠٨٥م ووفاة البابا جريجورى السابع فى نفس العام ، انقضت مرحلة هامة من تاريخ النورمان بجنوب إيطاليا جرى فيها تأسيس المملكة ، إذ اتسمت تلك

(1) Oman : op. cit. p. 447
(2) Hearder & Waley : op. cit. p. 38
(3) Grant : op. cit. p. 180
(4) Camb : Med. Hist. V. 5 p. 182

المرحلة بالغزو والحرب فى سبيل تثبيت أقدام الغزاة توطئة لإقامة دولة ثابتة الأركان فى تلك البلاد (١) .

النورمان وجزيرة صقلية :

كان الأغالبة بشمال إفريقية قد وجهوا جيشا فى سنة ٨٢٧م (٢١٢هـ) لفتح جزيرة صقلية ، ومحاولة ربطها بشمال إفريقية ، وفصل ارتباطها بجنوب إيطاليا والقارة الأوربية ، ونجح الجيش الإسلامى بقيادة أسد بن الفرات فى الاستيلاء على بعض معاقل الجزيرة ومدنها ودخل المسلمون بالرم سنة ٨٣١م (٢١٦هـ) (٢) ،ولم يحفل المسلمون بمقاومة بطريق صقلية وما كان يتلقاه من نجدات من بيزنطة ، إذ سقطت فى أيدى المسلمين مسينه (مسينى) سنة ٨٤٣م ، ففتحت أمامهم الطريق إلى جنوب إيطاليا(٣) ، ثم استولى المسلمون على قصريانة سنة ٨٥٩م (٢٤١هـ)وكانت تمثل الركن الثانى من أركان المقاومة ، وسلمت لهم نوطس واستأمنت وغوس ، ثم بعد عشرين سنة من سقوط قصريانة جاء دور الركن الثالث من أركان المقاومة وهو مدينة سرقوسة ، عاصمة الجزيرة وأهم مدنها والتى حظيت باهتمام البيزنطيين للدفاع عنها (٤) ، والتى ظلت تقاوم المسلمين أكثر من خمسين عاما حتى نجح الوالى الإسلامى جعفر بن محمد فى حصارها لمدة تسعة أشهر حتى عدمت الأقوات فيها ووهنت عزيمتها ، وفشلت محاولات الروم لنجدتها ودخلها المسلمون سنة ٨٧٨م (٢٦٣هـ)) (٥) ، غير أنه لازال جزء من القسم الشرقى بالجزيرة وهو

---

(1) Ostrogorsky : op. cit. p. 302, p. 305
(2) Ostrogorsky : op. cit. p. 185
(3) Pirenne ; op. cit. p. 158
(4) Oman : op. cit. p. 449
(5) Pirenne : op. cit. p. 158

أقرب أجزائها إلى الروم يقاوم المحاولات الإسلامية ، ولم تستسلم قطامية وطبرمين وغيرها من المدن الشرقية ، الأمر الذى دفع إبراهيم بن الأغلب إلى الخروج بنفسه سنة ٩٠٢م (٢٨٩هـ) الى الجزيرة ففتح طبرمين (١) ، ولكن عاجلته منيته فحالت بينه وبين تكملة فتح بقية جيوب المقاومة ، ولم تلبث أن تبدلت الظروف فى شمال إفريقية وبرزت الدولة الفاطمية فى أواخر القرن الثالث الهجرى ، وحاول ولاة الفاطميين فى الجزيرة إكمال فتح الجزء الشرقى دون جدوى ،وظلت بعض جيوب المقاومة باقية ، إلى أواخر عهد المسلمين بالجزيرة ، إذ قنع المسلمون بما كانت تؤديه تلك الجيوب من الجزية ، ووجهوا همهم إلى فتح سواحل إيطاليا الجنوبية (٢) ، وعلى كل حال كان استيلاء المسلمين على جزيرة صقلية تأمينا للبحرية الاسلامية وضماناً لحرية الملاحة الاسلامية ووضعا لبداية السيادة الاسلامية على ذلك البحر (٣) .

انتقلت السيادة على جزيرة صقلية إذن إلى الفاطميين ، بعد قيام دولتهم بشمال إفريقية ثم دخلت صقلية تحت حكم بنى الحسين الكلبيين ، الذين كان أولهم ـ الحسن ابن على الكلبى ـ موفدا من قبل الخليفة المنصور الفاطمى سنة ٩٤٧م (٣٣٦هـ)، وتعاقب على حكمها بعده عشرة ولاة على مدى خمس وتسعين سنة ، شهدت فى أثنائها تقدما وازدهارا فى كافة الجوانب(٤) ، كما شهدت جهادا مستمرا فى جنوب إيطاليا ، وأخلدت صقلية إلى الهدوء واستتب الأمر لبنى الحسين الكلبيين ، الذين

(I) Ostrogorsky : op. cit. p. 228

(2) Oman : op. cit. p. 450

(3) Marcais : La Berberie Musulmane et L'Orient ou meyen ages. p. 215 (Paris 1946).

(4) Hearder & Waley : op. cit. p. 34

اعتبروا أنفسهم مستقلين استقلالا داخليا فى شئون الجزيرة ، وساعدهم على ذلك ما حدث من انتقال الخلافة الفاطمية إلى مصر وانشغالها بمشروعات أهم وأعظم ، إذ قنع الفاطميون من ولاة صقلية بالطاعة والتبعية الإسمية ، غير أن بنى الحسين الكلبيين مالوا فى النهـــاية وبعد ضعف الفاطميين إلى الدخول فى طاعة الزيريين بشمال إفريقيـة ، وترددوا فى سياستهم بين هؤلاء وأولئك ، ثم برزت بعد ذلك حقبة جديدة فى تاريخ صقلية ، وهى فترة أشبه بفترة ملوك الطوائف بالأندلس ، إذ استقل كل أمير بناحية من نواحى الجزيرة ، وتعدد حكام الجزيرة وتضاربت مصالحهم واستشرت الفتن بينهم (١) ، حتى لجأ أحدهم وهو ابن الثمنة الذى كان يحكم سرقوسة وبعض المدن الأخرى ،والذى تلقب بالقادر بالله، وأصبح يعرف بصاحب صقلية ، إلى النورمان يستعين بهم ضد ملك آخر وذلك سنة ١٠٥٢م (٤٤٤هـ) ، ويقال إنه فعل ذلك بسبب امتناع الخليفة الفاطمى المستنصر عن مده بالمال نظرا لما كانت تعانيه مصر حينذاك من ضيق مالى شديد ، أو بسبب تنازعه مع وال آخر وتنافسهما على حب امرأة ، فطلب ابن الثمنة العون من روجر (٢). ويبدو أن أهل صقلية المسيحيين انتهزوا فرصة الاضطراب والانقسام بين أمراء النواحى ، وقادوا المقاومة من مسينى واستعانوا بزعيم النورمان روجر الأول ، الذى كان يتحفز للانقضاض على الجزيرة رغبة فى تصفية نفوذ المسلمين فيها،نظرا لقربها من أملاكه بجنوب إيطاليا .(٣)

وكان روجر الأول هذا أصغر الإخوة من أسرة هوتفيل ، وكان قد وصل إلى جنوب إيطاليا قبل أخيه روبرت جويسكارد ،وتلقى جويسكارد بالترحاب

(1) Brenard Lewis : The Arabs in History. p. 118

(٢) عبد المنعم ماجد : العلاقات بين الشرق والغرب ص ١٢٣

(3) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 176

حين وصل هـــذا إلى جنوب إيطاليا ، وأمده بقوات كافية لتحقيق أغراضه ، ونصحه بالتوجه إلى كالابريا ، فنجح جويسكارد في الاستحواذ على أراضي واسعة هناك (١). وترتب على هـذا الدلاع نزاع بين الاثنين بسبب رفض جويسكارد التنازل عن بعض الأراضي التي كان يطمع فيها روجر، واندلع صراع مسلح بينهما، انتصر فيه روجر ، وتم عقد صلح بينهما . ويبدوا أن روجر لم يكن قانعا بما تم له الاستيلاء عليه من أراض في جنوب إيطـــاليا ، لهذا اتجه بفكره إلى صقلية لفتحها(٢) ، واتخاذها مركزا لمملكة نورمانية لاسيا وأنها تتميز بوفرة خيراتهـا وثرواتها الطبيعية، على حين طمع روبرت جويسكارد أيضا في ضمها إلى أملاكه في أبوليا وقلوريا (٣) وكان لابد للاثنين أن يتحدا لانجـــاز ذلك المشروع الكبير ، على الرغم من اختلاف هدف كل منهما وطمع كل منهما في الاستحواذ على الجزيرة لنفسه دون الآخر ، وإن تسبب ذلك في حدوث سوء الفهم بينهما إبان مرحلة الفتح نفسه (٤).

بادر النورمان بغزو الجـــزيرة عن طريق مسيني ، التي استولوا عليها سنة ١٠٦١م ، واتخذوها قاعدة حربية لهم(٥) ،وفي تلك الأثناء لم يحرك الفاطميون ساكنا لانقاذ الجزيرة على حين تحرك المعز بن باديس وأرسل أسطولا كبيراً تألف على قول الروايات من نحو أربعمائة سفينة ، غير أن عاصفة فاجأت ذلك الأسطول فأغرقته ، قبل أن يفعل شيئا لإنقاذ الجزيرة ، وتصادف أنه اختلف

(1) Keen : op. cit. p. 69, Smith : op. cit. p. 13
(2) Curtis : Roger of Sicily. p. 62
(3) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 174
(4) Smith : op. cit p. 13
(5) Keen : op. cit. p. 69

زعماء النورمان فى صقلية ، وروبرت مع أخيه روجر المعروف بروجر الأول (١) بسبب تقسيم الغنائم ، لكنهما عادا إلى الاتفاق وشرعا فى المضى فى خططهما ؛ وبعد ولاية تميم بن المعز بن باديس ، قام بإرسال أسطول آخر إلى الجزيرة على رأسه ابناه على وأيوب، إلا أن الفتن بين المسلمين أنفسهم حالت دون قيامهم بعمل حاسم ضد النورمان ، وانتهت هذه الجـــولة بهزيمة ابنى تميم عند مكان يسمى مسلمرى Misilmeri بالقرب من بالرم ، على يد النورمان فأجبرا على العودة إلى إفريقية سنة ١٠٦٨م (٤٦١ هـ) ، دون أن يحققا شيئا (٢) ، وقد ترتب على هذه الهزيمة أن اضطرب أمر المسلمين بالجزيرة ، وافتقدوا القيادة الحكيمة التى يمكنها توحيد الجهود والتصدى للنورمان ، فى الوقت الذى تلقى فيه هؤلاء معونة بحرية من بيزا ، ونهضوا لاحتـــلال بالرم لأهمية موقعها ولثرائها وعظمتها (٣)، وكان روبرت جويسكارد قد جمع نحو خمسين سفينة بعضها من بارى وأبوليا ، وألقى الحصار عليها من جهة البحر ، على حين تقدم روجر برا بجيش بلغ ثمانية عشر ألف جندى ، وقد أحاطت السفن الحربية بميناء المدينة من ناحية على حين أحاط بها الجيش البرى من ناحية أخرى ، ومع هـــذا ظلت المدينة صامدة مدة خمسة أشهــــر ، وأظهر سكانها قوة مراس ورباطة جأش ، حتى أنهم أبوا أن يغلقوا أبواب مدينتهم ، إفراطا فى الثقة بالنفس ، إلا أن قلة الأقوات وانتشار المجاعة والأوبئة فت فى عضد السكان فى الوقت ، الذى شدد الأسطول الحصار على المدينة، فانهارت المقاومة(٤) ،ودخل النورمان الخالصة وأحدثوا فيها مذابح بشرية رهيبة،

(1) Hearder & Waley : op. cit, p. 38

(٢) إحسان عباس : العرب فى صقلية ص ١٣٠

(3) Haskins : op. cit. p. 208

(4) Smith : op. cit. pp. 14–15

وسبوا الأطفال لبيعهم كرقيق ، ووقع النهب والقتل وأصيبت الخالصة بأضرار فادحة، ثم ما لبث الجـــزء القـديم من المدينة أن سقط فى أيدى النورمان بعد الخالصة ، وحول روجر المسجد فيه إلى كنيسة ، وسمح لفرسانه بالعبث فيه ، وإحداث كثير من الخراب والدمار والقتل والأسر للسكان ، وذلك سنة ١٠٧٢ (٤٦٤هـ) ، وما لبثت بالرم أن تحولت إلى قاعدة حربية نورمانية،وأنعم روبرت جويسكارد على أخيه روجر بلقب كونت صقلية (١) .

وتوغل النورمان فى صقلية دون مقاومة تذكر ، فسلمت لهم مازر بعد أن حووا بالرم عاصمة الكلبيين ، وملكوا مسينى وقطانية ، وظلوا بعد ذلك نحـــو عشرين سنة يكملون فتح الجزيرة، فسقطت فى أيديهم طرمين سنة ١٠٧٩(٤٧٢هـ)، وبذلك يكونون قد أحاطوا بمـا تبقى للأمـراء المسلمين من أملاك فى سرقوسة وطرابنش وجرجنت وقصريانة (٢) ، أى أن الدور الأول من الفتـح النورمانى كان قد انتهى باحتوائهم على بالرم ليبدأ الدور الثانى ، وهو الذى امتـــد نحو عشرين عاما (٣) .وكان ابن عباد فى سرقوسة أشهر من تصدى للنورمان ،ونظم المقاومة لهم فى ولاية نوطس فى البر والبحر ، حتى حاز الرجل إعجاب النورمان أنفسهم ، وأثنى عليه مؤرخ هـذه الحقبة النورمانى ووصفه بالشجـاعة والمهارة والجرأة والدهاء فى القيادة (٤) ، الأمر الذى اضطر معـه روجر إلى الانصراف عن ابن عباد وسرقوسة ووجه همه إلى احتلال مدينة طرابنش ، فنجح فى ذلك

---

(1) Curtis : op. cit. p. 69

(2) Haskins : op cit. p. 209

(٣) احسان عباس : العرب فى صقلية ص ١٣٢–١٣٣ ،
Grant : op. cit. pp. 166-7

(٤) احسان عباس : نفسه ص ١٣٢

بمعاونة أسطول بحرى كان قد شيده وسقطت تلك المدينة بيده سنة ١٠٧٧م وجرى هدم أسوارها وتوزيع أراضيها على أتباعه النورمان (١)، ثم استولى روجر أيضاً على طبرمين بعد ذلك بعامين، ولم يبق بيد المسلمين سوى قليل من المدن، غير أن ابن عباد نجح فى حفظ ما بيده، فضلا عن أنه استقطب بعض الأمراء المسلمين الذين تعاونوا مع النورمان، ويقال أنه نجح فى استمالة حاكم قطانية الذى يظن أنه من أسرة ابن الثمنة، فسلم هذا المدينة إليه فقوى أمر ابن عباد بحيث أنه تجرأ فشن الهجوم على قلاع النورمان وأملاكهم وخرج عن سياسة الدفاع إلى الهجوم (٢)، وذلك سنة ١٠٨٤ م، ويبدو أن هذه الجرأة هى التى جعلت روجر يتجه من جديد إلى ابن عباد ويرسل ضده أسطولا كبيرا سنة ١٠٨٥م (٤٧٨هـ)، وتشير الروايات إلى أن ابن عباد أظهر صبرا عظيما وجلدا فى القتال، وأخذ يحارب النورمان فى البحر حربا ضارية، وعلى الرغم من أن سفنه أخذت تغرق واحدة بعد الأخرى وكلما غرقت به واحدة وثب منها إلى ثانية، فإنه سقط فى النهاية فى البحر بعد أن زلت قدمه (٣)، ومن شدة إعجاب روجر به أرسل جثته إلى الأمير تميم بإفريقية، وما لبث أن استسلمت سرقوسة للنورمان أواخر سنة ١٠٨٦ م، ثم سقطت جرجنت ولحقت بها قصريانة، ثم نوطس وبثيرة سنة ١٠٩١م (٤٨٤ هـ)، وبذلك انتهت عمليات الفتح النورمانى بحيث جاءت سنة ١٠٩١ حدا فاصلا بين عهدين فى تاريخ الجزيرة، العهد الإسلامى بها والحقبة النورمانية الجديدة. وفى عام ١١٠١م (٤٩٠هـ) توفى روجر الأول وهو

---

(١) نفس المرجع السابق ص ١٣٢،
Bernard Lewis : The Arabs in History, p. 118

(2) Curtis : op. cit. p. 100

(٣) احسان عباس : نفسه ص ١٣٢

فى السبعين من عمره وخلفه ابنه سيمون (١) .

كان روجر الأول قد تزوج ثلاث مرات خلال حياته ، وكانت زوجته الثالثة هى أديليد Adelaide التى تزوجها سنة ١٠٨٩م والتى أنجب منها ولدين هما : سيمون سنة ١٠٩٣م وروجر سنة ١٠٩٥م ، ولهذا اعتلى عرش صقلية بعده سيمون سنة ١١٠١م ، وكان فى الثامنة من عمره فتولت الوصاية عليه أمه أديليد (٢) ، وكانت هذه السيدة تتمتع بشخصية قوية ولها آمال واسعة ورغبة ملحة فى الحفاظ على المملكة لولديها ، وساعدها على القيام بمهامها أن روجر الأول كان قد ترك لها حكومة قوية فى الجزيرة ومملكة ثابتة القدم ، ومكنها طموحها الكبير من أن تقبض على مقاليد السلطة فى البلاد ، وأن تسير دفة الحكم بنجاح فى تلك الظروف الحرجة (٣) ، فنجحت فى الحفاظ على التآلف القائم بين عناصر السلطة والمهيمنين على الإدارة فى البلاد ، ولجأت إلى محاولة إضعاف البارونات ، وقضت على جانب كبير من معارضتهم وكسبت ود العاملين معها فى الحكومة ، ومنحت ثقتها اليونانيين منهم والمسلمين على حد سواء ، فساهمت فى استمرار التآلف والحفاظ على القوى الهامة فى الحكومة ، ثم أنها لجأت إلى استقطاب المسلمين وجلب رضائهم . فنقلت عاصمتها من مسينى إلى بالرم (٤) ، حيث أقامت بلاطها وسط السكان المسلمين ، على الرغم من بقاء الإدارة الحكومية أحيانا فى مسينى وأحيانا أخرى فى بالرم وظلت هذه السيدة تحكم من خلال وصايتها على

(1) Curtis : op. cit. p. 100
(2) Haskins : op. cit. p. 210
(3) Smith : op cit. p. 24
(4) Haskins : op. cit. p. 210

ابنها سيمون طوال السنوات الأربع التى عاشها هذا الصبى حتى وفاته سنة ١١٠٥م حين خلفه أخوه الأصغر روجر المعروف بروجر الثانى (١).

يعتبر روجر الثانى أشهر ملوك النورمان بصقلية وجنوب إيطاليا على الإطلاق، كما كان عهده أزهى عصور المملكة النورمانية وأبهاها دون جدال (٢)، وقد تولى روجر الثانى الحكم ولم يتعد الثانية عشرة من عمره، لهذا تولت أمه الوصاية عليه لفترة، وما لبث روجر أن أثبت أنه لا يقل كفاءة عن أسلافه مؤسسى المملكة، إن لم يفقهم فى ذلك كثيرا، وكان متأثرا بشخصية والده مؤثرا اتباع سياسته لاسيما فيما يتعلق بالتسامح مع الرعية (٣)؛ خاصة وقد وجد نفسه محاطا بحاشية وموظفين من البيزنطيين والمسلمين فى مسينى وبالرم، حيث كان أغلب سكان هذه الأخيرة من المسلمين (٤)، فنشأ روجر الثانى وسط ألفة طيبة من الأصدقاء البيزنطيين والمسلمين، وشب كارها لروح الارستقراطية النورمانية والنبلاء النورمان، خاصة وأنه كان نصف إيطالى من جهة أمه، وكان قد فقد كثيرا من سمات النورمان الأولى وحل فيه ميل إلى دمج عناصر شعبه، وتهيأ لقبول التسامح العنصرى، وبرزت فى صفاته وسجاياه مع ذلك كثير من سمات ومميزات أسرة هوتفيل النورمانية (٥).

انفرد روجر الثانى بالحكم عندما بلغ سن الرشد فى عام ١١١٢م ولاسيما

(1) Smith : op. cit. p. 24
(2) Grant : op. cit. p. 185
(3) Hearder & Waley : op. cit, p. 38
(4) Encyc. Br. p. 382
(5) Camb. Med. Hist, V, 5. p. 184

وقد تزوجت أمه من بلدوين الأول ملك بيت المقدس بعد ذلك بقليل فى عام ١١١٢م ، ويبدو أن روجر رحب بذلك الزواج ليتمكن من الانفراد بالحكم من ناحية ، آملا أن يؤول إليه عرش المملكة الصليبية بعد وفاة بلدوين الأول ، من ناحية أخرى (١) ، لكن آماله سرعان ما تلاشت حين عاد بلدوين فطلق هذه الزوجة سنة ١١١٧م ، وأعاد زوجته الأولى قبل وفاته بعام واحد ، ولعل ذلك ألقى بظلال من الكآبة على العلاقات بين روجر الثانى والمملكة الصليبية فى بيت المقدس . غير أن تلك السنوات التى قضتها والدته بعيدا مكنت روجر فيما يبدو من إرساء رسوم حكمه فى بالرم ، التى اتخذ منها عاصمة دائمة له ، إذ كانت تتميز بأنها تضم مجتمعا يونانيا إسلاميا (٢) ، وما لبث نفوذ روجر الثانى أن اتسع وامتدت رقعة أراضيه كثيراً ، حتى أصبح فى سنة ١١٣٠م سيد جنوب إيطاليا دون منازع ، وقضى على ثورات النبلاء النورمان فيما بين سنتى : ١١٣٤-١١٣٩م وصفى جميع أراضيهم وطرد الكثيرين منهم من إيطاليا ، فدانت له البلاد فى جنوب إيطاليا ولأبنائه من بعده ، كما آلت إليه مقاطعة أبوليا بعد وفاة حاكمها حفيد روبرت جويسكارد سنة ١١٢٧م ، كما نجح روجر الثانى فى إضافة أراضى شاسعة إلى ملكته امتدت إلى حدود أنكونا وروما شمالا وانتهى الأمر بتتويجه على يد البابا سنة ١١٣٠م (٣) ، وعرفت مملكته بمملكة الصقليتين ، وغدا له من الشهرة والنفوذ ما جعله من أقوى الشخصيات فى غرب أوربا فى ذلك الوقت (٤) .

---

(1) Smith : op. cit. p. 24

(2) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 304

(3) Haskins ; op. cit. p. 210
Ostrogorsky : op. cit. pp. 336-7

(4) La monte ; op. cit. p. 280

والواقع أن روجر الثانى كان شخصية عظيمة فعلا ، نجح فى تكييف سياسته لتتمشى مع أوضاع مملكته ، وأظهر مرونة فائقة فى تسيير أمور البلاد ، واستجاب للأوضاع الخاصة فى بلاده ، وربما لأنه تأثر كثيرا بالثقافة الإسلامية ، وأعجب إلى حد ما بالنظم البيزنطية (١) فى الوقت الذى ظل يحفظ ببعض سمات النورمان ومظاهر الحياة فى غرب أوربا ، فقد أظهر ما أظهره من اهتمام بالغ بامتزاج العناصر فى دولته ، ودمج رعاياه فى شعب واحد ، ولهذا حاول أن يقيم مملكته على أسس قوية فى جانبها العسكرى ومواردها المالية ، وأقام سلطته الملكية على أسس أتوقراطية مطلقة ، ولجأ إلى حد ما إلى استعمال القسوة لتأكيد سلطته وحماية مملكته ، وضرب بيد من حديد جميع الثوار الذين شقوا عليه عصا الطاعة ، وأخمد كل محاولات الفتنة ونكل بأصحابها (٢) . ولقد دعم روجر الثانى سلطته بإصدار مجموعة القوانين فى سنة ١١٤٠م ، ارتكز فيها على قوانين جستنيان فى أغلب الظن ، وشملت مجموعته معظم القوانين العامة المعروفة حينذاك ، كما ضمت بعض القوانين الإقطاعية التى عرفتها أوربا فى العصور الوسطى ، فرسمت تلك المجموعة بحق معالم سياسة روجر الملكية وجاءت تعبيرا عن مشيئته وعظيم إرادته (٣) ، كما عكست بصدق عادات رعاياه من اللمبارديين والبيزنطيين والعرب والرومان وحاولت أن تكفل التوازن والمساواة بين عناصر الرعية (٤) . وقد اعتبر روجر الثانى جميع أراضى مملكته ملكا له ، ومال إلى تطبيق النظم الإقطاعية (٥) ، وحرم

---

(1) Smith ; op. cit p. 32
(2) Curtis ; op. cit. p. 300
(3) Haskins : op. cit. p. 230
(4) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 204
(5) Smith : op. cit. p. 27

على النبلاء سك العملة ومنع قيام المنازعات فيما بينهم وأجبر القضاة على الالتزام بقوانين الملك ، ولكنه اضطر إلى الاعتراف إلى حد ما بحقوق بعض المدن أو ما عرف بالقومونات وهى المدن التى نالت نوعا من الاستقلال السياسى (١) ، وإن لم يؤد ذلك إلى الانتقاص من سيادة روجر الثانى أو سلطته فى المملكة.

أما عن سياسة روجر الثانى تجاه مسلمى مملكته، فيبدو أنه أدرك منذ البداية أن مصالحه ترتبط بالتعاون مع مسلمى بلاده واتباع سياسة التسامح مع كل فئات الشعب ، فالتزم بسياسة التسامح مع المسلمين بصفة خاصة ، طالما لم يكن ذلك التعاون متناقضا مع قوانين الدولة ووضعها ، وترتب على ذلك ازدياد سلطة المملكة وقوتها وصمودها فى وجه الأخطار الخارجية (٢) . ولقد خضع المسلمون فى الجزيرة لما خضع له بقية العناصر من نظم اقتصادية وطبق عليهم نظام الإقطاع، الذى كان ساريا فى المملكة ، ومنح روجر بعض أعوانه من المسلمين أجزاء من الأراضى كإقطاع مثلما فعل مع أعوانه من الفئات الأخرى، على حين تمتع سكان المدن من المسلمين بحريتهم فى أملاكهم ، غير أن فلاحى القرى من المسلمين كانوا قد فقدوا حريتهم مثل غيرهم من الفئات فى ظل النظم الاقطاعية (٣) . ولقد مثل المسلمون القوة الرئيسية فى الجيش والأسطول ، وأتاحت خبرة المسلمين الحربية لاسيما فى البحر لروجر الثانى فرصة الاعتماد عليهم فى حروبه فى جنوب إيطاليا ، كما أبقى روجر الثانى على كثير من النظم الإسلامية فى الجزيرة والتقسيمات الإدارية والألقاب والوظائف الإسلامية ، واصطبغ بلاطه بصبغة اسلامية (٤)

(1) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 220
(2) Keen : op. cit. p. 86
(3) Curtis : op. cit. p. 419
(4) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 204
Smith ; op. cit. p. 32

حتى ليبدو أقرب إلى بلاط أمير شرقى منه إلى بلاط ملك أوربى ، وتأثرت صقلية كلها بالمؤثرات الإسلامية فى حياتها الاجتماعية ونظمها وحتى فى عمائرها ومبانيها ، وأفادت جامعة سالرنو الناشئة من التقدم العلمى العربى ، لتصبح إحدى الجامعات الهامة فى أوربا فى العصور الوسطى ، متخذة من الكتب المترجمة من العربية، لاسيما فى مجال الطب والعلوم والتى انتقلت إليها عن طريق العرب ،أساسا لنهضة علمية كبيرة (١) .

أما بالنسبة لعلاقات روجر الثانى بالقوى الأوربية المسيحية ، فقد تعرض لعداء كل من الامبراطورية البيزنطية والإمبراطورية الألمانية ، بسبب تتويجه ملكا واعتبرته كل منهما خطرا على نفوذها وأملاكها(٢) ، بل حاولتا عقد محالفة فيما بينهما ضده ، غير أن البابوية تأرجحت فى علاقاتها مع روجر الثانى بين العداء والصفاء ، طبقا لعلاقتها بالإمبراطورية الألمانية ، فإذا تحسنت علاقاتها بالإمبراطور الألمانى ، مالت إلى تحطيم مملكة صقلية وتدميرها ، وإذا ساءت تلك العلاقات ، سعت إلى كسب ود روجر الثانى والفوز برضائه، غير أن العداء بين البابوية وبين روجر كان هو القاعدة فى ذلك الوقت (٣) ، وحينما قام روجر الثانى بتتويج ابنه وليم سنة ١١٥١م، احتجت البابوية على هذه الخطوة واعتبرت ذلك استفزازا جديدا من قبل ملك صقلية (٤) . أما عن موقف روجر الثانى من الحروب الصليبية ، فيبدو أنه كان يهتم بمصالح بلاده الاقتصادية أكثر من

---

(1) Hoskins : Med. Science. p. 166, p. 171.

(2) Camb. Med. Hist. V. 5. p, 186

(3) Camb. Med Hist. V. 5, p. 187

(4) Idid : p. 188

اهتمامه بالنواحى الدينية المزعـــومة ، ولكنه مع ذلك عرض على الإمبراطور كونراد الثالث والملك لويس السابع ملك فرنسا الاشتراك فى الحـــلة الصليبية الثانية وتقديم معونة بحرية ونقل القوات الصليبية إلى الشرق بحرا ، إلا أن الاثنين رفضا بسبب تخوفهما من أطماع النورمان واشتراكهما فى كراهية روجر الثانى(١). وبعد فشل هذه الحملة برزت فكرة الدعوة إلى حملة صليبية ثالثة يقودها روجر الثانى، ولكن لم يقدر للفكرة النجاح .

أما عن علاقة روجر الثانى بالدول الإسلامية القريبة ، فتشير الدلائل إلى أن ثمة علاقة طيبة ربطت بينه وبين الخـــلافة الفاطمية فى مصر ، لكن طموح روجر الثانى وسياسته التوسعية أدخلته فى صراع مع الدول الأخرى فى شمال إفريقية ، مثل دولة بنى زيرى وبنى حماد ، فقد أدى طموحه إلى الاستيلاء على جزيرة جربة سنة ١١٣٥م (٢) وعلى طرابلس الغـــرب سنة ١١٤٦ حيث بقى النورمان بها نحو ستة أشهر ، ثم فتح مدينة المهدية سنة ١١٤٨م واستباحها ، ولم يسترجعها منه المسلمون سوى سنة ١١٦٠ م وعاثت جيوشه فى كثير من مدن شمال إفريقية مثل سفاقس ، أى أن علاقات روجر بالدول الإسلامية فى حوض البحر المتوسط لونها العداء وميزتها الحـــروب ، وساعده على ذلك ما حدث من انحلال القوى الإسلامية وضعفها وانشغالها بالتنافس والحروب الداخلية فيما بينها (٣) .

---

(1) Runciman ; Hist. of the Crusades. II. p. 285
Grousset : Histoire des Croisades. II, p. 260

(2) Encyc. of Islam. Art. "Gerbah"

(3) Smith : op. cit. p. 29

وقد شهدت الفترة الأخيرة من عمر مملكة الصقليتين أحداثا متلاحقة ، إذ كان روجر الثانى قد تزوج خلال حياته ثلاث مرات، وأنجب خمسة أولاد مات منهم أربعة ولم يبق سوى واحد فقط هو « وليم » الذى خلف والده على العرش، واحتفل والده بتتويجه ملكا سنة ١١٥١م ، وأشركه معه فى الحكم ، ثم توفى روجر الثانى سنة ١١٥٤ فى بالرم وهو فى التاسعة والخمسين من عمـــره . ولقد شابه وليم والده روجر الثانى فى كثير من الأوجـــه (١) ونجح فى سياسته وفى تسيير دفة الحكم بنجاح فى الفترة بين (١١٥٤-١١٨٩) وأظهر وليم مقدرة وكفاية فى سياسته الخارجية بالذات ومشروعاته الحـــربية فأنزل هزيمة ساحقة بالجيوش البيزنطية فى برنديزى سنة ١١٥٦م ، وأجـــبر الإمبراطور البيزنطى مانويل كومنين على عقد صلح معه سنة ١١٥٨م وتوسط البابا لعقد ذلك الصلح، ولكن علاقة وليم بالامبراطورية الغربية صادها العداء على عهـــد فردريك الاول (٢) ، ولهذا اشترط البابا فى توقيع صلحه مع الامبراطور سنة ١١٧٧ أن يتعهد الإمبراطور بتوقيع هدنة مع ملك النورمان فى صقلية لمدة خمسة عشر عاما . غير أن مملكة صقلية أخذت تقترب من نهاية عهدها الزاهر فى ظل النورمان، حين أحرز الإمبراطور فردريك الأول نصره السياسى الكبير سنة ١١٨٤ بعقده مصاهرة سياسية بين ألمانيا وصقلية وزواج ابنه وخليفته هنرى السادس من الأميرة كونستانس وريثة مملكة صقلية (٣) ، برغم معارضة البابوية التى خشيت أن يؤدى ذلك إلى حصر أملاكها فى إيطاليا بين شقى الرحى عندما تؤول صقلية

---

(1) Bernard Lewis : The Arabs in Hist. p. 119
(2) Smith : op. cit. pp. 36–38
(3) Hearder & Waley : op. cit. pp. 45–6

إلى الإمبراطورية (١) ، وكان متوقعا أن تؤول صقلية فعلا إلى الامبراطورية الألمانية عقب وفاة وليم سنة ١١٨٩م ، إلا أن حزبا وطنيا فى صقلية رفع إلى العرش ، تنكرد ، بدلا من كونستانس الوريثة الحقيقية وزوجة هنرى السادس ، وترتب على ذلك قيام هنرى السادس بالزحف إلى جنوب إيطاليا للاستيلاء على مملكة زوجته ، ولكنه اضطر إلى الانسحاب أمام عنف مقاومة نابلى من ناحية وانتشار الأوبئة فى جيشه من ناحية أخرى (٢) ، ولم ييأس هنرى السادس وعاود الكرة بعد ذلك سنة ١١٩٤ ، بعد أن جهز معونة بحرية من جنوا وبيزا وزحف إلى إيطاليا ، وكان تنكرد قد توفى فى نفس العام ، وخلفه ابنه وليم الثالث ، الذى لم يستطع مواجهة الامبراطور ، فتمكن هنرى السادس من الاستيلاء على مملكة الصقليتين (٣) ، وأذن لزوجته بالبقاء فيها تنوب عنه فى حكمها ، وعاد هو إلى ألمانيا سنة ١١٩٥ ، كإمبراطور عظيم فازداد نفوذه كثيرا فى أوربا (٤) .

وبعد وفاة هنرى السادس سنة ١١٩٧ عاد تاج صقلية فانفصل عن الإمبراطورية ، إذ آثرت كونستانس أن تحتفظ لابنها فردريك الصغير (الثانى) بعرش صقلية مبتعدة عن ألمانيا (٥) ، وحينذاك أعلنت تبعيتها للبابوية فى الوقت الذى لم تبذل الامبراطورية الألمانية أى جهد لاستعادة عرش صقلية (٦) ، فحكمت

(1) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 453
(2) Heyck : " The triumphs of Barbarossa ". B. H. VII : p: 3610
(3) Cantor : Med. Hist. p. 473
(4) Camb. Med. Hist. V. 5. p. 409
(5) Keen : op. cit. p. 95
(6) Camb. Med. Hist. V. 6. pp. 44-5

كونستانس تابل وصقلية باسم ابنها الطفل فردريك ثم عاد الاتحاد من جديد بين ألمانيا وصقلية بعد وفاتها ، حين توج فردريك امبراطورا على ألمانيـــا ، باسم فردريك الثانى ، ليجمع بين العرشين(١). وهكذا دخلت صقلية فى فترة جديدة وعهد جديد بعد أن ازدهرت كثيرا فى ظل أسرة هوتفيل لاسيما على عهـــد روجر الثانى .

(1) Keen : op. cit. p. 95

قائمة المراجع

أولا : المراجع العربية والمعربة

إبراهيم أحمد العدوى (دكتور) :

- المسلمون والجرمان (القاهرة ١٩٦٠)
- المجتمع الأوربى فى العصور الوسطى (القاهرة ١٩٦١)

ابراهيم على طرخان (دكتور) :

- دولة القوط الغربيين (القاهرة ١٩٥٨)
- المسلمون فى أوربا (القاهرة ١٩٦٦)

إحسان عباس :

- العرب فى صقلية (القاهرة ١٩٥٩)

أرشيبالد لويس :

- القوى البحرية والتجارية فى حوض البحر المتوسط
(ترجمة أحمد عيسى ومراجعة محمد شفيق غربال ـ القاهرة ١٩٦٠)

باركر (أرنست) :

- الحروب الصليبية (ترجمة الدكتور السيد الباز العرينى ـ القاهرة ١٩٦٠)

تشارلز وورث:

- الامبراطورية الرومانية (ترجمة رمزى عبده جرجس ـ مراجعة محمد صقر خفاجه ١٩٦١)

جوزيف نسيم يوسف (دكتور) :
- نشأة الجامعات فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٣)
- الدولة والامبراطورية فى العصور الوسطى (الاسكندرية ١٩٧٠)

جيبون :
- اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها :
ج١ ترجمة محمد على أبو درة مراجعة نجيب هاشم
ج٢ ترجمة لويس اسكندر مراجعة نجيب هاشم
ج٣ ترجمة محمد سليم سالم مراجعة محمد على أبو درة

حسن حبشى (دكتور) :
- الحرب الصليبية الأولى (القاهرة ١٩٥٨)

ديفز :
- أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة د. عبدالحميد حمدى الاسكندرية ١٩٥٨)

ديورانت (ول) :
- قصة الحضارة ج٢ مجلد ٣ (ترجمة محمد بدران ط جامعة الدول العربية)

وارض :
- التاريخ الإنجليزى (ترجمة الدكتور محمد مصطفى زيادة - القاهرة ١٩٤٦)

رستوفتزف :
تاريخ الإمبراطورية الرومانية (ترجمة د. زكى على)

سعيد عبد الفتاح عاشور (دكتور) :
- أوربا العصور الوسطى جزءان (القاهرة ١٩٦٦)

- قبرص والحروب الصليبية (القاهرة ١٩٥٧)

الحركة الصليبية - جزءان (القاهرة ١٩٦٣)

- النهضات الأوربية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة (بالاشتراك - (القاهرة ١٩٥٦)

السيد الباز العرينى (دكتور):

- الدولة البيزنطية (القاهرة ١٩٦٥)

- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٨)

عبد المنعم ماجد (دكتور) :

- العلاقات بين الشرق والغرب فى العصور الوسطى (بيروت ١٩٦٦)

عمر كمال توفيق (دكتور) :

- تاريخ الإمبراطورية البيزنطية (الاسكندرية ١٩٥٩)

فشر :

- تاريخ أوربا فى العصور القديمة (ترجمة ابراهيم نصحى و د. محمد عواد حسين - القاهرة ١٩٥٠)

- تاريخ أوربا فى العصور الوسطى (ترجمة د . زيادة ود. العرينى و د . العدوى ١٩٥٠)

كرمب وجاكوب :

- تراث العصور الوسطى (مراجعة محمد بدران و د. محمد مصطفى زيادة القاهرة ١٩٦٥)

كوبلاند وفينوجرادوف:

- الإقطاع والعصور الوسطى (ترجمة د. زيادة -ط ٣ القاهرة ١٩٥٨)

كرلتون:

- عالم العصور الوسطى فى النظم والحضارة (ترجمـــة د. جوزيف نسيم - اسكندرية ١٩٦٧)

محمد محمد مرسى الشيخ (دكتور) :

- الجهاد المقدس ضد الصليبيين حتى سقوط الرها (الاسكندرية ١٩٧٠)

- دقلديانوس المهد الحقيقى لظـــهور العصر البيزنطى (مقـــالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

- نظرة جديدة إلى إنجازات الإمبراطور قنسطنطين الأكبر ٣٠٥-٣٣٧م (مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

- شارلمان باعث النهضة الأوربية ومجدد عهد الامبراطورية فى الغرب (مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

- الإسلام والتاريخ الأوربى الوسيط (مقالة - الاسكندرية ١٩٧٥)

نظير حسان سعداوى (دكتور) :

- تاريخ انجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى(القاهرة١٩٦٨)

ثانيا : المراجع الاوربية :

Aimond, Ch. :

— Le Moyen Ages (Paris 1947)

Altamira, R. :

— A History of Spain from the begining to the present Date. (trans. by Muna lee). London 1952

The Book of History : A History of all nations from the Earliest times to the Present. Volume V, VII; VIII; Many specialists:

— Davis, H. W. C. :

"The British Isles from the earliest times to the middle ages"

— Davis & Arthur :

"The British Isles throughout the middle ages"

"England before the Norman Conquest"

"The Norman period in England"

— Helmolt, Hans, F. :

"Italy and the Lombards"

"Mediterranean in the middle ages"

— Heyck, Eduard :

"The rise of the Germanic races and the comming of the Barbarians"

"The rising of the teuton power"

"The great teutonic deluge"

"Rise of the frankish dominion"

" The triumaphs of Barbarossa "

— Hodgkin, Thomas :

" The moulding of the nations "

— Jung, Julius :

" The comming of the goths"

— Marhrenholtz, R:

" The Empire of Charlemagne "

" France throughout the middle ages"

— Schjoth, Hans :

" The Lands of the Northmen "

" Denmark and its sister states "

" Great days of the Northmen "

— Schurtz, Heinrich :

" Spain and its Conquerors "

Bryce :

— Primitive Iceland (Oxford 1901)

Bury, J. B :

— History of the Later Roman Empire 2. Volume (London 1923)

Cambridge Medieval History 8 Vols: (Cambridge 1924)

Cantor, N. F. :

— Medieval History (New York 1964 Sec. Printing)

— The Medieval World 300 - 1300 (Edited by Cantor New york 1968)

Chadwick, H. :

— The Early Church (London 1967)

Courtois, C. :

— Les Vandales et L'Afrique (Paris 1955)

Curtis :

— Roger of Sicily and the Normans in Lower Italy. (New york 1912)

Denis Mack Smith :

— A History of Sicily. Med. Sicily 800–1713 (London 1968)

Diehl :

— L'Afrique byzantin (Paris 1896)

Ellis and Fisher :

— A History of English life sec. Ed.

Encyc. Britanica

Encyc. of Islam (English Vols.)

Freeman E. A. :

— History of Norman Conquest (London 1847)

Gasquet :

— L'Empire byzantin et la manorchie franque

Grant, A. J. :

— Outlines of European History (New impression London 1951)

Grousset, R. :

— Histoire des Croisades (Paris 1936)

Hallam :

— View of the state of Europe during the middle ages.

Haskins Ch. H. :

— The Netmans in Enropean History. (New york 1959)

Hearder and Waley :

— A Short History of Italy. (Cambridge 1963)

Hodgkin, T. :

— Theodoric the Goth. (London 1891)

Huizinga, J. :

— Le Declin du Moyer Age (Paris 1961)

Hussey, J. M. :

— The Byzantine World. (London 1967)

Katz; S. :

— The Decline of Rome and the rise of Medieval Europe. (New york 1955)

Keen, S. :

— A Hist. of Medieval Europe (lonron 1967)

La Monte :

— The world of the middle ages (1949)

Lewis, B. :

— The Arabs in History (London 1966)

Livermore, Harold :

— A History of Spain (London 1966)

Lodge, Sir R. :

— The close of the middle ages 1273–1494 (London 1963)

Lot, F. :

— The End of the Ancient world and the Beginning of the middle ages (Londor 1966).

Luchaire :

— Le quatre premiers Capetiens in Lavisse ; Hist. de France. (Paris 1901).

Marcias :

— La Berberie Musulmane L'orient du moyen eges (Paris 1946).

Oman, Sir Charles :

— The Dark ages 476–918 (London 1962)

Orton, J. B. :

— The shorter Camb. Med. Hist. Vol. I.

Ostrogorsky, G. :

— History of the Byzantine State. (Oxford 1956).

Painter :

— A History of the middle ages from 284 to 1500 (1952).

Pirenne, H. :

— Mohammed and Charlemagne. (London 1968)

Pollock and Maitland :

— History of English law.

Preu, M. :

— Le Gaule merovingienne, (Paris 1964)

Gautier, E. :

— Genseric

Rayner, R. M. :

— A Consise History of Pritain (London 1939)

Renouf, V. A. :

— Outlines of General History. (London 1910)

Rice :

— Byzantium (1969)

Ripley, W. :

— The races of Europe (1899)

Reud :

— Feudal England.

Runciman, S. :

— A History of the Crusades. (London 1971)

Seidlmayer, M. :

— Currents of Medieval thought (trans. by D. Barker Oxford 1968)

Southern, R. W. :

— The Making of the middle ages (London 1967)

Stevenson, W. B. :

— The Crusaders in the East. (Cambridge 1968)

Tessier, g. :

— Le Bapteme de clovis (Paris 1964).

Trevelyan, I. M. :

— History of England. Part I. (Loncor 1926)

Vasiliev, A. :

— The Byzantine Empire (Madison 1952)

Warner, M. A. :

— The ground Work of British History (London 1942)

Ziegler :

— Church and State in Visigothic Spain (1930)

كشـــاف

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ر)

(ز)

(س)

(ش)

(ص)

(ط)

(ع)

(غ)

(ف)

(ل)

(م)

(ن)

(هـ)

تصويبات

الصفحه	السطر	الخطأ	الصواب
٦	١٤	على أهميه	على أهمية
١٩	٥	وغوزوهم	وغزوهم
	١٠	انتصار سياجريوس	انتصار كلوفس على سياجريوس
٢٢	٢	وحصلو	وحصلوا
	١٦	إذا	إذ
٢٣	١٠	هنوويوس	هنوريوس
٢٤	١	لقدمه	لقومه
٢٥	١٠	فى أدك	فى حين أدرك
٢٨	٩	بحكم أريوسيه	بحكم أريوسيته
٤١	٢	أيوسية	أريوسية
٦٣	٧	أماريك	أملريك
٦٧	١٥	Baspues	Basques
١٤٤	٥	حوزكم فى	فى حوزتكم
١٩٠	٤	الفرانجه	الفرنجة
٢٠١	٧	رئيس	رئيسا
٢٠٨	١٣	ومزارعوا	ومزارعو
٢٦٦	١٤	فساوا	فسادوا
٢٧٥	١٠	المدن	المدينة
٢٩٩	١٥	يغعل	يحفل


دار
سعيد للطباعة
محمود كرم وشركاه
تليفون ٣٩٢٢٥
سجل تجاري ٦٢٧٩١
٢ شارع سان سابا - أمام سينما ريو
الإسكندرية